

جامعة القاهرة
كلية الآداب

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

٥

يناير ١٩٩٠

يصدرها قسم التاريخ

محتــوى العــدد

صفحة

قــواعد النشــــــر

* ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسـات الأصـيلة ذات المستوى الاكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

* تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخيـة والحضـارية المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فى ذلك الهـوامش والجـداول وقائمة المراجـع .

* يجب أن يكون واضحا أن المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسـة التحرير باخطار المؤلفين باجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

* النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربيـة والأجنبيـة وسـائر المهتمـين بالدراسـات التاريخيـة .

* الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .





المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العـــدد الخامس		ينـــاير ١٩٩٠

المراســـلات :

ترســـل البحـــوث والمقـــالات باسم الســـيد الاســـتاذ الدكتور / **حامد زيان غانم** على العنوان التالى :

كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

جمهورية مصر العربيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنا أن نقدم العدد الخامس من « المؤرخ المصرى » حاويا عددا من المقالات الممتعة التى تتناول مراحل التاريخ المختلفة القديمة والوسيطة والحديثة محليا وعالميا .

وفى هذا الصدد نتقدم بخالص شكرنا وعظيم امتناننا للسادة الزملاء الاساتذة المحكمين ، سواء كانوا من هيئة تحرير المجلة أو من خارجها ، على الجهد المبذول من جانبهم فى تحكيم المقالات التى ترد للمجلة جزاهم الله خير جزاء .

وندعو الله ــ العلى القدير ــ أن يوفقنا جميعا فى اكمال المسيرة نحو نشر البحوث والدراسات الجادة .

والله الـــــــــوفق ، ، ،

الدكتور حامد زيان غانم
استاذ ورئيس قسم التاريخ
ورئيس تحرير « المؤرخ المصرى »
كلية الاداب ــ جامعة القاهرة

الأبحاث والدراســات

الالوان فى مصر القديمة ودلالتها التاريخية

د. ضحى محمود مصطفى
كلية السياحة - جامعة حلوان

مقدمة :

لعبت الالوان فى مصر القديمة دورا متميزا فى الدين والفكر واللغة والفن . وتهدف هذه الدراسة الى الكشف عن مزيد من الدلائل المختزنة فى الالوان المستخدمة فى تلوين الرسوم الجدارية والعناصر المعمارية بمصر القديمة ، ليس فقط من ناحية المعنى الدينى والمغزى الرمزى أو الدلالات اللغوية وانما ستزودنا ايضا بالعديد من المعلومات عن مصادر خاماتها الطبيعية ومدى اتساع التبادل التجارى بين مصر وجيرانها وتطور الاساليب التقنية المستخدمة فى تحضيرها .

اهمية اللون ووظيفته ومغزاه :

سمى المصريون القدماء جزء من وطنهم باسم لون تربته السوداء KMT ويرى البعض فى تلك التسمية اصل كلمة كيمياء (Chemistry) [١] والتي كانت تعتبر قديما من «الفنون السوداء» كان المصرى يشير الى الصحراء بلونها الاصفر الضارب الى الحمرة باسم طائر النحام (او البشاروس)dšrt واسم هذا الطائر فى اللغات الحديثة (Flamingo) وهو مشتق من كلمة (flame) أى « شعلة » . واستخدام نفس الكلمه للاشارة الى معنى « غضب » او « دم » وكلمة dšrw dšrw لها ايضا معنى « سئ » او « شرير »[٢] ونلاحظ ايضا ان اللون الاحمر قد ارتبط منذ وقت مبكر بالمعبود « ست » ومن ثم فقد استخدم فى كتابه اسم « ابو فيس » وغيره من الأمور المكروهة مثل النذير فى تقويم الايام ذات الفأل

الحسن والايام ذات الفأل السئ . (٣)

كذلك كانت اكثر التسميات المصرية شيوعا لكلمة « بحر » هى الاخضر العظيم w3d - wr وهنا يجدر بالذكر ان اللون كان يكتسب اسمه من شئ او علامة يكون له اللون المراد الاشارة اليه فمثلا اختار المصرى ساق البردى لتصبح العلامة الهيروغليفية الدالة على اللون الاخضر w3 d ثم اكتسب هذه العلامة معان أخرى مثل « طازج » واصبحت فيما بعد ترمز للنمو والازدهار والحياة الجديدة والبعث ، كان المصرى يرى فى ألوان بشرة الاجناس تقسيما إلهيا لانواع البشر وكان اللون صفة جسمية تميز الكائن عن غيره فى عالم الاحياء . ومن ثم ندرك ان دور الالوان فى الفن المصرى لم يكن جماليا (aesthetic) وانما للتخصيص (characterisation) فمثلا اصطلح الفنان المصرى على تلوين جسم الرجل باللون البنى وجسم المرأة باللون الاصفر الباهت حتى ولو كان ذلك متافيا للواقع وكأنما اللون هو التوقيع الذى يضعه الفنان على الاشياء ليسميها ويحددها وربما كان القصد وراء هذا التمييز هو ابراز ان بشرة الرجل غالبا ما تتسم بلون داكن نتيجة لتعرضه المستمر لاشعة الشمس بحكم عمله اما المرأة فتظل بشرتها باهتة اللون بحكم وجودها فى المنزل لاوقات طويلة . وعلينا ان نتذكر ان الفن المصرى وجد ليظل خافيا عن الاعين ولم يصنع لتراه العين وان وظيفة اللون كانت لتحديد الشئ وابراز اهم خصائصه وليس بغرض الامتاع البصرى . (٤)

كانت مجموعة الالوان الاساسية المستخدمة فى الدولة القديمة هى : الاسود والابيض والاحمر والاصفر والاخضر والازرق . وقد استخدم

اللون الوردى ابتداء من الدولة الحديثة ، كذلك الرمادى والبنى - اللذين استخدما ايضا منذ الدولة القديمة - وان ظل نادرا اذا قورن باستخدامات الالوان الاساسية المذكورة (٥) ويمكن الحصول على اللون الوردى بخلط الاحمر بالابيض كذلك يمكن الحصول على اللون الرمادى بخلط الاسود بالأبيض .

ويمكن تقسيم مواد التلوين الى قسمين : اولهما الالوان الصلبة drwy (٦) وتشمل الازرق hsbd: (Azurite) (٧) والاخضر (Malachite) تشتمل على الخامات الطبيعية منها والحميص : (frit) ، الذى يتم تحضيره صناعيا . وثانيهما مجموعة الالوان الترابية والصلصالية sty (٨) وهى تشمل اكاسيد الحديد الطبيعية التى تعرف بالمغرة الحمراء (red ochre) والمغرة الصفراء (yellow ochre) . ويقاس النوع الأول أى الصلب بالوزن ، بينما يقاس النوع الثانى أى الترابى بالحجم . (٩)

* * *

الاسود km

كان اللون الاسود يتم تحضيره من مسحوق الفحم ومن السناج d͟ʿbt (١٠) والجدير بالذكر ان كلا من اللونين الاسود والابيض لم يرد ذكرهما ضمن قوائم اسماء مواد التلوين - رغم استخدامهما المستمر - وانما ترد كلمة d͟ʿbt للاشارة الى سواد الفحم الناتج عن طريق حرق نوع من الخشب .

كان الاسود يستخدم لتحديد الخطوط الخارجية للاشكال فى الرسوم الجدارية كما كانت تلون به العيون والشعر والمناظر التى تمثل بها اشياء

مصنوعة من المعدن أو الجرانيت ويعبر اللون الاسود عموما عن الارض الراعدة بالخصوبة والاشياء المتعلقة بالليل والموت والعالم السفلى وكان الاسود هو لون « أوزير (واحيانا ايزيس) والملكة « احمس نفرتارى» كما كانت تدهن به الموميات وتماثيل المجاوبين وتماثيل المعبود «انوبيس » [١١] واحيانا كان الازرق يحل محل الاسود واستخدمها الفنان المصرى بالتبادل ، احيانا لأسباب جمالية واحيانا أخرى لاغراض رمزية ، مثلما فى حالة الشعور المستعارة للألهة ولحاها ، والتى كان المصرى يعتقد انها مصنوعه من اللازورد [١٢] .

الابيض ḥḏ [١٣]

كان اللون الابيض يتكون من مسحوق الحجر الجيرى (كربونات الكالسيوم) او من الجبس (كبريتات الكالسيوم المائية) وكان يتم تحضيره من الأخير بتسخينه على نار هادئه (١٥٠° - ٢٠٠°) والجبس الطبيعى متوفر فى مصر بكثرة وقد استخدم كملاط منذ عصر ما قبل التاريخ وقد عرف ابتداء من فترة العمارنه باسم ḳd [١٤] اما تسميته قبل ذلك فلم تعرف بعد .وللحصول على ابيض اكثر نصاعة كان الجير يمزج ببعض الجبس وقد ثبت ذلك من فحص احجار التلاتات التى عثر عليها بداخل الصرح التاسع بالكرنك حيث كنت اسطحها مطلية بجبس مشبع بالجير . وقد عثر صالح احمد صالح على كلتا المادتين معا عند دراسته للالوان المصرية بواسطة الأشعة السينية فى مقابر ترجع الى عهود مصرية مختلفة .[١٥]

ويرى هاريس (Harris) أن sšw [١٦] وهى مادة معدنيه بيضاء اللون ليست من ضمن المواد الملونة أو الأحبار وانما يمكن اعتبارها

رصاص ابيض .

كان الابيض هو لون تاج الوجه القبلى واصبح منذ وقت مبكر اللون القومى لمصر العليا فقد كانت الهة الوجه القبلى تدعى Nḫn–Ḥḏt (١٧) وكان هناك « البيت الابيض » Pr - ḥd مقابل البيت الاحمر pr - dšr فى الوجه القبلى .

كان الابيض هو اللون الاكثر شيوعا فى تسمية الحيوانات المقدسة فمثلا نجده فى اسم البقرة البيضاء Ḥ3st والثور الابيض « مونتو » Mnṯw والقرد الابيض الكبير Ḥḏ wr (١٩)

وكان السادة يرتدون دائما ملابس بيضاء بينما يرتدى الخدم والاجانب ملابس ملونة وكان الكهنه والآلهة يرتدون صنادل بيضاء ، وإن كانت عصبة الرأس البيضاء فى بعض الاحيان تعتبر علامة للحداد (٢٠).

الاحمر dšr

كانت خامات الألوان الترابية - وهى تتكون اساسا من المغرة الحمراء (red ochre) والمغرة الصفراء (yellow ochre) - هى عبارة عن اكاسيد الحديد الطبيعية . وقد ظل استخدام المغرة الحمراء كمصدر للون الاحمر مستمرا فى مصر على مر العصور .

والمغرة الحمراء عبارة عن خليط طبيعى، اهم مكوناته هو اكسيد الحديديك المعروف باسم الهيماتيت (Haematite : F2 O3) ويتميز بلونه الاحمر المائل للسواد وله مظهر معدنى واهم المصادر الى حصل منها المصرى القديم على المغره الحمراء موقعان : احدهما بالغرب من اسوان والأخر من واحات الصحراء الغربية وبخاصة فى الواحات البحريـة (٢١).

ويرجع استخدام الهيماتيت الى عصور ما قبل التاريخ ويظن ان المصريين تمكنوا من الحصول على المغرة الحمراء بتسخين المغرة الصفاء وان كان ليس من المؤكد استخدامهم لهذه الطريقة ، نظرا لتوفر المصادر الطبيعية للمغراء الحمراء . وعثر على لون احمر مستحضر من مادة السلاقون وهو الاكسيد الاحمر الطبيعى للرصاص (Minium) وذلك على أثار من العهد اليونانى الرومانى بهوارة وإن ظل استخدامه نادرا بمصر حتى العصر الرومانى (٢٢)

عرف المصريون عدة درجات من اللون واطلقوا عليها تسميات مختلفة ربما تشير الى مصادرها المتفرقة فى انحاء البلاد أو الحالة التى كانت عليها عند الاستخدام ونذكر منها :

tms (٢٣) ، tr, (٢٤) ، mnts (٢٥) ، tmhy (٢٦)

ويرى لوفيفر (٢٧) (Lefebvre) ان المصريين استخدموا dsr للاشارة الى لون الدم القانى والنبيذ القاتم وذوى الشعور الحمراء بينما استخدموا tmsw للاشارة الى اللون الاحمر الضارب الى البنفسجى (violet) . كما لاحظ انهم استبدلوا لفظ dsr بكلمة w3d تطيرا لما كان للون الاحمر من ارتباطات بالمعبود « ست » والارواح الشريرة . واستخدموا التسميه w3dt لتاج الوجه البحرى بالتبادل مع dsrt وهى تعنى ايضا الهه الوجه البحرى وادجت ويلاحظ ان اهل الريف حاليا يستخدمون لفظ « اسمر » بدلا من « اسود » (فمثلا ثوب اسمر بدلا من ثوب اسود) ربما لتجنب التلفظ بكلمة « اسود » وما توحى به من معان الحزن والحداد والشؤم . كانت العناوين والمقـــاطع

(Rubrics) تكتب باللون الاحمر الإ ان بعض الكلمات كاسماء الملوك والالهة كانت تضاف بالون الاسود تجنبا لخطورة استخدام اللون الاحمر . كذلك الأيام « السيئة » فى النتائج كانت تكتب بالاحمر بينما الايام « الطيبة » تكتب باللون الاسود (٢٨)

ويرى جريفث (Griffiths) أن نفورالمصريون القدماء من اللون الاحمر ليس راجعا الى ارتباطه بالمعبود « ست » وانما لارتباطه بالدم(٢٩) وان الاحمر لم يكن مرادفا للشئ الضار فى جميع الحالات وخاصة فيما يتعلق بضوء الشمس والنار المضيئه فالشمس تكافح شياطين الظلام فى العالم السفلى كذلك تعتبر التمائم الحمراء ، مثلما فى عقدة ايزيس tit (٣٠) من الاستخدامات الطيبه للون الاحمر . واعتبر الاحمر احيانا هو لون الانتصار المماثل لضوء شمس الظهيرة الظافرة وكان المصرى عموما يعتقد ان هناك الوان « خيرة » وألـــوان « شريرة » حتى انه كان يدعو الإله ان تخلصه من تلك الالوان الشريرة ففى برديه ايبرز (Ebers) « يقول أوه يا ايزيس حررينى من كل الاشياء الشريرة الحمراء » (٣١)

الا ان معظم الادلة تشير الى كراهية المصريين للون الاحمر فقد تحدث بلوتارخ (Plutarch) عن نفى الاجانب « الحمر » الى الكاب ، كما ذكر ديودور (Diodore) التضحية بذوى الشعور الحمراء عند قبر « أوزير » .وغالبا ما كان يضحى بالابقار الحمراء ، او الغزلان الحمراء والخنازير ويعتبر قتلها بمثابة القضاء على « ست » ذاته وبالتالى كانت الحمير والكلاب المبقعه باللون الأحمر تعتبر ملعونـه . (٣٢)

الاصفر sty (٣٢)

استخدم المصريون نوعين من المواد الطبيعية للحصول على اللون الاصفر اولاهما : المغرة الصفراء (yellow ochre) وهى المعروفة بالليمونيت (Limonite) وهو اكسيد الحديد المائى F2O(OH) أو الجوتيت (Goethite) وتركيبها الكيميائى : 2O2 أما الماده الأخرى فهى الماده الأخرى فهى الوهج الاصفر أو (Orpiment) وهى مادة كبريتيد (زرنيخ اصفر) «AsS_3» ٣ وقد لاحظ ديفوا (Devaud) (٣٣)تشابه الاسم المصرى لمغرة الصفراء sty مع اسم بلاد النوبه t3 - sty وربما كان ذلك يرجع الى وجود هذه الماده بكثرة فى تلك المنطقه من جنوب الوادى .

استخدمت المغرة الصفراء فى التلوين منذ عصور ما قبل الاسرات بينما بدء فى استخدام الرهج الاصفر منذ الدولة الوسطى (٣٥) وقد سبق الاشارة الى أن لفظ sty يشمل الانواع الترابيــه مـن مــواد التلويـــن (واحيانا كانت تستبدل بكلمه tr وذلك بلونيها الاصفر والاحمر ، كما يشير لفظ d rwy الى الانواع الصلبة من الالوان سواء الاخضر منها او الازرق . كذلك يستخدم لفظ sty فى الاشارة الى الخامة الاولية عند استخدامها فى حالتها الطبيعية . وقد عرف كبريتيد الزرنيخ او الرهج الاصفر باسم Knyt (٣٦) ، ونظرا للونه الزاهى المضئ فقد حظا هذا النوع بالتفضيل عن سائر خامات اللون الاصفر ويبدو ان استعماله قد اقتصر على الاعمال الملكية اثناء الدولة الحديثة وهناك بعض الشواهد التى تدل على انه كان يتم استيراده من الخارج - وربما تم ذلك فى عهد حتشبسوت :ومن

المحتمل ان ذلك كان وراء زيادة قيمته وتطور اهميته كخامه للتلوين وبخاصة فى عهد تحتمس الثالث حيث لوحظ استخدام الرهج الاصفر - ولأول مرة - فى ملئ نقوش التوابيت الملكية ، بينما لم يستخدم ابدا فى تلوين الرسوم الجدارية [٣٧]. وقد ارتبط استخدام الرهج الاصفر بمادة آحادى كبريتيد الزرنيخ AsS المعروف باسم رهج الغار او زرنيخ احمر (Realgar) الذى يعطى اللون البرتقالى او الاصفر الذهبى وقد استخدم فى التلوين بمقبرة الملكه نفرتاى كما عثر بها على هيئه كتل صغيره غير نقية معدة للتلوين ويشير المصريون الى رهج الغار باسم 3wt - ib والترجمة الحرفية لها هى : بهجة او سرور نتيجة لطبيعة اللون الزاهية وما له من بريق [٣٨] مما دعا المصريون الى اطلاق هذا الاسم على احد أنوع الذهب المسمى nbw - n - ḳnyt)[٣٩]. كان الاصفر الذهبى يرمز الى اجساد الآلهة وكانت « حتحور » تدعى الذهبيه وتوصف بانها ذهب الآلهه ، كما كان قارب رع يطلى بهذا اللون . كذلك كانت تلون به بعض شخوص الالهة مثل « حورس » و « شو » « تفنوت » و « حح » . وممن المعروف ان الاصفر الذهبى كان رمزا للخلود وتجدد الخلق ، علاوة على انه كان لون القمح واشعة الشمس وهلال القمر الذى يعلو رأس خونسو [٤٠] كما كانت تلون به بعض اجزاء التيجان وشارات التكريم والعقود الذهبيه .

الاخضر w3d

استخدم المصريون الملاكيت (Malachite) - وهو احدى خامات النحاس الطبيعية - للحصول على اللون الاخضر، والملاكيت هو احدى كربونات النحاسيك القاعدية 2CaCO3.Cu(OH)2 كما استخدم معدن

الكريز وكولا الاخضر (Chrysocolla) بصورة اقل انتشارا كخامه للون الاخضر ، وهو عبارة عن سليكات النحاس الطبيعية . Cu Si O 3 nH2O ويوجد كلا من الملاكيت والكريز وكولا بكثرة فى سيناء والصحراء الشرقية . كذلك ثبت استخدام صدأ النحاس) (Verdigris فى التلوين باللون الاخضر وكان يتم الحصول عليه بكشط هذه المادة من اسطح القوارب . وغالبا ما كان يشا ر للخامات الثلاثة المذكورة بكلمة w3d دون تفرقه ما .

وقد لجأ المصرى الى تحضير اللون الاخضر صناعيا وهو ما يسمى بالحميص الأخضر (Green Frit) وذلك ابتداء من الأسرة السادسة وكان يشار اليه بكلمه šsyt [٤١] وهناك نوعان من الاخضر المحضر صناعيا أولهما هو « كلوريد النحاس » Cu2CI(OH)2 والثانى هو (Cuproan wollastonite) وقد توقف استخدام هذ الأخير بعد الاسرة الثانية عشرلسبب غير معروف بعد[٤٢] . ومن المعروف أن الحميض هو نوع من الزجاج غير تام الانصهار اى يمكن سحقه بالحك وقد اتضح ان المصرى لم يستخدم اللون الاخضر فى صورته الطبيعية ابدا نظرا لعدم ثبات خامات النحاس وتغير لونها وحالتها بالتسخين لذلك فضل استخدام المركب المجهز صناعيا لثباته كذلك توصل المصرى الى تحضير اللون الاخضر صناعيا وذلك بمزج الحمض الازرق blue frit) (مع المغرة الصفراء (yellow ochre)[٤٣] وكان يشار للون الاخضر الناتج من هذا الخلط باسم mfk3t وهو يرادف اخضر الفيروز[٤٤]

تستخدم كلمه w3d للاشاره الى للون الاخضر والاحجار الكريمة والنصف الكريمة والكحل الاخضر وتستخدم للاشارة الى كل هذا

على السواء دون تعريف محدد لاى منها . وقد وردت ضمن المواد المستخدمة طبيا فى بردية إيبيرز (Ebers) وكان لخامات اللون الاخضر تأثير قابض ومبرد وكثيرا ما استخدمت فى علاج بعض امراض العيون (٤٥). وكانت مادة الملاكيت يشار اليها احيانا بكلمه šsm(٤٦)

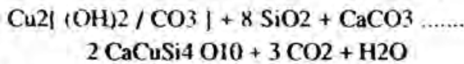
ارتبطت الاشياء الخضراء فى لغة الرموز بمعانى النضارة والطزاجة والنمو لذلك كانت تمائم الشفاء والحماية خضراء وكان « اوزير » اخضر اللون ايماء للحياة الجديدة بعد الموت كما كانت عين « حورس » السليمه خضراء .

الازرق ḫsbḏ

كان معدن الأزوريت (Azurite) هو الخامة الطبيعية الوحيدة المستخدمة للتلوين باللون الازرق وذلك ابتداء من عهد الاسرة الرابعة وقد بدأ المصريون منذ ذلك الوقت فى تحضير اللون الأزرق صناعيا نظرا لندرة معدن الأزوريت بمصر ، بالاضافة الى اكثار الفنان المصرى من استخدام هذا اللون نظرا لمضاهاته للون السماء ولذلك كانت تطلى به اسقف المعبد والمقابر مما تطلب استخدامه بكميات كبيرة . ومعدن الازوريت ما هو إلا خام النحاس الطبيعى المعروف باسم كربونات النحاسيك القاعديه ٢ 0 Cu (OH)٣2Cu CO ويعتبر الازرق المصرى (Egrptian blue) او الحميص الأزرق (blue frit) وهو أقدم الالوان المصرية المجهزة صناعيا على الاطلاق ، وقد ظل مستخدما على مر العصور وايضا خلال العهد اليونانى الرومانى حين اندثرت اسرار صناعته فى السنة الأولى من الميلاد (ما بين ٢٠٠ و ٧٠٠ م) وقد استطاع « صالح احمد صالح » تحضير مادة اللون المعروف بالازرق

المصرى بجميع درجاته وبكميات كبيرة حين اتيحت له فرصه للقيام بمثل هذه الدراسة التفصيلية عندما تم الكشف عن مجموعة نادرة من خامات مواد التلوين بواسطة بعثه معهد شيكاغو الامريكيه فى عام ١٩٥٨ بفناء مقبرة « خرو إف » بغرب طيبه [٤٧]

وقد خضع الازرق المصرى الى العديد من التجارب العلميه وقد اتفقت الاراء على أن احدى الطرق الممكنه لتحضيره هو عن طريق تحميص مزيج من الرمل (Silica) وكربونات الكالسيوم والملاكيت وفقا للنسب المبينة بالمعادلة الآتية :



$$Cu_2[(OH)_2 / CO_3] + 8\ SiO_2 + CaCO_3 \ldots\ldots\ 2\ CaCuSi_4O_{10} + 3\ CO_2 + H_2O$$

إلا ان احدث الابحاث التى اجريت على الازرق المصرى هى التى قام بها ياكش H . Jaksch والتى كشفت عن تطور مثير فى تحضير هذا اللون وذلك فى عهد تحتمس الثالث حيث استبدل خام النحاس المعتاد استخدامه ببرادة البرونز (Bronze Filing) [٤٨]

كان الاستخدام الرمزى للازرق قليلا نسبيا وان كان أحب الالوان لدى المصرى للتزين فهو لون اللازورد (Lapis Lazuli) والتمائم المصنوعة منه ، وكان لون شعور ولحى الألهة ، ولون جسد « امون » و « رع » و « حر آختى » و « ونوت » واحياناً « أوزير »[٤٩] . كذلك كان الازرق هو لون ملابس الحداد للنساء فى رأى جاردنر (Gardiner) [٥٠]حيث ذكر امثلة وردت لهذا الاستخدام بمقبرتى رعمس بطيبة (رقم ٥٥) ومقبرة بتنوت بعنيبه كما اوردت نوبلكور (Nobl e court) مثلا لارتداء الرجال ايضا ملابس زرقاء

للحداد وذلك بمقبرة امون مس بطيبة (رقم ٣٤١)

***

الالوان المصطلح على استخدامها فى تلوين الرسوم الجدارية :

تعتبر الالوان من اعظم الوسائل التى تعين الدارس فى التعرف على الاشياء المنقوشة او المصورة ولكن الى أى مدى يمكن الاعتماد على دقة الفنان المصرى فى استخدام اللون الاصلى للاشياء المثلة على جدران المقابر مثلا ؟ فمن المعروف انه من خصائص الفن المصرى الجنازى التسجيل الدقيق للاشياء الممثلة حتى يتأتى للمتوفى او صاحب المقبرة الاستفادة منها . ولذلك كان من الطبيعى ان نتوقع مضاهاة الالوان المستخدمة للنماذج الاصلية إلا انه هناك بعض الاستثناءات التى اشارت اليها " C.williams "فى دراستها لألوان العلامات لمقبرة بر - نب واكدها سميث (SMITH) مثل مقمعة قتال ملونة بالون الاصفر الذهبى بدلا من اللون الابيض الاصلى لها (وهو لون الحجر الجيرى التى تصنع منه الرأس) وربما كان ذلك للدلالة على انها مصنوعة من او مغطاه بالذهب كذلك اللون الاسود الذى يلون به حيوان ابن أوى القابع ربما كان ذلك نتيجه لمحاكاة تمثال له مصنوع من خشب الابنوس وليس لتقليد اللون الاصلى للحيوان وهو اللون البنى المائل للرمادى [٥٢] . ويشير سميث " Smith "الى نموذج من الدولة الوسطى لاستخدام الوان غير واقعية مثل تصوير لأسد أصفر وله معرفه خضراء كما يوجه النظر الى كبش بمعرفه زرقاء فى مقبره Iy mery بالجيزة [٥٣].

وهناك ايضا ظاهرة استبدال الاسود بالازرق او الازرق بالاخضر حتى

ولو كان ذلك مخالفا للطبيعة وعند دراسة الأسباب التى كانت تدفع الفنان المصرى الى هذا الاستبدال يجب ان نحرص على التفرقة بين اللون المستخدم لتحديد الخطوط الخارجيه للشئ out lines وبين اللون المستخدم فى تلوينه Rendering فقد كان يستخدم اللون الاسود لتحديد الاشياء الزرقاء واللون الاحمر لتحديد الاشياء الصفراء وهكذا ، وغالبا ما كان يستخدم الاسود لبيان تعرجات او تموجات القماش وليس لبيان لونها الفعلى .(٥٤) وقد اثار هذا التبادل (interchange) فى استخدام الاسود أو الازرق والاخضر تساؤل البعض عما اذا كان ذلك يرجع الى سبب عضوى او بصرى يجعله من الصعب على المصرى التفرقه بين اى من هذه الالوان نظرا لتقاربها فى الشدة (intensity) مما يفسره العلماء بنوع من عمى الالوان ودللوا على ذلك بان الفلاح المصرى المعاصر يخلط بين هذه الألوان ، فعند التعبير عن شئ اسود يسميه أزرق زو عن شئ أزرق يقول عنه انه اخضر وربما كان ذلك لفقر لغوى فى معرفه اسماء الالوان المختلفة .(٥٥)

كانت ماده الخشب مثلا يستخدم فى التعبير عنها ثلاثة الوان مختلفة : الأصفر للخشب العادى، والاحمر الخشب الأرز Coniferous - Cedar والاسود لخشب الأبنوس . وفى مجال احلال لون محل آخر يجدر بنا الاشارة الى التبادل interchange فى استخدام الاصفر والاخضر وخاصة فى الاشياء المصنوعة من الالياف مثل السلال وليس فى ذلك شذوذا عن الطبيعة فالقش يكون اخضر فى بادئ الأمر ثم يصفر عند جفافه . كان هناك اسباباً معينة لا بد انها دفعت الفنان المصرى الى استخدام لون دون أخر فى التعبير عما

يسجله ، بعضها فنية وجمالية مثال لك عند ما يريد الفنان ابراز عنصر فى تكوين ما بحيث يميزه عن عنصر مماثل ملاصق له وذلك باعطائه درجة لونية مختلفة مراعيا ذلك توازن وايقاع الألوان . كما كان هناك اسباب عملية مثل توافر بعض خامات الالوان فى البيئه المحليه او سهولة اعدادها ومزجها مما حدى بالفنان الى الاكثار من استعمالها كالازرق . وقد تأثر اسلوب استخدام اللونين الاحمر و الاسود بكثره استعمالهما فى تحديد الخطوط الخارجية للاشكال واستخدامها المستمر فى الكتابة على البردى ولذلك نجد انهما كثيرا ما يستخدما فى تلوين عناصر لا علاقة لهما بلونها الاصلى ، أو تحدد بهما علامات هيروغليفيه دون ان يكون لذلك علاقة بشكلها الفعلى .

وقد طرأ بعض التغيير على هذا الاسلوب اثناء فترة العمارنه وبدأت تلين الخطوط الجامدة التى كانت تحدد مساحات الألوان واخذ يظهر تأثير الظلال واستخدام الدرجات اللونية المتفاوتة ، فالمصرى كان يعتقد ان تداخل الالوان يعد نوعا الفوضى او الإثم ولذلك كان يستخدم دائما الالوان نقية خالصة غير ممزوجة ببعضها .

إلا ان اسلوب العمارنة فى التلوين عادت فظهرت اثاره بعد انقضاء قرن كامل من الزمان وذلك فى مقبرة الملكة نفرتارى بوادى الملكات بغرب طيبه حيث استخدم الفنان الظلال فى تلوين وجه وأذرع ورقبة الملكة ، بينما عزف عن استخدام هذا الاسلوب فى تلوينه لشخوص الألهه مما يدل على رسوخ المعتقدات السابقة على عهد العمارنة بأن اللون يجب ان يكون نقيا متماثلا فى الدرجة حتى يحظى العنصر الملون بالخلود ، وربما وجد أن استخدام الظلال غير جدير بالألهه .(٥٦)

استخدام الالوان فى العمارة :

تعتبر الالوان من اهم العوامل التى تؤثر فى الانطباع العام والتأثير الكلى للمنشأت المعمارية وتدل الأثار الباقية من العمارة المصرية على ان كل هذه المبان كانت مغطاة من الداخل والى درجة كبيرة من الخارج ايضا بالنقوش الملونه . وكثيرا ما تساءل العلماء عن المظهر الاصلى لهذه المبان عندما كانت هذه الالوان لا تزال موجودة ويصعب الأن تخيل التأثير الكلى التى كانت تحدثه هذه الزخارف الملونة نظرا لضياع اغلبها . وقد عكف هوشلر Hölscher على دراسة هذا الموضوع اثناء عمله بمنطقة مدينة هابو وقد خلص الى بعض النتائج كان اهمها ان الحوائط الخارجية للمبان كانت تطلى باللون الابيض كخلفية للنقوش الملونة فى حين كانت الحوائط الداخلية تطلى خلفيتها بالاصفر او الرمادى مما يهدئ من تأثير زهائها . كذلك كان الفنان المصرى يعمد الى ترك بعض المساحات دون ملئها بالنقوش حتى يخفف من تأثير الالوان الصارخة ويوجد مثال جيد على ذلك فى واجهة صرح معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو (٥٧)

كذلك كان يلجأ الى التحكم فى حجم الرسوم على الاسطح الكبيرة حتى لا يفقد الشكل العام تناسقه بكثرة المساحات الملونة ولكنه كان يميل الى زيادة قدر التأثير العام بتركيز الزخارف حول الفتحات وبخاصة فى حالة نافذة الظهور وابواب القصر الملكى الملحق بالمعبد حيث استخدم التذهيب والقاشانى (٥٧)وقد بلغ تأثير النحت الملون قمته فى طريقة معالجة الفنان للأعمدة الاوزيريه بأفنية المعبد وهى تعتبر فى هذه الحالة جزءا لا يتجزء من التكوين المعمارى للفناء (٥٩) ويرجح

هوشلر ان معظم التماثيل الضخمة التى كانت تتقدم واجهات المعبد بطيبة مثل تمثالى ممنون كانت ايضا ملونة وأن ذلك ينطبق أيضاً على تماثيل واجهة معبد ابو سمبل مما يؤكد ان عامل الألوان لا بد من أخذه فى الاعتبار واعادة تقييم الانطباع العام وتأثيره الكلى لهذه الاعمال المعمارية الضخمة بعد اعادة تخيلها فى حالة احتفاظها بالوانها

المضمون الرمزى للالوان المستخدمة فى العمارة الدينية والجنازية : -

كان اختيار ألوان العناصر المعمارية المختلفة يخضع للوظيفة الدينية للعنصر فكانت الاسقف مثلا تطلى من الداخل باللون الأزرق لكى تمثل السماء بينما كانت الارضيات والاجزاء السفلى من الجدران الداخليه تطلى باللون الاسود رمزا لارض مصر السوداء الخصبة . وكان اختيار نوع معين مدن المواد الانشائية يعكس المضمون الرمزى له فالحجر مثلا بصفة عامة اصبح رمزا للابدية والاستمرارية من خلال استخدامه فى بناء المعابد والمقابر واقامه التماثيل بها .[٦٠] كذلك كان الطوب النئ يرمز الى طمى النيل كما أن الحجر الرملى يرمز الى الطبقه الصخرية من الارض وعموما كان الاختيار يقع على الاحجار المتميزة كالجرانيت والكوارتزيت لتشييد الاجزاء البالغة الاهمية كقدس الاقداس مثلما فى حالة مقصورة القارب التى اقامتها الملكة حتشبسوت بالكرنك والمعروفة باسم « المقصورة الحمراء) .

كذلك كانت الابواب الواقعة على المحور الرئيسى للمعبد تقام من الجرانيت بينما الحوائط المحيطة بها من الحجر الرملى ويتضح ذلك فى معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو . ولما كان الجرانيت من اكثر الاحجار صلابة لذلك كثر استخدامه فى العمارة الدينية واقامة التماثيل حيث انه اصبح يكنى عن الخلود ، وان كان احيانا يكتسب استخدامه

مدلولات آخرى مثال ذلك فى حاله التماثيل المزدوجة جيث نجد احدها من الجرانيت والاخر من الحجر الجيرى ففى هذه الحالة يرمز التمثال الجرانيتى الى الليل ويشير التمثال المصنوع من الحجر الجيرى إلى النهار تعبيرا عن دورة الشمس ويبدو ان الكوارتزيت ايضا كان وثيق الصلة بعبادة الأله رع .(٦١)

واحيانا تكون مصادرالانواع المختلفة من الاحجار لها ايضا مدلول رمزى فالجرانيت مثلا يكثر تواجده باسوان وبالتالى فهو يشير الى صعيد مصر بينما يرمز الحجر الرملى الشبيه بالكوارتزيت ، والذى يتم استخراجه من الجبل الاحمر بالقرب من هليوبولس الى الوجه البحرى ويرد هذا الاستخدام الرمزى عند اقامة تمثالين للملك من هاتين المادتين عندئذ يكون احدهما يمثله كحاكم مصر العليا والأخر يمثله بوصفه حاكماً لمصر السفلى (انظر ص ١٣ ، مرجع رقم ٦٠ ، ٦١) ويتدخل المضمون الرمزى للأحجار وألوانها فى اختيار الانواع المختلفه منها لتبليط أرضيات المعابد والمقاصير فتارة نجدها من الجرانيت او الألبستر وتارة اخرى يستخدم الحجر الجيرى او الرملى وفى كل من هذه الحالات - حسب فاريل Varille يمكن اعتبار الحجر المستخدم ركنا او عنصرا من عناصر التكوين الإلهى.(٦٢)

خاتمه :

تبين مما تقدم ان الألوان فى مصر القديمة كانت وسيلة للتعبير عن وجود الكائن او الشئ ولم يقتصر ذلك على استخداماتها فى الفن بفروعه - التصوير والنحت والعمارة - وانما امتد تأثيرها الى الادوات التى كان يستخدمها المصرى فى حياته اليومية . كانت للالوان وظيفة

محددة هى اظهار خصائص الكائنات والأشياء واجزائها . مما دعا المصرى الى ترتيب الألوان فى تسلسل هرمى أو وظيفى » ، نفذه - فى اغلب الاحيان - بدقه صارمة واتبع اسلوبا موضوعيا ، دون التأثر بالصفات الشخصية أو الشاذة للشخص او الشئ المراد تصويره ، او الأخذ فى الاعتبار بعامل تأثير الموضوع على المشاهد . اذن الغرض من استخدام اللون هو تأكيد معنى ما أو تحديد مفهوم معين تم تكوينه منذ اقدم العصور ولذلك لم يطرأ على مجموعة الالوان المصرية المسخدمة تغيرا يذكر وظلت ثابته على مر العهود مثلها فى ذلك مثل العلامات الهيروغليفية. (وإن كان قد طرأ بعض التغيير على اسلوب التلوين فى عهد العمارنة : انظر ص ٩) .

الا انه يمكننا استشفاف بعض الدلالات التاريخية للألوان اذا ما عكفنا على دراسة التطور الذى طرأ على اساليب تحضير بعض خامات التلوين الاولية مثلما حدث فى عهد تحتمس الثالث عندما استبدل خام النحاس المعتاد استخدامه فى تحضير اللون الأزرق ببرادة البرونز(انظر ص ٧) مما يشهد على ما كان عليه ذلك العهد من اذدهار وتقدم فى الاساليب التقنية ، انعكاسا للرخاء الذى صاحب سياسة التوسع وازدياد صلات مصر الخارجية فى ذلك العهد كذلك لوحظ فى نفس العهد استخدام مادة الرهج الاصفر (كبريتيد الزرنيخ) فى ملئ نقوش التوابيت الملكيه ويرجح ان هذا الاسلوب قد تم استحداثة في عهد حتشبسوت (انظر ص ٥) لما تميز به هذا العهد من توسع ملحوظ فى استغلال المناجم والمحاجر لتوفير الاحتياجات اللازمه للنهضه الانشائيه التى قامت بها حتشبسوت ما بين ترميم وتشييد

للمعابد . ويحتمل ايضا ان الرهج الاصفر قد تم استيراده من احدى البلاد - كبلاد بونت مثلا - والتى كانت تربطها بمصر صلات تجاريه ممتازة فى ذلك الحين .

إن موضوع الألوان فى مصر القديمة ما زال يقتضى الكثير من الدراسات مما يستلزم تعاونا بين الكيمائى والأثرى ، وبين المؤرخ واللغوى حيث تتبع اهميته من تداخله فى كل جوانب الديانة والحياة اليومية ، محققا فى الوقت ذاته من خلال الرمزية الدينية ، المتعة البصرية لفن رفيع قام على اساس المهارة التقنية وكفاءة الفنان المصرى .

قائمة الملاحظات المرجعية

(1) S. Morenz:" The Role of Colour in Ancient Egypt, "Palette",Basel, Herbst, 1962, p.3
(2) G.Lefebvre:"Rouge et nuances voisines", JEA 35, 1949, p 72 ff.
(3) J.G.Griffiths: "The symbolism of red in Ancient Egyptian Religion", Ex Orbe Religionum , 1, 1972, p. 88.
(4) S. Morenz, op. cit, p.4
(5) W. Schenkel : " De Farbe in agyptische Kunst and sprache " Zäs 88, 1963 , s.131 ff.
(6) Wb V, 601. 5 10.
(7) Wb III, 334 .1-13.
(8) Wb III, 488. 3-6.
(9) J. R. Harris, Lexicographial Studies In Ancient Egyptian Minerals. Berlin. 1962, p. 142.
(10) Wb V, 536. 8-17 J. R. Harris, op. cit. p.159-60 .
(11) E. Brunner- Traut, LÄ I I, 123 .
(12) H.Grapow,Die Bildlichen Ausdrüke des Aegyptischen,vom deakten und dichten einer alteorientischer sprache, leipzig. 1924 , p. 58.
(13) A. Gardiner, Egyptian Grammer, Oxford 1973. p. 629.
(14) C.Traunecker, LÄ II , 599.
(15) S. A. Saleh:"Treatment and restoration of mural painting",year-long course for third year students, department of conservation, Cairo University, 1981-87
(16) J. R. Harris, op. cit., p. 150. cf. Wb III, 481. 10-13.
(17) H. Kees: " Farbensymbolik in Agyptischen Religiosen Texten", NAWG II, 1943, p.437.
(18) H.Kees, Ibid. p. 442.
(19) E Brunner-Traut, loc. cit.
(20) Chr. Des Roches-Noblecourt:"Une Coutume Egyptienne Meconnue" BIFAO 45,1947, pp. 213 5 .
(21) A.Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries London, 1962, pp. 162.
(22) C.Traunecker , LA II,116- 7
(23) Wb V, 369 70, 386
(24) Wb V, 386. 11-2.
(25) Wb II , 89. 12-13.

المصريون والدعـوة الشـيعية

منـذ قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجـرى

د. حـورية عبده سـلام
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

الدارس لتاريخ مصر الاسلامية يجد ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أنه رغم الجهود التى بذلها دعاة الشيعة[1] فى مصر ، فانهم لم يفلحوا فى تحويل غالبية المسلمين المصريين الى المذهب الشـيعى ، ذلك أن المسلمين فى مصر تمسكوا بمذهب أهل السنة وأعرضوا عن المذاهب التى تنطوى على الجدل والفلسفة .

والمتتبع لتاريخ المذهب الشيعى يجد أنه بدأ حزبا سياسيا مؤمنا بموقف على بن أبى طالب وحقه فى الخلافة ، بعيدا عن الافكار المذهبية المتطرفة ، ثم ظهرت بعد ذلك فرقه المختلفة[2] .

---

(١) الشيعة هم اتباع على بن ابى طالب ويذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست أن لفظ الشيعة ظهر لأول مرة عندما حارب طلحة والزبير وعائشة عليا بن ابى طالب مطالبين بالثار من قتلة عثمان بن عفان فسمى أتباعه بالشيعة بينما يذكر النوبختى انهم ظهروا منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وروا أن تكون الامامة لعلى بن ابى طالب .

ابن النديم : الفهرست ص ١٧ ــ ١٨ .

النوبختى : ابو محمد الحسن بن موسى : فرق الشيعة جـ ١ ص ١٧٤ ــ ١٧٥ (النجف ١٩٥٩ م) .

(٢) ظهرت عدة فرق للشيعة منها السبأية وهم اتباع عبد الله بن سبأ وكان يهوديا من اهل الحيرة اظهر الاسلام وقد نشر بين الناس أن لكل نبى وصيى وأن عليا وصى محمد صلى الله عليه وسلم وفرقة الغرابية وهم كالسبأية فرقة متطرفة خرجت عن الاسلام لقولها بأن الرسالة كانت لعلى وسموا بذلك الاسم لقولهم أن عليا يشبه النبى كما يشبه الغراب الغراب ، والشيعة الكيسانية الذين ينتسبون الى كيسان مولى على بن ابى =

وكان نتيجة لما أصاب العلويين من اضطهاد على يد العباسيين أن لجأوا الى نشر دعوتهم سرا . وشـــهدت مصر قدوم دعاة الشـــيعة واستتارهم بها حين قدم القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن ابن على بن أبى طالب واتخذ من مصر مركزا لنشر الدعوة الشـــيعية طيلة عشر سنوات ، ولم يكن تقبل مصر لاستضافة دعاة الشيعة الا بدافع العاطفة الجياشة من الحب والتقدير لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان لمـــا أصاب « آل البيت » من نسل على بن أبى طالب منذ عهد الدولة الأموية أثره فى مناصرة عدد كبير من المصريين لهم مناصرة حب لا تشيع مذهب .

ويشير الكندى الى أنه « فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى ظهرت دعوة بنى الحسن بن على فى مصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وهو أول علوى قدم مصـــر »(٣) .

غدت مصر منذ ذلك الوقت ملاذا لأفراد البيت العلوى خاصة بعد

= طالب وهم أتباع المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى حارب قتلة الحســـين الى أن قتله مصعب بن الزبير ، ومبادىء الكيسانية تقوم على فكرة قداسة الامام وعصمته ويؤمنون برجعة الامام وتناسخ الارواح . وكانت الزيدية اكثر فرق الشيعة اعتدالا وهم أتباع زيد بن على زين العابدين .

البغدادى : أبو منصور عبد القادر : الفرق بين الفرق ص ٣٠ (ط القاهرة ١٩١٠ م) .

المسعودى : على بن الحسن بن على : مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٩ (ط القاهرة ١٩٣٥ م) .

(٣) يذكر الكندى أن خالد بن سعيد بن ربيعة كان هو القائم بأمر الدعوة له فى مصر وكان جده من خاصة على بن أبى طالب .

الولاة والقضاة ص ١١٢ .

واقعة « فــخ » التى قتل فيها الحسين[٤] بن على بن الحسن عام ١٦٩ / ١٧٠ هـ — ٧٨٥ / ٨٧٦ م فقد فر أنصار الحسين ومن بينهم يحيى وادريس ولدا عبد الله بن الحسن فاتجه يحيى نحــو بلاد الديلم [٥] بينما لجأ ادريس الى مصر ومنها الى المغرب حيث تستر عليه أنصار العلويين بها .

وكان نجاح ادريس بن عبد الله فى اقامة دولة الادارسة فى المغرب الأقصى أول نجاح حقيقى للعلويين ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا ممهدة للدعوة الاسماعيلية فيما بعد . فقد وجد العلويون فى دولة الأدارسة معقلا يلوذون به من تتبع العباسيين مؤمنين بأن صاحب الحق الشرعى فى تولى أمور المسلمين هم آل بيت رسول الله (ص) رافعين شعار عدم شرعية الحكومة العباسية[٦] .

وكان ادريس مؤسس هذه الدولة قد فر الى مصر هاربا وخرج منها مستترا بمساعدة عامل البريد واضح بن عبد الله الوالى العباسى

---

(٤) كان خروج محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الذكية فى الحجاز على أبى جعفر المنصور عام ١٤٥ هـ مطالبا بحقه فى الخلافة فاستولى على المدينة المنورة ومكة المكرمة وبعث أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر الدعوة لمحمد بن عبد الله بن الحسن فى العراق وقام الخليفة العباسى المنصور باعداد جيش تمكن من هزيمته وقتله فى رمضان عام ١٤٠ هـ ولم تفت الهزائم المتتالية فى عضد العلويين فسرعان ما خرجوا فى خلافة الهادى بن المهدى فى مكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسين عام ١٦٩ هـ وبويع الحسين بالخلافة فى المدينة المنورة والتقى فى مكة بالجيش العباسى فى موقعة « فخ » التى هزم فيها .

الطبرى : محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٩ ص ٢١٢ (ط بيروت ١٩٦٦) .

النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٤ — ٤٥ .

(٥) الديلم من الشعوب التى سكنت فى الجنوب الشرقى لبحر قزوين .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ص ٣٥٨ (ط القاهرة ١٣٥٠ هـ) .

(٦) ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٣٣٤ (ط بيروت ١٩٧٣ م) .

على مصر الذى كان يميل الى العلويين ومكن ادريس من الخروج الى مصر الى المغرب حيث استقر فى مدينة « وليلى »[٧] قرب طنجة ونشر دعوته بين المغاربة .

لم تقم مصر بأى جهود ضد دولة الادارسة العلوية فى المغرب الأقصى وذلك بسبب موقف المصريين فى ذلك الوقت وموالاتهم للدعوة العلوية نفسها . الا أن الخلفاء العباسيين حرصوا على كسر شـوكة العلويين فى مصر فقد أمر الخليفة المتوكل واليه على مصر اسـحق ابن يحيى باخراج[٨] العلويين من مصر وترحيلهم الى العراق ومنها وجههم الى المدينة عام ٢٣٦ هـ/٨٥٠ م ، مما دفع بالعلويين الذين بقوا فى مصر الى التستر والخفاء[٩].

وشدد الخلفاء العباسيون بعد المتـوكل فى التصدى للحـركات العـلوية التى تتابعت فى مصـر . واستمرت عملية تشتيت العـلويين واخراجهم من مصر فى عهد الخليفة المستعين ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م مما أدى الى اشتعال ثورات العلويين بمصر ، فخرج ابن الأرقط العلوى عام ٢٥٢ هـ/٨٦٦ م وانضم الى الثورة التى قامت فى

---

(٧) يشير أبو المحاسن الى أن واضح بن عبد الله المنصورى الذى كان واليا عى مصر زمن المهدى سنة ١٦٢ هـ كان معروفا بميوله العلوية . كما يذكر الكندى قدوم ادريس بن عبد الله الى مصر وتستر واليها عليه .
أبو المحاسن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٠ (ط القاهرة ١٩٢٩ م) .
الكندى : الولاة والقضاة ص ١٣١ ـ ١٣٤ .

(٨) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٩٤١ (ط القاهرة ١٩٠٦ م) .

(٩) ورد كتاب المتوكل والمنتصر الى اسحاق « باخراج الطالبيين من مصر الى العراق وفرض فيهم الاموال وأعطى كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا وفرقت بينهم الثياب ثم خرجوا من الفسطاط يوم الاثنين لعشر خلون من رجب سنة ستة وثلاثين ومائتين فقدموا العـراق وأمروا بالخروج الى المدينة » . الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧١٢ .

الاسكندرية بقيادة جابر بن الوليد المدلجى[١٠] ، غير أن العباسيين تمكنوا من الحاق الهزيمة به واخراجه من مصر عام ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م .

كما خرج بالصعيد الثائر العلوى أحمد بن ابراهيم بن طباطبا الذى يعرف باسم « بغا الأكبر » عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م الا أن ثورته قمعت كغيرها من الثورات العلوية[١١] .

ولا شك أن وجود أنصار العلويين هؤلاء يفسر ترحيب دعاة الشيعة فى مصر بقدوم عبيد الله المهدى وبدعاته الاسماعيلية خاصة « أكرم » « وأبا على » . ويذكر اليمانى فى كتابه سيرة جعفر الحاجب أن عبيد الله المهدى كان على صلة بداعيته فى مصر « أبا على » الذى رأى « ألا ينزله عنده ولا عند من يشار اليه بشىء من أمرنا وأن ينزله عند من يثق به »[١٢] .

فرغم الجهود التى بذلها الخليفة العباسى المكتفى فى تعقب عبيد الله المهدى الا أن أنصاره نجحوا فى التستر عليه ، ولم يكن والى مصر محمد بن سليمان الكاتب جادا فى القبض عليه بل اكتفى باعتقال بعض غلمانه[١٣] ولعل هذا يفسر عزل الخليفة له وتولية مصر لعيسى النوشرى عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م .

كان العلويون فى مصر قد نبهوا أبا عبيد الله المهدى الى خطر

---

(١٠) يشير الكندى الى خروج « جابر بن الوليد المدلجى » بأرض الاسكندرية سنة ٢٥٢ هـ و« لحق به عبد الله بن أحمد بن اسماعيل الذى يقال له « الأرقط » ودافع سلتق التركى بأصحاب جابر فقتلهم ثم استأمن عبد الله بن الأرقط العلوى .. وبعث به مزاحم الى العراق .. فهرب عبد الله بن الأرقط ثم ظفر به بعد ذلك فحبس » . الولاة والقضاة ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(١١) الكندى ى: الولاة والقضاة ص ٢١٠ .

(١٢) اليمانى : محمد بن محمد اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١ (ط كلية الاداب الجامعة المصرية ١٩٣٦ م) .

(١٣) ابن الاثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم ، الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٣ (ط مصر ١٣٥٧ هـ) .

العباسيين وسهلوا له التستر حتى خرج من مصر فى ولاية عيسى النوشرى الى بلاد المغرب التى كانت فى ذلك الوقت أرضا ممهـدة لنجاح الدعوة الاسماعيلية •

وقبل أن نتتبع الدعوة الاسماعيلية فى مصر نوضح نشأة الدعوة الاسماعيلية التى ظهرت فى أول أمرها فرقة من فرق الشيعة المعتدلة ثم انفصلت عنها متبعة أسلوب التقية والتخفى حتى نجحوا فى اقامة دول لهم كانت أولها دولتهم التى أسسوها فى اليمن عام ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م على يد الحسن بن حوشب ثم دولتهم فى المغرب التى أسسها عبيد الله المهدى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م والتى امتدت الى صـقلية وجنوب ايطاليا ثم دولتهم فى مصر التى أسسها جوهر الصقلى فى خلافة المعز عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ثم دولة الموت النزارية فى بلاد فارس التى أسسها الحسن بن الصباح عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م فضلا عن حصونهم وقلاعهم المستقلة فى بلاد الشام •

ويمكننا أن نميز دورين مرت بهما الدعوة الاسماعيلية ، الدور الأول الذى بدأ منذ القرن الثانى الهجرى حينما كانت الدعوة ترتكز على امامة اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد وهو الدور الذى يطلق عليه مؤرخو الاسماعيلية اسم « دور الستر » ويبدأ بامامة محمد بن اسماعيل عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وينتهى بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٧ م وهى فترة استغرقت مائة وسبعة وعشرين عاما يكتنفها الغموض من حيث عدد الأئمة وأسمائهم[١٤] •

والدور الثـانى للدعوة فى بلاد اليـمن بزعامة منصور اليمن واستمرارها فى افريقية بزعامة أبى عبد الله الشيعى حتى بلوغهـا الذروة بتأسيس الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب •

---

(١٤) النوبختى : فرق الشيعة ص ٨٩ — ٩٠ .
القاضى النعمان بن محمد : رسالة افتتاح الدعوة ص ١٨ — ١٩ (بيروت ١٩٧٠ م) •
عبد القادر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٣ .

والدعوة الاسماعيلية هى دعوة شيعية تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق وهم يتفقون مع الشيعة الاثنا عشرية[١٥] فى تتابع الأئمة حتى جعفر الصادق ويختلفون عنهم فى أنهم يرون الامامة حقا لابنه اسماعيل مع كونه مات قبل والده ، الا أنهم أعملوا النص الخاص بامامته كما قرره أبوه جعفر الصادق ، وكان اعمال هذا النص يعنى أن تبقى الامامة فى عقبه عملا بمبدأ أن اعمال النص الذى يقوله الامام أولى من اهماله ، ذلك أن الاسماعيلية يعتبرون تنفيذ أوامر الامام أمرا واجبـــا .

ويشير مؤرخو الدعوة الاسماعيلية الى أن جعفر الصادق[١٦] هو الامام السادس عند الشيعة الامامية الذى استطاع أن يقنع بقـــايا

(١٥) يعتقد الشيعة الاثنا عشرية أو الامامية بامامة اثنى عشر اماما متتابعين هم على بن أبى طالب ثم أبنيه الحسن فالحسين ثم على زين العابدين ابن الحسين ثم محمد بن على ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم على ابن موسى ثم محمد بن على ثم على بن محمد ثم الحسن بن على ثم محمد بن الحسن الملقب بمحمد المهدى القائم بالحجة . وتسمى هذه الفرقة احيانا الجعفرية نسبة الى الامام جعفر الصادق ، والاثنا عشرية او الجعفرية يقطعون بموت موسى الكاظم وظلوا يؤمنون بامامة سلالة موسى حتى الامام محمد القائم وهو الثانى عشر من حيث الترتيب . وهم يرون ان امامة أبى بكر وعمر باطلة ويعتقدون بالتقية أو المداراة ورجعة الامام ، والاثنا عشرية تقول برجعة الامام محمد القائم وهو المعروف عندهم بالمهدى المنتظر .
الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم : الملك والنحل جـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ (ط القاهرة ١٩٥٦ م) .

(١٦) يذكر الداعى ادريس أن الامام جعفر الصادق حين شعر بالخطر على ابنه اسماعيل من تعقب العباسيين له أمره ان يستتر عام ١٤٥ هـ فتوجه الى سلمية ومنها الى دمشق وظل ينتقل سرا بين أتباعه حتى توفى عام ١٥٨ هـ بالبصرة تسلم بعدها ابنه محمد شئون الامامة ، وانتشرت الدعوة فى عهده وانتقل من المدينة الى نيسابور بعد أن شعر بتعقب الرشيد له ، وكانت امامته بداية دور جديد فى تاريخ الدعوة . كما يذكر أيضا « واذا عددت الائمة فى دوره كان محمد بن اسماعيل سابعهم ، وللسابع قوة على من تقدمه فلذلك صار ناطقا وخاتما للاســـبوع وقائما وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ببيان معانيها واظهار باطنها » .
ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٣٤ .

العلويين من نسل الحسن بتأييده باعتباره الوارث الشرعى للخلافة من على بن أبى طالب وفاطمة وترى الشيعة الامامية أن الامامة تكون فى سلالة على عن أبيه الحسن ولا تكون فى الأعقاب • وبموت جعفر الصادق عـام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م انقسـمت الاماميـة الى فرقتين الموسوية(١٧) الذين نادوا بامامة موسى الكاظم والاسماعيلية الذين نادوا بأن الامام هو اسماعيل بن جعفر الصادق •

والاسماعيلية لم تظهر كفرقة تلعب دورا سياسيا الا بعد موت اسماعيل بأكثر من قرن من الزمان ، ويطلق مؤرخو الاسماعيلية دور الستر على المرحلة التى تبدأ بامامة محمد بن اسمعايل عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م حتى ظهور عبيد الله المهدى بالمغرب عام ٢٧٩ هـ / ٨٩٧ م وهى فترة استغرقت مائة وسبعة وعشرون عاما يكتنفها الغموض(١٨) من حيث عدد الأئمة وأسمائهم حتى ظهور دعوتهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى الدور المعروف بدور الظهور •

ويربط بعض الباحثين بين ظهـور الاسماعيلية وظهور حـركة

---

(١٧) القاضى نعمان بن محمد : رسالة افتتاح الدعوة ص ١٨—١٩ (ط بيروت ١٩٧٠ م) .

(١٨) يشير برنارد لويس فى كتابه أصول الاسماعيلية الى أن اولئك الذين قالوا بامامة اسماعيل بعد وفاة أبيه قد انقسموا الى فرقتين فرقة أنكرت موت اسماعيل فى حياة أبيه وقالوا بغيبته وزعموا أن اسماعيل هو القائم وأنه لم يمت وسيرجع وفرقة زعمت أن الامام بعد جعفر بن محمد هو محمد بن اسماعيل وقالوا بأن الامامة كانت لاسماعيل فى حياة أبيه ، فلما توفى قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن اسماعيل وتسمى هذه الفرقة بالمباركية نسبة الى رئيسهم مبارك وقد دخل فيهم اتباع أبى الخطاب ثم افترقوا عدة فرق منها فرقة القرامطة الذين سموا باسم رئيسهم « قرمطوية » وزعموا بأن روح جعفر حلت فى ابن الخطاب ثم انتقلت الى محمد بن اسماعيل وزعموا انه حى لم يمت . وهو يعتمد فى هذا على رواية النوبختى .

برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ص ٩٨ (ط دار الكتاب العربى بغداد ١٩٤٧) .

القرامطة[١٩] ، ويرون أن ظهور القرامطة فى البحرين والشام كان ايذانا بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة .

كان امام الاسماعيلية فى أول عهدهم بدور الظهور عبيد الله[٢٠] المهدى وكان يقيم بسلمية فى سوريا مستترا ثم هرب الى شمال افريقية حيث وجد أرضا خصبا فى بلاد المغرب نتيجة للاضطرابات التى اندلعت بها فى أواخر عصر الولاة ، وكان بها أنصاره الذين كسبهم له دعاة ابن حوشب ، واستمر الدعاة فى نشر الدعوة واتخذ أبو عبد الله الشيعى من منطقة ايكجان الواقعة فى منتصف الطريق بين طنجة وفاس دار هجرة له عام ٢٨٠ هـ / ٩٠٠ م معتمدا على تأييد قبائل كتامة[٢١]

---

(١٩) شغل القرامطة العالم الاسلامى فترة طويلة هزموا جيوش العباسيين ودخلوا مكة أثناء موسم الحج وقتلوا الحجاج ونزعوا الحجر الاسود من الكعبة . وهم يزعمون أن الرسالة قد انقطعت عن النبى فى حياته بعد حديثه فى غدير خم فآلت الى على بن أبى طالب وهم بذلك يعدون خارجين عن الاسلام الصحيح وهم ينتسبون الى حمدان قرمط أحد أتباع عبد الله بن ميمون القداح الداعى الاسماعيلى .

حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠١ — ٤٠٢ (ط دار المعارف ١٩٦٠ م) .

(٢٠) القاضى النعمان بن محمد : رسالة افتاح الدعوة ص ١٩ .

النوبختى : فرق الشيعة ص ٩٠ .

(٢١) يؤرخ القاضى النعمان دخول أبو عبد الله الشيعى أرض كتامة سنة ٢٨٠ هـ بينما يذكر ابن خلدون والمقريزى أنه دخلها سنة ٢٨٨ هـ ويؤيد ابن عذارى قول القاضى النعمان ذلك أن الدعوة الاسماعيلية قد استتبت لأن أبا عبد الله مكث سبع سنين على الأقل بين الكتاميين قبل اظهار الدعوة للمهدى . وأبو عبد الله الشيعى كان قد التقى ببعض افراد قبيلة كتامة أثناء الحج ودعوه الى بلادهم واكرموا وفادته .

القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ص ٢١ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٣٢ (ط القاهرة ١٩٥٧ م) .

المقريزى : تقى الدين احمد بن على : اتعاظ الحنفا ص ٥٦ (ط القاهرة ١٩٤٨ م) .

ابن عذارى : محمد بن عذارى المراكشى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٢٥ (ط بيروت ١٩٥٠ م) .

واستمر يدعو سرا طيلة سبع سنين ثم أعلن الدعوة الاسماعيلية وأقنع الناس بطاعة الامام المعصوم من آل البيت عبيد الله المهدى .

انتشرت الدعوة بين وزراء وعمال أمير افريقية زيادة الله الثالث الأعلى وكان بعضهم على صلة وثيقة بأبى عبد الله الشيعى حيث كانوا يتلقون منه الأوامر حتى تمكن عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م من الاطاحة بنفوذ الأغالبة واقامة دولة الفاطميين الاسماعيلية فى افريقية والمغرب جميعا .

الا أن معارضة أهل افريقية للدعوة الاسماعيلية كانت سببا من أهم الاسباب التى أدت الى أن يتجه الفاطميون بثقلهم نحـو مصر لتكون مركزا لنشر دعوتهم واقامة خلافتهم ، فقد جهر شيوخ المالكية بالقيروان بانكار المذهب الاسماعيلى الذى لقى معارضة شديدة من المغاربة السنيين[٢٢] . واتجه دعاة الفاطميين الاسماعيلية بنشاطهم نحو مصر فقد كانت مصر محط أنظار الفاطميين لأهميـة موقعها عسـكريا وسياسيا فقد كان لمصر الولاية على الشام والحجاز والاستيلاء على مصر يفتح لهم طريق الشرق الى حاضرة الخلافة العباسية فى بغداد . وكانت مصر قد عرفت قدوم هؤلاء الدعاة من قبل ، حين كان دعاة الاسماعيلية يستترون بها منذ عصر الخليفة المأمون حين قدم اليها الداعى الاسماعيلى[٢٣] القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسـن ابن على بن أبى طالب .

---

(٢٢) يذكر ابن عذارى أن الدعاة احضروا الناس بالقوة يدعونهم الى الدخول فى مذهبهم « فلم يدخل مذهبهم الا بعض الناس وهم قليل وقتـل كثير ممن لا يقرهم على قولهم » . وتصـدى فقهاء القيروان للـرد على الاسماعيلية .

البيان المغرب جـ ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

كما يذكر القاضى عياض أن فقهاء المالكية كانوا يعتبرون جهاد هؤلاء — يقصد الاسماعيلية — أفضل من جهاد أهل الشرك . كما يشير الى موقف أبى عثمان الحداد كبير فقهاء المالكية فى القيروان بقوله « ونازلهم وناظرهم مناظرة الند للند » .

القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩٠ — ٥٩١ .

(٢٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ .

كذلك قدم الى مصر عدد من دعاة الاسماعيلية منذ أن تولى أبو القاسم رستم بن حوشب الكوفى مهمة نشر الدعوة فى بلاد اليمن[٢٤] عام ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م ٠

نشط دعاة الاسماعيلية لنشر الدعوة بين أهل مصر وقد أحرزوا فى ذلك بعض النجاح ، ولعل ارتفاع مكانة العلويين فى أواخر عصر الاخشيديين يعد أحد المؤشرات على ذلك ، اذ كان المصريون يقدرون العلويين ويخاطبون الواحد منهم بالشريف[٢٥] ٠ كما كانت وساطة العلويين تجد قبولا لدى الأمراء الاخشيديين ، كما كانت لهم نقابة خاصة بهم تولى رئاستها زمن كافور الاخشيد الشاعر العلوى أبو القاسم أحمد بن اسماعيل بن طباطبا ٠

ولعل عاطفة الولاء لآل البيت عامة التى تجيش بها صدور أهل مصر هى التى جعلتهم يتقبلون فى بادىء الامر هذه الدعوة التى كانت تعقد لها المجالس برئاسة الداعية « أبو القاسم بن المهدى » ويلقى الخطب التى أحجم بعض المؤرخين اسنيين عن ذكرها بقوله « لولا كفر فيها لاجتليت بعضها »[٢٦] ٠

وقد أورد الداعى ادريس خطبه لأبى القاسم بن المهدى ألقاها فى الاسكندرية عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م أتهم فيها أهل مصر بأنهم « لم يحفظوا أمر الدين فى الايمان بامامة آل البيت والقيام بحقوقها »[٢٧] ٠ مما يوضح أن الدعوة الاسماعيلية لم تكن حتى ذلك الوقت قد انتشرت بين أهل مصر الذين كانوا يعتبرون مقاومة الفاطميين جهادا فى سبيل الله ورموا الخليفة الفاطمى القائم بن المهدى بأنه « خارجى مبتدع »[٢٨] ٠

---

(٢٤) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣ ٠
(٢٥) ابن الزيات : شمس الدين أبو عبد الله : الكواكب السيارة ص ٥٩ ، ٦٤ (ط مصر ١٩٠٧ م) ٠
(٢٦) عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢ ٠
(٢٧) ادريس عماد الدين : عيون الاخبار جـ ٥ ص ١٣ ٠
(٢٨) نفس المصدر والصفحة ٠

ولعل هذا يفسر أسباب فشل الحملة الفاطمية الأولى على مصر ووقوف أهل مصر ضد الحملة الثانية التى وصلت الى الاسـكندرية فى الثامن من صفر عام ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م .

نبهت تلك الحملة الفاطميين الى ضرورة العمل على اذكاء الدعوة الاسماعيلية فى مصر واظهارها حتى يتمكنوا من تحقيق ما يرمون اليه من بسط نفوذهم السياسى الأمر الذى لن يتحقق الا بتوطيد الدعوة الى مذهبهم بصورة أكثر فاعلية فكان ذلك التطور الجديد فى تاريخ الدعوة الاسماعيلية .

جهر دعاة الاسماعيلية بالدعوة علنا فكان الداعية الاسماعيلى أبو جعفر أحمد بن نصر « يجالس الاخشيد نفسه »[٢٩] وازداد نشاط الاسماعيلية بعد وفاة الاخشيد فاتخذوا « دارا لصاحب المغرب تؤخذ فيها له البيعة »[٣٠] .

نجح دعاة الاسماعيلية فى هذه المرحلة فى أخذ البيعة من عدد كبير من أهل مصر خاصة من رجال الدولة وعلية القوم الذين كانت لهم أطماع سياسية بعد أن شعروا بقوة الفاطميين العسـكرية من ناحية ، وباضطراب الأوضاع السياسية فى مصر من ناحية أخرى . هذا فضلا عن الأزمات الاقتصادية[٣١] المتتالية التى منيت بها مصر منذ عام ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م الى عام ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م والتى أوردها المقريزى فى كتابه « اغاثة الامة » . بينما أصاب الخلافة العباسية فى الشرق الضعف منذ سيطر البويهيون على الحكم بعد أن عانت من قبـل

---

(٢٩) ابن سعيد : على بن موسى بن محمد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٧٥ (ط جامعة القاهرة ١٩٥٣ م) .

(٣٠) نفس المصدر والصفحة .

(٣١) عانت مصر انخفاض النيل عام ٣٥١ هـ وانتشر القحط والوباء واشتد الغلاء فى الوقت الذى عجز فيه كافور عن صد خطر القرامطة الذين اغاروا على الشام عام ٣٥٩ هـ ونهبوا الحجاج المصريين وهم فى طريقهم الى مكة المكرمة ثم غارات أهـل النوبة على جنـوب مصر . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧ — ٢٨ .

تسلط الأتراك عليها . فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة الفاطمية فى المغرب قد أحكمت سيطرتها على المغرب كله بعد القضاء على مقاومة المغرب الأقصى .

وكان نتيجة لاضطراب أوضاع مصر السياسية والاقتصادية عقب وفاة كافور أن قام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بالقبض على عدد كبير من رجال الدولة ومصادرة أموالهم ومن بينهم يعقوب بن كلس الذى تمكن من الهرب الى المغرب . ومع اشتداد الازمة الاقتصادية واضطراب الاوضاع فى البلاد كاتب عدد كبير من رجال لدولة الخليفة المعز معلنين رغبتهم فى الدخول فى طاعته مستحثين اياه على القدوم الى مصر[٣٢] . وما من شك فى أن المكاتبات التى بعث بها الشيعة فى مصر الى الخليفة المعز منذ أيام كافور سهلت على الفاطميين فتح مصر[٣٣] .

قدم جيش المعز لدين الله الفاطمى الى مصر فى الرابع عشر من شهر ربيع الاول عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م وخرج الخليفة بنفسه لوداع القائد جوهر وقال للدعاة الذين سيرهم مع الجيش « لو خرج جوهر[٣٤] هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالاردية من غير حرب » .

وبعد وصول جيش الفاطميين الى الاسكندرية أرسل الوزير جعفر ابن الفرات وفدا لمقابلة جوهر القائد للاتفاق على شروط التسليم وطلب الأمان برئاسة الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى والقاضى أبو طاهر الذهلى ، فالتقى الوفد بجوهر وانتهت المفاوضات بكتاب الامان الذى استجاب فيه جوهر لمطالب أهل مصر . وكان للشريف الحسينى

---

(٣٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ .
(٣٣) يذكر ابو المحاسن أن الشيعة كانوا يكاتبون المعز بقولهم : « اذا زال الحجر الاسود — يقصدون كافورا — فقد ملك المعز الدنيا كلها » . النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٤٣ .
(٣٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٠١ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ .

فضل كبير فى استجابة جوهر لمطالب المصريين باعتباره من الاشراف العلويين • وكان أهم ما جاء فى ذلك الأمان أن يظل المصريون على مذهبهم ، وألا يجبروا على اعتناق المذهب الاسماعيلى وأن يكون الأذان وصيام شهر رمضان وفطـره كما ورد عن سنة الرســول صلى الله عليه وسلم(٣٥) • مما يؤكد على تغلغل مذهب أهل السنة فى نفوس غالبية المصريين •

لم يجد هذا الصلح قبولا من عامة أهل مصر وجندها فقامت فرقة من الجيش بقيادة « نحرير شويزان » بالاعتراض على هــذا الأمان وأعلنت الحرب على جوهر • غير أن الفاطميين سرعان ما تمكنوا من هزمية جند هذه الحركة حين قدم جوهر بجيشه الى الجيــزة وعند مدينة « شلقان » الواقعة شرقى القناطر الخيرية أوقع جوهر الهزيمة بالجند المصريين • ولم يجد أهل مصر بدا من طلب الأمــان ولجأ المصريون الى الشريف أبى جعفر الحسينى الذى كتب الى جوهر باعادة الأمان • فأعاد جوهر الأمان وهدأت الثورة فى الفسطاط(٣٦) •

---

(٣٥) أورد المقريزى عهد الأمان وقد جاء فيه « ... انكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ... وأنكم ذكرتم وجوها التمسم ذكرها فى كتاب أمانكم ، نذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم فلم يكن فى ذكرها ولا فى نشرها فائدة اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعته متبعة وهى اقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفرائض والعلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على أوامر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم فى سنته » .

اتعاظ الحنفا ص ٦٨ — ٧٠ •

(٣٦) جاء فى نص الأمان الثانى « وصل كتاب الشريف الجليــل ... فوقفت على ما سأل من اعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت الى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن اذنى واذن مولانا أمير المؤمنين » . المقريزى ؛ اتعاظ الحنفا ص ٧٢ •

كان تأسيس مدينة جديدة فى مصر تكون حاضرة للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر الدعــوة الاسماعيلية بها أول خطــوة للفاطميين بعد استقرارهم فى مصر لتحقيق سياستهم[٣٧] فى نشر الدعوة .

ثم شرع جوهر فى تأسيس الجامع الازهر[٣٨] فى الرابع من شهر رمضان عام ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م حتى لا يفاجىء الســنيين فى مساجدهم بشعائر الاسماعيلية خشية اثارة حفيظة المصريين عليه[٣٩] .

منع جوهر أهل مصر من لبس السواد شعار العباسيين ، وأزاد فى الخطبة عبارة « اللهم صلى على على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا[٤٠] » . كما أمر أن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار الشيعة . ونودى على الصلاة فى جامع ابن طولون بالأذان الشيعى « حيى على خير العمل » حين شهد جوهر أول صلاة له فيه فى الثامن من جمادى الاولى عام ٣٥٩ هـ ، وعم هذا النــداء

---

(٣٧) شرع جوهر فى بناء مدينة جديدة شمال الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م اطلق عليها اسم المنصورية نسبة الى الخليفة المنصور بن القائم ثم سماها القاهرة ويذكر المقريزى ان اسم القاهرة ماخوذ عن قول المعز لجوهر وهو يودع جيشه « لينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » . اتعاظ الحنفا ص ١٦٢ .

(٣٨) كان الجامع يطلق عليه فى أول الامر اسم جامع القاهرة اما تسميته بالازهر فان ذلك كان فى عصر العزيز بالله بعد انشاء القصور الفاطمية التى كانت تسمى القصور الزاهرة نسبة الى فاطمة الزهراء .

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٢ .

محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطميــة فى مصر ص ٧٠ (ط دار الفكر العربى ١٩٧٧) .

(٣٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٦٩ .

(٤٠) أمر المعز فى رمضان عام ٣٦٢ هـ ان يكتب على سائر الاماكن فى مصر « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن ابى طالب » . المقريزى : اتعا ظالحنفا ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، الخطط جـ ٤ ص ١٥٦ .

الشيعى فى المسجد الجامع بالعسكر ثم فى جامع عمرو بن العاص(٤١) .

ثم كانت الخطوة الثانية لتدعيم المذهب الاسماعيلى هى احلال الشيعة محل أهل السنة فى تولى الوظائف فى البلاد . وقد بدأ جوهر الذى أسند اليه المعز ولاية مصر بعد الفتح باقرار الوزير جعفر بن الفرات فى منصبه(٤٢) .

وتركز اهتمام الفاطميين على تحويل أهل مصر السنيين الى المذهب الاسماعيلى ، وكان اسناد منصب القضاء الى قضاة من الشيعة خطوة أثارت المصريين الأمر الذى دفعهم الى الضجر بالشكوى الى الخليفة المعز ، كما تمثل هذا الاستياء فيما قام به المغاربة من احتلال لدور أهل مصر فى الفسطاط ، وكان رد فعل الخليفة المعز سريعا فقام باخلاء تلك الدور من المغاربة وأمرهم بترك الفسطاط والاقامة فى القاهرة .

ولا شك أن سياسة الفاطميين كانت تهدف الى نشر المذهب الاسماعيلى بين أهل مصر ، والاصرار على اصدار الاحكام القضائية وفقا لما ينص عليه هذا المذهب ، فضلا عن قصر الوظائف الادارية على الشيعة . فبدأ المعز باشراك المغاربة مع الموظفين المصريين السنيين « فلم يدع عملا الا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه »(٤٣) . كما أشرك القاضى الشيعى « أبا سعيد بن أبى ثوبان » مع القاضى السنى « أبو طاهر » وعهد اليه بالفصل فى القضايا الخاصة بالمغاربة . ثم أسند اليه النظر فى قضايا المصريين جميعا ولقب باسم قاضى مصر والاسكندرية(٤٤) .

---

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٢٠ .
(٤٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨ .
(٤٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨ .
(٤٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٨٧ تقضى مبادىء الاسماعيلية ان تورث البنت التركة كلها اذا لم يكن لها أخ او أخت ، كما تقضى على صيام رمضان ثلاثين يوماويقولون بمبدأ الجمع بين الرؤيا والحساب .
=

وكان قصر الوظائف الادارية على الشيعة دافعا لأعداد كبيرة من الموظفين المصريين الى التظاهر باعتناق مبادىء الاسماعيلية حفاظا على وظائفهم والا تعرضوا للعزل .

ولم يكن ذلك يعنى بالنسبة للمصريين استسلاما تاما لواقع الأمر فقد قام أهل السنة بعدة ثورات كانت أهمها ثورة « زبير الاخشيدى » عام ٣٥٩ هـ فأعلن اسقاط الحكم الفاطمى ودعا للخليفة العباسى فى شمال الدلتا ، كما قامت ثورة فى تنيس عم ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م حين أنكر أهل السنة مبادىء الدعوة الفاطمية ، وفشلت هاتين الثورتين فى تحقيق أهدافهما اذ سرعان ما تصدى لها الفاطميون وألحقوا بهما الهزيمة ، كذلك كان الحال تجاه ثورة الصعيد التى تزعمها « عبد العزيز بن ابراهيم الكلابى » التى رفعت شعار « معاوية خال على وخـال المؤمنين »[٤٥] .

حاول الفاطميون فرض مذهبهم على أهل مصر ، واذا كانت جيوش الفاطميين قد دخلت مصر دون أن تجد من يتصدى لها الا أن المذهب السنى متمثلا فى أنصار المالكية فى مصر ظل صامدا أمام ضغط الفاطميين فى نشر المذهب الاسماعيلى . فلم تلن للمصريين قناة ، وظلت الفسطاط ومسجدها الجامع مركزا للفقه السنى ، وقد وصف المقدسى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط حين زارها فى القـرن الرابع الهجرى بقوله : « وهذا الجامع أبدا بين العشائين غاص بحلق

=

ويذهب الاسماعيلية الى أن عقد الزواج لا ينحل الا بحكم القاضى ويستحيل بعد ذلك اعادة المطلقة استحالة مطلقة ، كما خالف الاسماعيلية فى قاعدة التوريث المذاهب السنية باقرارهم قاعدة التنزيل أو التمثيل وهى أنه اذا توفى الفرع قبل وفاة مورثه قامت فروع الفرع مقامه واخذت نصيبه كما لو كان حيا .

ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٢١٢ .

(٤٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

الفقهاء وأئمة القراء »[٤٦] • فبينما كانت تدور فى قصور الفاطميين مجالس الحكمة التأويلية ، كانت حلقات الفقه المالكى والشافعى فى المسجد الجامع تدور « على سبعة عشر عمودا لكثرة طلابه »[٤٧] •

كما ذاع صيت امام المالكية « أبو القاسم الجوهرى » وعبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى المتوفى عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م الذى ألف كتاب « مسند الموطأ » وأبا بكر محمد النعالى المالكى[٤٨] •

---

(٤٦) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٩ (ط ليدن ١٩٦٧ م) .

(٤٧) نشأت فى العصر العباسى الاول المذاهب الاربعة المعروفة الى اليوم وكانت أوجه الاختلاف بينها تتعلق بالاجابة عن المسائل التى تعترض المسلمين ولا يوجد نص صريح لها فى القرآن الكريم ولا فى الحديث ، فتمسك فريق باتباع الحديث ، وتمسك الآخر باتباع الراى وفريق بين هذا وذاك . وأقدم هذه المذاهب هو مذهب الامام ابى حنيفة الذى توفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ويعد امام أهل الرأى والقياس ثم مذهب مالك بن انس الذى توفى فى المدينة المنورة سنة ١٧٩ هـ وهو يتمسك بالحديث ولا يلجأ الى الرأى ، ثم مذهب الامام الشافعى وقد ولد فى غزة بمصر سنة ١٥٠ هـ وتلقى العلم فى الحجاز والعراق وقدم الى مصر عام ١٩٨ هـ وتوفى بها عام ٢٠٤ هـ وهو يجمع بين الرأى والحديث ويمزج بينهما ، وأخر هذه المذاهب هو مذهب الامام أحمد بن حنبل الشيبانى الذى ولد سنة ١٦٤ هـ ببغداد وتوفى عام ٢٤١ هـ واشتط فى المغالاة فى اتباع الحديث حتى الضعيف منه ، وقد مال المصريون للمذهبين المالكى والشافعى وأعرضوا عن المذهب الحنفى الذى يعتمد على الراى وهو مذهب الدولة العباسية الرسمى وقد نقله الى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من قبل الخلفاء العباسيين ، وكان أولهم اسماعيل بن اليسع الكندى الذى تولى القضاء زمن الخليفة المهدى عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وكان يرى ابطال الأحباس تبعا لأبى حنيفة ، بينما انتشر الفقه المالكى فى مصر وكان الفقيه عثمان بن الحكم الجذامى اول من قدم بعلم مالك الى مصر كما يذكر ابن فرحون فى كتابه الديباج المذهب ص ١٨٧ بينما يذكر المقريزى أن أول من قدم بعلم مالك الى مصر عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد بن يحيى المتوفى سنة ١٦٣ هـ ويبدو انهما تتلمذا معا على يد الامام مالك فى المدينة المنورة وقدما معا .

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٠ .

ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢١٨ .

(٤٨) الكندى : الولا ةوالقضاة ص ١٠٤ .

لذلك كانت مهمة الفاطميين فى تحــويل المصريين الى المذهب الاسماعيلى مهمة صعبة رصدوا لها كل مكانياتهم[٤٩] .

ومع ذلك نجد أن المصريين رفضوا أن يحتكموا الى القاضى الشيعى فأفرد لهم المعز قاضيا سنيا يتولى الفصل بينهم وفقا لمذهب أهل السنة . ويذكر الداعى ادريس[٥٠] أن المعز عهد الى القــاضى اسماعيلى النعمان بن حيون مهمة الاشراف على القاضى السنى وذلك بعد أن استقر الأمر للمعز فى مصر . مما يدل على مدى تمسك المصريين بمذهب أهل السنة ورفضهم للقضاء الشيعى .

كان المسجد الجامع بالقاهرة أول مدرسة لتلقين المصريين أصول الدعوة الاسماعيلية منذ أن عقد فيه أول اجتماع للاحتفال بعيد الغدير فى الثامن ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م حيث اجتمع به القــراء والفقهاء والمنشدون فكان « جمعا عظيما أقاموا الى الظهر ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة وكان هذا أول ما عمل بمصر »[٥١] .

كما عقد الفاطميون فى قصورهم مجالس لبث الدعوة الاسماعيلية فيذكر القاضى النعمان أن الخليفة المعز أمر أن يقرأ على الناس كل يوم جمعة فى مجلس قصره كتاب فى علم الباطن[٥٢] . فكان الناس يجتمعون فى مجالس قصر الخليفة المعز لقراءة كتاب « دعائم الاسلام » وكانت هذه المجالس تعرف باسم مجالس الحكمة التأويلية وتعرف

---

(٤٩) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٥٦ .

(٥٠) ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٣٢٤ .

(٥١) عيد غدير خم هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ويقــول الشيعة ان الرسول (ص) بعد عودته من حجة الوداع بغدير خم فى طريقه الى المدينة ويروون ان الرسول (ص) اخذ بيد على بن ابى طالب وقال « الستم تعلمون انى أولى بكل مؤمن من نفســه فقالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم والى من ولاه وعاد من عاداه » . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٩ .

(٥٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .

القاعات التى يجتمعون بها باسم « المحول » حيث تلقى دروس المذهب الاسماعيلى ويعرف داعى الدعاة الذى يتولى اعداد الدروس التى تلقى فى تلك المجالس باسم « باب الأبواب »(٥٣) و« الحجـــة » ويبدو وكأن هذه الدروس مملاة على داعى الدعاة من الامام .

وكان الدعاة يقومون بالقاء الدروس فى مجالس الدعوة المسماة بالمجالس التأويلية . وتبدأ تلك المجالس بأن يقوم الداعى بحمد الله والثناء عليه ، ثم الاشادة بالأئمة من نسل على بن أبى طالب ثم يبدأ فى تأويل آيات من القرآن الكريم أو الحديث النبوى ، ويؤول شيئا من فرائض الدين ، ومن أشـــهر الكتب التى جمعت دروس مجالس الحكمة التأويلية كتاب تأويل « دعائم الاسلام » للقاضى النعمان ابن محمد(٥٤) الذى يعد كتاب الافتاء حسب قواعد المذهب الاسماعيلى . ويليه فى الأهمية كتابه الثانى « اختلاف المذاهب » ثم كتاب « تربية المؤمن »(٥٥) .

وتختلف مجالس الحكمة التأويلية من حيث مستوى التعمق فى المذهب الاسماعيلى ، فكان جمهور الحاضرين لتلك المجالس يقسمون الى أقسام حسب مرتبتهم فى فهم وتلقى الدعوة ، فكان مجلس الأولياء أرفع تلك المجالس منزلة ويليه مجلس الخاصة ثم مجلس العامة ، وكان للنساء مجلس خاص بهن(٥٦) . وكانت أسرار الدعوة لا تلقى الا على المقربين الذين اعتنقوا مبادىء الدعوة وأصبحوا محل ثقـــة الدعـــاة .

---

(٥٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٥٤) هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمى المغربى تولى القضاء وكان مالكى المذهب وعمل فى خدمة المهدى فى بلاد المغرب ثم اتصل بالخليفة المعز والف كتاب المجالس والمسايرات وضمنه آراؤه ورحل الى المعز فى مصر . ابن خلكان : وفيات الاعيـــان جـ ٢ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٥٥) النعمان بن حيون : اختلاف اصول المذاهب ص ٢٧ — ٢٨ .

(٥٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٦ .

من أشهر من تولى التدريس فى تلك المجالس قاضى قضـــاة الاسماعيلية المؤيد فى الدين الشيرازى(٥٧) • ويسمى كل درس من تلك الدروس « مجلس » وقد بلغ عددها ثمانمائة درس تلقى يوم الخميس من كل أسبوع • وقد وصف المقـــريزى المكتبة التى كان يحتويها القصر الفاطمى بقوله « لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر » • حيث حوت كل ما يتعلق بكتب الاســـماعيلية وما يفيد الدعاة من كتب فى عـــلوم الفقه واللغة •

وفى عهد الخليفة العزيز بالله حين أسند الوزارة الى يعقوب بن كلس عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م أسند اليه أيضا الاشراف على المجالس التأويلية • كما كان العلماء يجتمعون فى دار الوزير لتدارس كتب الدعوة • كما اهتم العزيز بالله بمكتبة قصره التى زودها بالكتب فى مختلف العلوم(٥٨) • وكذلك بمكتبة الجامع الازهر(٥٩) •

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة وهى بمثابة مؤسسة علمية هدفها نشر مبادىء المذهب الاسماعيلى ، تولى الاشراف عليها جهاز ادارى منظم • وزودها الحاكم بالكتب فى مختلف فروع العلم ومدها بالاوراق والاقلام والاحبار ودعا اليها العلماء من كافة التخصصات ، ودخل اليها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر للقراءة ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم وكانت تضـــم العلماء من التخصصـــات المختلفـــة « يذهبون للمناظرة أمام الخليفة الحاكم كل طائفة على انفرادها »(٦٠) وتقبل هذه الدار من أتم دراسة المذهب الاسماعيلى فى الجامع الازهر

---

(٥٧) المؤيد فى الدين الشيرازى : ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٣٣٤ (ط دار الكاتب المصرى ١٩٤٩) .

(٥٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٥٩) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٦٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

من الفقهاء عامة والقضاة خاصة . وكان داعى الشيعة « يجلس فيها ويجتمع اليه من التلاميذ من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم »[٦١] .

وقد أورد المقريزى الوقفية التى أوقفها الحاكم بأمر الله على الجامع ازهر ودار الحمكة فى رمضان عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م كما أسند منصب داعى الدعاة الى الداعية أحمد حميد الدين الكرمانى وهو قاهرى الأصل تولى أمر الدولة أيام العزيز بالله فى فارس والعراق وله مؤلفات عديدة أشهرها كتاب راحة العقل[٦٢] فى أحكام المذهب الاسماعيلى .

ولا يعنى ذلك أن الفاطميين منعوا أهل السنة فى مصر من اظهار مذهبهم وانما عمدوا الى أسلوب المناظرة والتشكيك ، وان أظهروا بعض التسامح تجاهل أهل السنة ويذكر القلقشندى أن « الفاطميين كانوا يمكنونهم — يقصد أهل مصر — من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه »[٦٣] .

ويبدو أن هذا الموقف من الفاطميين كان ضرورة سياسية لكسب ود المصريين تجنبا لاثارة المشاكل ، فقد شعر الفاطميون بخطورة الثورة التى قام بها الوليد بن هشام الأموى فى برقة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م التى تدعى ثورة « أبى ركوة » حيث نجح الوليد فى اسقاط الحكم الفاطمى عن برقة بعد أن استقطب عددا من القبائل ثم تقدم نحو الفيوم ثم الجيزة وصادف تأييدا من المصريين .

---

(٦١) القلقشندى : ابو العباس أحمد : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٦٦ (ط القاهرة ١٩١٤ م) .

(٦٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٦٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٦٦ ويشير ادريس عماد الدين الى أن الفاطميين سمحوا للقضاة السنيين ان يحكموا بين المتاخصمين جنبا الى جنب مع القضاة الاسماعيلية بشرط ان يحكموا وفقا لاصول المذهب الاسماعيلى فيما يتعلق بالمواريث والطلاق وتقضى مبادىء الاسماعيلية ان ترث البنت التركة كلها ان لم يكن معها اخ او اخت وفى الطلاق لديهم قيود خاصة .

ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٢١٤ .

ونتيجـة لتلك الاحداث أصـدر الحاكم بأمر الله سـجلا عـام ٣٩٨ هـ / ٩٩٨ م حاول فيه تهدئة الامور بين السنيين والشيعة فى مصر تجنبا للشغب ومحاولة لكسب رضا المصريين السنيين . سمح فيه لهم بأن يصوموا رمضان حسب قواعد أهل السنة كما سـمح لهم باقامة صلاة التراويح ومنع سب السلف والنداء بحيى على خير العمل فى مساجد أهل السنة[٦٤] .

ولا شك أن ازدهار الفقه السنى وانتشار المدارس السنية فى مختلف مساجد مدن مصر خاصة فى لاسكندرية[٦٥] كان له أثره فى تمسك أهل مصر بمذهب أهل السنة ، واشتهر فقهاء المالكية بالاسكندرية ، ولا أدل على ازدهار الفقه السنى فى الاسكندرية من أنه كان بها فى العصر الفاطمى مدرستان سنيتان شهيرتان هما مدرسة الفقيه المحدث « أبى طاهر بن عوف » ومدرسة الحافظ السلفى[٦٦] .

---

(٦٤) جاء فى هذا السجل : « أما بعد فان أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين لا اكراه فى الدين .. يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض فى أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحا وصلاة التراويح لا مانع لهم ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسـون ولا يمنع من التكبير المربعون ، يؤذن بحيى على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف .. لكل مسلم اجتهاده ... لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده » .

ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٠ .

(٦٥) أقيمت فى الاسكندرية فى القرن الاول الهجرى عدة مساجد هى مسجد موسى عند المنار ومسجد سليمان عند القيسارية فى وسط المدينة ، ومسجد ذى القرنين ، ومسجد الخضر ومسجد عمرو بن العاص الكبتى الذى يعرف باسم مسجد الرحمة ذكر ياقوت موضعه عند العمودين اللذان يعرفان بالمسلمتين ، كما ذكر السيوطى أسماء بعض الصحابة الذين نزلوا بالاسكندرية ومنهم أسد الجهنى وشعبان بن هانىء ومسلمة بن مخلد .

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٥٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٦ .

(٦٦) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وتتلمـذ على يـد فقيه الاسـكندرية السـنى « أبى بـكر الطرطوشى »(٦٧) عدد كبير من الفقهاء اشتهر منهم سند بن عفان وظاهر بن عوف وقد تصدى الفقيه الطرطوشى للقاضى الاسماعيلى أحمد بن عبد المجيد بن الحسن . وقد أورد الطرطوشى النصـيحة التى أسداها الى الوزير الأفضل بن بدر المجالى فى كتابه سراج الملوك(٦٨) الذى ألفه وأهداه الى الوزير المأمون البطائحى . حيث بين مآثر أهل السنة وناقش المسائل الفقهية الشيعية ونجح فى الغاء بعض أحكا م المذهب الاسماعيلى الخاصة بالمواريث والتركات .

وهكذا لم يفلح دعاة الاسماعيلية فى نشر مبادىء الاسماعيلية لدى المصريين ، وكان لاضطراب أمور الدعوة أيام الحاكم بأمر الله أثر كبير فى ذلك ، فقد بالغ داعى دعاة المذهب الاسماعيلى فى عهـده « محمد بن اسماعيل الدرزى » فى أمر الدعوة الى حد تأليه الحاكم ويشير الداعى ادريس عماد الدين لى ذلك بقوله « ووقع فى أهل الدعوة والملكة الاختباط وكثر الزيغ والاختلاط » . وكان رد فعل لمصريين ازاء ذلك عنيفا فقد جهروا بسبه وسب أهل الدعوة فى مدن مصر وقراها(٦٩) . رغم أن الحاكم بأمر الله تصدى لتلك الهرطقة وقتل دعاته الذين غالوا فيه ولم يدفعوا عنه تهمة التألية . كما حرص الحاكم على حضور مجالس الدعوة ليدفع عن المذهب الشيعى تلك التهم ، وأمر بالغاء ما يتعلق بالمذهب من مظاهر الاحتفال ، وأسند الى حميـد الدين الكرمانى رئاسـة دار الحكمة ، واهتم الكرمانى بشرح أسباب « المحنة » وكتب رسالته الهامة فى « نفى ألوهية الحاكم بأمر الله » وحاول تصحيح مفهوم الدعوة الاسماعيلية الذى شوهه

---

(٦٧) ابن فرحون : ابراهيم بن على بن فرحون : الديباج المذهب جـ ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ (ط القاهرة ١٣٥١ هـ) .

(٦٨) الطرطوشى : أبو بكر محمد بن محمد القهرى : سراج الملوك ص ٧٦ . جاء فى هذه النصيحة قوله : « اتق الله فيمن حولك من هذه الامة .. فافتح الباب وسهل الحجاب معا وانصر المظلوم » .

(٦٩) ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ص ٣٢٥ .

حمزة الدرزى واظهار الحاكم بأمر الله بمظهر الامام المسلم المعترف بعبوديته لله ، وتكفير من يؤلهه ، واظهار الايمان المطلق والتوحيد .

وكان غلو الدعاة وشططهم ونشرهم الأفكار المتطرفة التى تصل الى حد الخروج عن الدين أحد الاسباب التى أدت الى انكار المصريين لتلك الآراء واعراضهم عنها ، وان كان الخلفاء قد حرصوا منذ عصر الخليفة المعز على تنقية الدعوة من الغلو فيذكر القاضى النعمان كبير دعاة الاسماعيلية أن المعز وجهه الى ذلك بقوله : « لعن الله من قال بأننا ندفع سنته وشريعته ، وندعو الى غيرها ، ان المنتسبين الينا المتقولين ما لم نقله أعدء لنا وأضر من عدونا المناصب لنا بعداوتنا »[٧٠] .

ولا شك أن عمق جذور المذهب السنى فى مصر ، وازدهار مدارسه الفقهية جعل من الصعب على المصريين تقبل الافكار المتطرفة التى تحوى من التأويلات ما يخرجها عن أحكام كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(٧٠) النعمان بن محمد : المجالس والمسايرات ص ٣٤ .

هجرات الاندلسيين الى شرق البحر الابيض المتوسط
خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين

د. منى حسن أحمد محمود
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تولى الحكم بن هشام حكم بلاد الاندلس[1] بعد وفاة أبيه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[2] فى صفر ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م وكان عمره وقتذاك ستا وعشرين سنة وكان يكن أبا العاص . وقد سار على نهج أبيه وجده[3] فى القضاء على الثورات والفتن والسيطرة على الأوضاع الداخلية حتى تستمر دولة الاسلام فى الاندلس موحدة متماسكة وتستطيع صد غارات العدو وحفظ سلطان الامويين ومكاسبهم

---

(١) هو الامير أبو العاص الحكم الاول بن هشام المعروف بالربض حكم من ١٨٠ هـ الى ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م كان شجاعا باسلا أديبا مفتنا خطيبا مفوها وشاهرا مجودا من الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٣ ـ ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٩ الا أنه فى أواخر أيامه كان كثير التشاغل باللهو والصيد والشرب وغير ذلك مما يجانسه » . ابن الاثير الكامل جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٢) هو الامير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ويعرف بالرضا لعدله وفضله ويكنى « أبا الوليد » وكان يؤثر مجالس العلم والادب وخاصة الحديث والفقه على غيرها واعتنق مذهب مالك فأصبح مذهب الاندلس .
ابن عذارى : البيان جـ ٢ ص ٧١ . المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ١٥٩ ـ ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٢ ـ المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٤٣ . ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس ص ٥٧ .

(٣) هو الامير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن ابى العاص بن امية كنيته أبو المطرف أمه بربرية من بنى المغرب تسمى راحا لقب بالداخل ودخل بلاد الاندلس وكون أول امارة أموية هناك سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . ابن عذارى : جـ ٢ ص ٤٧ ، المراكشى : المعجب ص ٤٠ .

فى الداخل والخارج[٤] ، اذا أستهل الحكم بن هشام عهده بارسال الجيوش لمحاربة الفرنجة ، الا أن الحكم ما لبث أن اضطر الى ترك الجهاد والغزو للتصدى لبوادر الفتن والثورات التى ظهرت فى معظم المدن الاندلسية ضد حكمه[٥] ولكن كانت أخطر هذه الثورات والفتن تلك المؤامرة التى اكتشفها الحكم سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م[٦] ودبرت لخلعه وكان يتزعمها مجموعة من الفقهاء المالكية الذين ازداد نفوذهم فى عهد أبيه هشام ، فلما تولى الحكم تصدع نفوذهم القديم فثاروا عليه واتهموه بالخروج على أحكام الدين[٧] وكان على رأس المتزعمين لهذه الثورة يحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار وطالوت الفقيه[٨] وغيرهم من زعماء المالكية ، ولكنه استطاع القضاء عليها ، وما لبثت أن عادت هذه الثورة مرة ثانية فى أواخر حكم الحكم سنة ٢٠٢ هـ /

---

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٨ — ٦٩ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٤ — ابن الأبار : الحلة السيراء : جـ ١ ص ٤٤ .

(٥) ابن عذارى : البيان جـ ٢ ص ٦٩ — ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٥٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٠١ — المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ١٥٨ .

(٦) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١ .

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١ — المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٥٩ — ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٢ — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٣ .

(٨) « وطالوت الفقيه كان من اشد الناس على الحكم تحريضا وكان جليل القدر فى الفقهاء رحل الى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه وكان قويا فى دينه فلما أوقع الحكم بأهل الربض وأمر بتغريب من بقى منهم كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه واختفى لمدة عام ثم عفا عنه الحكم » . المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

٨١٧ م[٩] ، اذ أن معظم أهالى قرطبة كانوا غير راضيين عنه فالزعماء المالكيون كانوا يبغضون السلطة الحاكمة • وساعد على اذكاء روح الكراهية ضد الحكم ما كان يردده المتزمتون من رجال الدين ضده الأمر الذى أدى الى تطاول الاهالى على الحكم نفسه بالسب والتعرض لجنوده فى الطريق ، واجتماع الاهالى فى المساجد ليلا لتجريمه والطعن عليه[١٠] ، ولما قبض الحكم على عشرة من أهل الربض الذين تعرضوا له بالتجريح وصلبهم ثارت ثائرة الناس وحملوا السلاح وكان أشدهم تحفزا أهل الربض الجنوبى فى الضفة الاخرى من النهر فى ضاحية جنوبى قرطبة تسمى شقندة وكانت كثرتهم من الاوغاد فهبوا فى سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م[١١] وحاولوا دخول القصر والاعتداء على الحكم • فواجه الأمير وقواده الزاحفين على القصر وأشعل قواد الحكم النيران فى مساكن أهل الربض الثائرين وأعملوا فيهم القتل حتى أفنوهم وأستمر القتال فيهم ثلاث ليال وأمر الحكم الباقين بالخروج من قرطبة وبدأ رحيلهم فى سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م فهاجرت جماعات الى العدوة بالمغرب[١٢] وجماعات اتجهت الى المشرق ونزلوا بالاسكندرية ثم

---

(٩) « وكانت وقعة الربض الشنعاء يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان سنة اثنين ومائتين فى آخر خلافة الحكم ويوم الخميس بعده أمر بهدم الربض القبلى الذى منه نشأت الفتنة » .

ابن الآباء : الحلة السيراء ج ١ ص ٤٤ .

(١٠) يقول ابن الاثير « وصاروا يتعرضون لجنده بالاذى والسب الى أن بلغ الامر بالغوغاء انهم كانوا ينادون عند انقضاء الآذان الصلاة يا مخمور الصلاة ، وشافهة بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالاكف » ج ٥ ص ١٧٢ وابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٦ — ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٤٤ .

(١١) ويذكر ابن الاثير ان السبب الثانى الذى حرك الثورة كما يقول : « ان مملوكا للحكم سلم سيفا الى صيقل ليصقله مطله فأخذ المملوك السيف فلم يزل يضرب الصيقل به الى أن قتله وذلك فى رمضان من هذه السنة فكان أول من شهر السلاح على أهل الربض ، واجتمع أهل الأرباض جميعهم بالسلاح » . ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٧٢ .

(١٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٤٤ وص ٤٥ — وابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ — وابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ١٧٢ .

خرجوا منها الى جزيرة اقريطش واستوطنوها[١٣] . وبذلك خرج الحكم من هذه الثورة الخطيرة التى كادت أن تودى بحكمه منتصرا بعد أن سحقها سحقا .

مهاجرو الاندلس بالاسكندرية :

فى وقت ظهورهم عند الاسكندرية كان الخليفة العباسى هارون الرشيد[١٤] قد عهد بالخلافة لابنائه من بعده الامين ثم المأمون ثم المؤتمن وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بنى هاشم وعلقت فى الكعبة[١٥] . وتولى الامين الخلافة بعده ولم يعمر الامين طويلا فقد قتل بعد أن تولى الخلافة . وقد ذهب الامين ضحية هذه

---

(١٣) يقول ابن الأبار : « ولما أنقضت الايام الثلاث أمر برفع القتل وتأمين الفل على أن يخرجوا من حضرته قرطبة فساروا على أوطانهم كل بحسب ما أمكنه متفرقين فى قصى الكور وأطراف الثغور ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها الحكم ولجأ آخرون الى سواحل بلاد البربر واصعدت منهم طائفة عظيمة نحو الخمسة عشر الفا فى البحر نحو الشرق حتى انتهوا الى الاسكندرية » ، ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٥ — وابن عذارى : جـ ٢ ص ٧٧ .

(١٤) بويع للرشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن العباس بالخلافة ليلة الجمعة التى توفى فيها أخوه الهادى وكانت سـنة يوم ولى اثنتين وعشرين سنة ، سنة تسع وستين ومائة وأمه أم ولد يمانية جرشية يقال لها خيزران وولد بالرى — الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٢٣٠ ، الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٨٢ .

(١٥) وكان الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد يوم الخميس فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة وسماه الأمين وضم اليه الشام والعراق فى سنة خمس وسبعين ومائة ثم بايع لعبد الله المأمون بالرقة فى سنة ثلاث وثمانية ومائة وولاه من حد همذان الى آخر المشرق ثم بايع للقاسم ابنه وسماه المؤتمن ولاه الجزيرة والثغور والعواصم . وقد أشهد هارون الرشيد الفقهاء والقضاة على هذه البيعة وعلق الصحيفة بالكعبة اثناء وجوده فى بلاد الحجاز للحج وكان بصحبة أبنائه الثلاثة وقواده ووزرائه وقضاته سنة ستة وثمانين ومائة — الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٢٧٥

الفتنة التى قامت بينه وبين أخيه المأمون بسبب خلعه أخاه من ولاية العهد وتولية ابنه موسى العهد من بعده ، ونكث العهد والميثاق الذى أخذه عليه أبوه الرشيد مما أشعل الفتن والثورات فى انحاء العالم الاسلامى وانقسم الناس بين مؤيد له ومعارض[١٦] .

كانت فترة النزاع بين الامين والمأمون عهد فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ولم تنته هذه الفوضى بتولى المأمون الخلافة[١٧] فى سنة ١٩٨ هـ بل ظلت آثارها عدة سنين ، وحدثت ثورات مختلفة فى أنحاء الدولة وقد أمتدت الفوضى الى مصر أيضـا لانشغال المأمون بالقضاء على الثورات الأخرى فظهرت فى تلك الفترة بعض الشخصيات الراغبة فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك[١٨] .

فى هذه الفترة ظهر بعض الاندلسيين الذين خرجوا من الاندلس على أثر ثورة الربض واتجهوا الى مدينة الاسكندرية واستطاعوا أن يستقروا بها فترة من الزمن بلغت عشر سنوات[١٩] مستغلين الظروف السـائدة فى مصر اذ ذاك من الفوضى والاضطراب . يقـول الطبرى « ان مراكب أقبلت من بحر الروم من قبل الاندلس فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قبلهم بفتنة الجروى وابن السرى حتى أرسوا مراكبهم بالاسكندرية »[٢٠] .

---

(١٦) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ — ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٠٧ .

(١٧) يقول ابن الاثير : الكامل « ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة وفيها مكر كل واحد منهما بصاحبه محمد الامين وعبد الله المأمون وظهر بينهما الفساد » جـ ٥ ص ١٣٤ — ١٣٨ — والطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٥٢٧ .

(١٨) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ ، ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٣ — ٤٤ — الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٢ ، وابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٧٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ ، والمراكشى : المعجب ص ٤٥ .

(١٩) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٢ .

(٢٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٦١٣ . ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٤ . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٧٢ .

وكانت أحوال مصر عند وصول الاندلسيين الى مدينة الاسكندرية مضطربة أشد الاضطراب حيث قام العديد من الثوار بمصر بالاستطالة عليها وجباية الضرائب لانفسهم وقسمت مصر بينهم[٢١] ، وقد ظهـر بمصر عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا من شطنوف الى الفرما ، أما السرى بن الحكم فقد استولى على الوجه القبـلى من مصر الى أسوان ، أما غربى الدلتا بما فيذلك الاسكندرية واعمالها ومريوط والبحيرة جميعها فقد سيطرت عليها قبيلتا لخم وبنو مدلج[٢٢] .

واشتعلت الفتنة فى هذه الفترة بين الجروى الذى كان صاحب السلطة فى شرق الدلتا وبين السرى بن الحكم فى محاولة للسـيطرة على الاسكندرية[٢٣] وتدخل فى هذا النزاع طرف ثالث هو المطلب بن عبد الله الخزاعى الذى كان قد أرسله الخليفة المأمون لتولى أمـور مصر سنة ١٩٩ هـ / ٢٠٠ هـ[٢٤] ، يقول الكندى « وعقد المطلب على

---

(٢١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٢ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ .

(٢٢) يقول اليعقوبى : « وبمصر السرى بقصبة الفسطاط والصعيد ، وبأسفل الارض عبد العزيز الجروى وبالحوفين القيسية واليمانية وغلبت لخم وبنو مدلج على الاسكندرية » جـ ٣ ص ١٧٤ ، والكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٢ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢٣) الكندى : الولاة والقضاة : ص ١٥٤ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦٥ — ١٦٩ — يقول ابو المحاسن : « هو السرى بن الحكم بن يوسف بن المقوم مولى من بنى ضبة ، واصله من بلخ من قوم يقال لهم « الزط » أمير مصر وليها باجماع الجند واهل مصر على الصلاة والخراج معا فى مستهل رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب عنها وسكن العسكر على عادة أمرائها » ابو المحاسن جـ ٢ ص ١٦٥ ، والكندى : الولاة والقضاة ص ١٦١ يقول الكندى « ان السرى ابن الحكم كان اول دخوله الى مصر فى أيام الرشيد وكان قليل الامر فارتفع ذكره فى خلع محمد الامين » ص ١٤٨ .

(٢٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٢ — ١٥٧ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٥٧ .

=

الاسكندرية لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج فاستخلف محمد عمر ابن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى يقال له عمر بن هلال فوليها عمر بن عبد الملك ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبد الله ، وكانت بالاسكندرية مراكب الاندلسيين ، فلما عزل عمر بن هلال كتب اليه عبد العزيز الجروى يأمره بالوثب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وأن يخرج الفضل بن عبد الله منها فبعث عمر بن هلال الى الاندلسيين فدعاهم الى القيام معه فى اخراج الفضل عنها »[٣٥] وسرعان ما لبوا طلبه [٣٦] .

ولكن أهل الاسكندرية وثبوا على الاندلسيين وأخرجوهم الى مراكبهم بعد أن قتلوا منهم وأقاموا عليهم الفضل بن عبد الله مرة ثانية[٣٧] ، ولكن عمر بن هلال الحديجى استطاع أن يستغل هـذا الاضطراب والنزاع الذى حدث بين المطلب والسرى بن الحكم[٣٨] يقول الكندى « وطلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم اليه الأمر ويخرج عن مصر ففعل ذلك السرى وسلم اليه المطلب وخرج

=

يقول أبو المحاسن : « هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعى أمير مصر وولاه المأمون على مصر بعد عزل عباد بن محمد عنها فى صفر سنة ثمان وتسعين ومائة وجمع له صلاة مصر وخراجها معا » ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٨ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج٣ ص ١٧٤ .

(٣٦) يقول اليعقوبى « ثم وثب بعض اعوان السلطان على رجل منهم فوقعت عصبية فوثب الاندلسيون على الفضل بن عبد الله اخى المطلب بن عبد الله وقتلوا صاحب شرطته وصاروا الى الحصن وحاربوا أهل الاسكندرية حتى اجلوهم عن منازلهم فحلوا الديار والاموال » . تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٩ ، وأبو المحاسن : النجـوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

المطلب فى بحر القلزم الى مكة ، ثم وليها السرى بن الحكم باجماع الجند عليه على صلاتها وخراجها لمستهل شهر رمضان سنة مائتين »[٢٩] فاستولى على الاسكندرية ودعا لعبد العزيز الجروى بها فلما علم الاندلسيون بذلك قدموا اليه الا انه لم يعاملهم فى تلك المرة كما سبق أن عاملهم اذ بلغه[٣٠] عنهم بعض الفساد فأمر عمر باخراجهم من الاسكندرية والحاقهم بسفنهم فحقد الاندلسيون على ابن هلال[٣١] وظهرت فى الاسكندرية فى ذلك الوقت طائفة يسمون بالصوفية ، يقول الكندى « يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أمره واتخذوا رئيسا منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى فصاروا مع الاندلسيين يدا واحدة »[٣٢] كما تقووا بقبيلة لخم التى كانت أقوى من فى ناحية الاسكندرية ، ثم ساروا الى عمر بن هلال ليثأروا لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله وأهله فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ[٣٣] .

ثم فسد أمر لخم والاندلسيين بعد مقتل عمر بن هلال واشتعلت الفوضى والفتن بالمدينة بينهما مما جعل أهل الاسكندرية يخرجون للاندلسيين[٣٤] ويقتلون الكثير منهم ، فلما علم الاندلسيون بمقتل الكثير منهم أثناء انشغالهم مع لخم خرجوا لقتال أهل الاسكندرية وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين وأصبحوا

---

(٢٩) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦٥ .

(٣٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ .

(٣١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣٢) الكندى الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٤ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٤ ، والطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ .

هم أصحاب السلطة الفعلية فى المدينة[٣٥] ، يقول الكندى « ظهر الاندلسيون بالاسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة مائتين فولوها أبا عبد الرحمن الصوفى فبلغ من الفساد بالاسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله فعزله الاندلسيون عنها وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى »[٣٦] .

فأصبحت الاسكندرية شبه مستقلة لهم ، ولم يستطع أحد من بنى مدلج أن يرجع اليها حتى يأذن لهم أهل الاندلس[٣٧] . يقول اليعقوبى « واجلوا بنى مدلج ولخما من البلد فصار البلد كله لهم »[٣٨] . واشتد النزاع بين الجروى والسرى حول السيطرة على الاسكندرية وأنتهى بالنصر للسرى بن الحكم فدعا الاندلسيون للسرى بن الحكم[٣٩] . يقول الكندى « ثم أن عبد العزيز الجروى سار الى الاسكندرية مسيرة الرابع فأغلق الاندلسيون حصنها فحاصرهم الجروى أشد الحصار ونصب عليهم المنجنيقا تواقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس فأصابت الجروى فلقه من حجر منجنيقه فمات سنة خمس ومائتين . ومات السرى بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر يوم السبت لسلخ جماد الاولى سنة خمس ومائتين »[٤٠] . واستمر حال

---

(٣٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٢ ، واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٤ .
النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٣٨) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٧٤ ، والكندى : الولاة والقضاة ص ١٦٤ .

(٣٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢١٨ ، الكندى : الولاة والقضاة ص ١٧٢ ، والطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ .

(٤٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٧٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٥٨٠ و٦١٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٧٨ .

الاسكندرية على هذا النحو من الاضطراب الى أن أرسل الخليفة المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين أميرا على مصر[٤١] فدخلها فى ولاية عبيد الله بن السرى فدعاه الى السمع والطاعة[٤٢] فقبل عبد الله الصلح وخرج من مصر سنة ٢١٠ هـ[٤٣] ثم تولى مصر عبد الله بن طاهر بن الحسين من قبل المأمون[٤٤] . وقد نزل عبد الله بن طاهر على رأس الجيش الى الاسكندرية وحاصرها لمدة عشرة أيام فخرج اليها أهلها بالامان . يقول ابن الأبار « الى أن ورد عبد الله بن طاهر أميرا على مصر من قبل المأمون فصالحهم على التخلى عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة اقريطش من البحر الرومى ، وكانت يومئذ خالية من الروم فاحتملوا اليها بفتنتهم ، ونزلوها فاعتمروها وجاءهم الناس من كل مكان »[٤٥] . وهكذا عادت مصر ولاية خاضعة للخلافة العباسية .

---

(٤١) يقول اليعقوبى : « ولى المأمون عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر والمغرب وصير اليه جميع أهلها وأمره بمحاربة المتغلبين بها » اليعقوبى جـ ٣ ص ١٨٣ و١٨٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٠ — ٦١٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٤٢) « ودخل عبد الله بن طاهر الفسطاط وكتب بالفتح وأقر عبد الله ابن طاهر بن عبيد الله بن السرى على الصعيد شهرين ثم سيره الى العراق ثم ولى العباس بن هاشم بن باتيجور البلد » اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ١٨٧ — ١٩١ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ .

(٤٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١١ ، ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢١٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ — ٦١٥ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ١٨٤ .

(٤٤) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الامير أبو العباس الخزاعى المصيصى أمير خراسان وأجل أعمال المشرق ثم أمير مصر من قبل المأمون بعد عزل عبيد الله السرى عن الصلاة والخراج ودخل مصر فى سنة احدى عشرة ومائتين ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩١ .

(٤٥) ابن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ — الكندى : الولاة ص ٢١١ ، وابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢١٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦١٣ .

وكان عمر بن عيسى بن شعيب البلوطى أول أمير من مهاجرة الاندلسيين على أقريطش[٤٦] فقد استطاع استخلاصها من يد البيزنطيين حصنا وراء حصن[٤٧] . يقول ياقوت « ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الاندلسى المعروف بالاقريطشى فافتتح منها حصنا واحدا ونزله ثم لم يزل يفتح شيئا بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحدا »[٤٨] وكان أول هذه الحصون فى خليج سودا بأرض اقريطش سنة ٢١٢ ﻫ / ٨٢٧ م[٤٩] حيث شيد لهم حصنا وأحاطه بخندق يقيهم شر أى هجوم مفاجىء غير أن أحد رهبان جزيرة اقريطش دلهم على مكان آخر أكثر ملائمة وصلاحية فى الجهة الشرقية من الجزيرة[٥٠] ، فأسسوا هناك عاصمة لهم وأقاموا بها حصنا وأحاطوه بخندق ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسم كنديا « قندية » الخندق

---

(٤٦) هو أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطى البتروجى الاقريطشى وكان من أهل بطروج من فحص البلوط وهى شمال قرطبة فى جبال سيراموربنا من الاندلس تولى امارة اقريطش بعد خروجه من الاسكندرية سنة ٢١١ ﻫ حتى سنة ٢٥٠ ﻫ وقد توارثها عقبه سنين كثيرة ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣١١ ، زامباور : معجم الانساب ص ١٠٩ ، دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ٣٢٦ ،البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ .

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣١٢ ، البلاذرى : فتوح اللبدان ص ٢٤٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل ج ٨ ص ٦١٣ ، وابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢١٢ .

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣١٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢١٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢ .

(٤٩) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢٢٣ .

(٥٠) ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، مقال بمجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الثانى ص ٥٨ .

بالقرب من رأس خركس Gharax [٥١] وأخذ الاندلسيون يوسعون سلطانهم تدريجيا حتى شمل أرجاء الجزيزة كلها ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الجزيرة تشهد عهدا جديدا فى ظل الاسلام دام قرنا ونصف تقريبا حتى عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م[٥٢] .

وقد دانت هذه الجزيرة بالتبعية للخـــلافة العباسية اذ اعترف ولاتها بسلطان الخليفة العباسى حتى يأمنوا على أنفسهم من هجوم الدولة البيزنطية[٥٣] اذا حاولت استرداد الجزيرة وأيضا لقربها من سواحل مصر فأصبحت تابعة لمصر اداريا[٥٤] ، ومنذ ذلك الحين استأنف الاندلسيون نشاطهم البحرى فى حوض البحر الابيض المتوسط معتمدين على أسطولهم[٥٥] .

---

(٥١) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢٢٣ — وفازلييف العرب والروم : ترجمة د. عبد الهادى شعيرة ود. فؤاد حسنين ص ٥٧ ، ود. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحـــرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٤٠ ، دائرة المعارف الاسلامية : مأخوذة عن الأصل الانجليزى والفرنسى ، المجلد الاول ص ٤٦٧ .

(٥٢) ياقوت : المعجم ٣١٢ ، البلاذرى : الفتوح ص ٢٤٤ ، زامباور : معجم الانساب ص ١٠٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ص ٤٦٧ .

(٥٣) د. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٢ ، وابراهيم العدوى اقريطش بين المســلمين والبيزنطيين ص ٥٩ .

(٥٤) ياقوت : معجم البلدان ص ٣١١ . يقول ياقوت « اقريطش اسم جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء » ، ود. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٢ ، ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٥٩ .

(٥٥) ويذكر د. ابراهيم العدوى فى مقاله ان ابا حفص عمر بن عيسى قد امر بحرق كل السفن التى اتوا بها الى الجزيرة حتى يجبر المهاجرين بالاستقرار بها وهذا يبدو غير مطابق للواقع اذ انهم خرجوا بلا مأوى منذ خروجهم فى اعقاب ثورة الربض وطردهم الحكم بن هشام ثم اتجهوا الى الاسكندرية واستقروا بها عدة سنوات وطردوا منها ايضا فى ولاية عبد الله ابن طاهر فاذن لم يبق امامهم مأوى يستقرون فيه سوى هذه الجزيرة التى
=

وبفضل المساعدات التى تدفقت من أرجاء العالم الاسلامى ، اذ كان هناك تعاون وثيق بين موانى مصر والشام واقريطش مما جعل المسلمين سادة البحر الابيض المتوسط الشرقى[٥٦] .

وموقع جزيرة اقريطش الاستراتيجى الممتاز فى وسط البحر المتوسط جعلها جسرا يربط بين شبه جزيرة البلوبونيز « البلقان » وشبه جزيرة الاناضول وتحكمت بفضل هذا الموقع أيضا فى الممرات المائية الى بحر ايجه وسواحل آسيا الصغرى ومقدونيا وكانت تجاور عددا لا يحصى من جزر بحر ايجه مثل رودوس وسكربنتو وميلوس وساموس وخيوس ولمنوس وتاسوس وميتلين[٥٧] ، يقول ابن خرداذبة « وفى بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة كان جميعها عامرا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازى اليها منها خمس عظام وهى جزيرة قبرس وجزيرة اقريطش وجزيرة صقلية وجزيرة سردانية وجزيرة يابس حيال الاندلس » وهذه الجزر كانت تشكل جميعها خطا دفاعيا أماميا لسواحل الامبراطورية البيزنطية المطلة على بحر ايجه وبحر

=
استطلعوا أمرها قبل أن يرحلوا اليها لذلك اختاروها بمحض ارادتهم دون اجبار من احد فعندما اخرجهم عبد الله بن طاهر وأمرهم بالاتجاه الى أى مكان يشاءون فوقع اختيارهم على هذه الجزيرة وكانوا كثيرى العدد بلغوا حوالى ١٥ الف رجل غير الاطفال والنساء فمن غير المعقول أن يغامر أميرهم باصدار أوامره باحراق كل السفن حتى لا يغادروا الجزيرة ويظهر أن هذه اسطورة متأثرة بما أثر عن طارق بن زياد وقصة حرق السفن . وذكر فازلييف فى العرب والروم أن المصادر الاغريقية حين تعرضت لنزول العرب ذكرتها على انها قصة **خيالية** .

(٥٦) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى ص ٢٢٣ ، ود. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ص ٤٠ ، رينيسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق ص ١٩٦ .

(٥٧) أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١١٢ و ص ٢٣١ .

مرمرة[٥٨] . فكان استيلاء المهاجرين الاندلسيين على الجزيرة ضربة قاصمة هددت الامبراطورية البيزنطية تهديدا مباشرا ، وأصبحت من أهم قواعد الخلافة العباسية فى البحر المتوسط[٥٩] ، وبفضل هذا الموقع لعبت الجزيرة دورا هاما أيضا فى التجارة مع مدن وثغور مصر والشام والجزر المجاورة فشهدت نشاطا تجاريا واسعا[٦٠] ، ساعدها على ذلك توفر المواد الخام اللازمة لصناعة السفن اذ كانت جزيرة غنية بالاشجار والغابات[٦١] التى كانت تستخدم فى هذه الصناعة منذ أيام الدولة البيزنطية ، ولمـا آلت الى المسلمين استأنفت نشاطها التجارى فكانت تصدر هذه الاخشاب الى ميناء دمياط بمصر لتصنيعها واستخدامها فى بناء السفن والاساطيل .

يقول ابن حوقل « فى هذا البحر غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة نبيلة فاستولى عليها كقبرس واقريطش وكانتا جزيرتين كثيرتى الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر اليها وكان أخذهما أحد الاسباب الزائدة فى أطماع الروم لانهما بما كان فيهما من الرجال والعـدة والعتاد كالنار لهيبها لا يفتر وأوارها لا يقصر »[٦٢] .

لذلك ارتبطت هذه الجـزيرة مباشرة بميناء دمياط وتنيس فى

---

(٥٨) د. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٠ ، وارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٣٦٣ ، فازلييف : العرب والروم ، ترجمة د. عبد الهادى شعيرة ود. فؤاد حسنين ص ١٧١ .

(٥٩) أرشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية التجارية ص ٢٦٣ ، د. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٠ . اومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٢ .

(٦٠) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية والتجارية ص ٢٦٤ ود. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٤٠ .

(٦١) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٣ .

(٦٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٣ .

مصر[٦٣] ، يقول الأدريسى[*] « وأما دمياط مدينة على ضفة البحر وبينهما مسافة وبدمياط يعمل من غريب الثياب الدبيقية وغيرها ما يقارب التنيسية وذراع النيل ينصب اليها من الذراع النازل الى مدينة تنيس وبها صاع كثيرون وتجار قاصدون بيع وشراء »[٦٤] . فدمياط كانت من القواعد البحرية الهامة فى مصر فى العصر الاسلامى لوقوعها على البحر المتوسط من جهة ، وعند مصب الفرع الشرقى للنيل لذلك أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط . لذلك ارتبطت اقريطش بها ارتباطا مباشرا[٦٥] ، فدمياط كانت تمد اقريطش بما تحتاج اليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع[٦٦] ، أما السفن الآتية من اقريطش والذاهبة الى مصر فكانت محملة بخيرات الجزيرة المختلفة سواء من الاطعمة التى اشتهرت بها مثل عسل النحل والجبن المشهورة باسم كنديا نسبة الى مدينة كنديا « الخندق » عاصمة اقريطش ، الى جانب الاخشاب التى تستخدم فى صناعة السفن[٦٧] .

فلما أدركت الدولة البيزنطية أن مصر دعمت نشاطها مع كريت

---

(٦٣) د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٤٧ ، والادريسى : نزهة المشتاق ص ١٥٥ ، ١٥٧ .

(*) الادريسى : نزهة المشتاق ص ١٥٥ وص ١٥٧ .

(٦٤) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٥٧ .

(٦٥) د. احمد العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٧ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية التجارية ص ٢١١ .

(٦٦) د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٧ .

(٦٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٩٢ ، وتقويم البلدان : السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل بن نور الدين ويقول صاحب تقويم البلدان : « ويجلب من اقريطش الى اسكندرية الجبن والعسل وغير ذلك » ص ١٩٥ .

أعدت حملة للهجوم على دمياط حتى تقضى على التعاون بينهما[٦٨] ، وقد حدثت هـذه الغارة البيزنطية على دميـاط فى عهـد الوالى عنبسة بن اسحاق الضبى[٦٩] ، يقول الكندى « وفى ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبى النساء والاطفال ونفر كثير من الناس اليهم فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة »[٧٠] .

وكان من أثر هذه الغارة أن أمر الخليفة العباسى المتوكل ببناء حصن دمياط فبدىء فى بنائه يوم الاثنين من شهر رمضان سـنة ٢٣٩ هـ[٧١] .

هذا وقد قامت اقريطش بدور حربى بارز بعد استقرار مهاجرى الاندلس بها وتكوينهم أول امارة لهم . جاءت الفترة الاولى من هذا النشاط بعد وصولهم الى الجزيرة سنة ٢١٢ هـ حتى سنة ٢٣٠ هـ وقد تميزت هذه الفترة بالدفاع ومحاولة استخلاص الجزيرة كلها من أيدى البيزنطيين[٧٢] .

وساعدتهم الظروف التى كانت تمر بها الدولة البيزنطيـة من

---

(٦٨) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠١ .

(٦٩) هو عنبسة بن اسحاق بن شمر بن عيسى الامير ابو حاتم وقيل أبو جابر وهو من اهل هراة ، ولى مصر بعد عزل عبد الواحد بن يحيى عنها ولاه المنتصر محمد بن الخليفة المتوكل على الله فى صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وسكن عنبسة المعسكر على عادة الامراء ، ولما ولى عنبسة مصر أمر العمال برد المظالم وخلص الحقوق وانصف الناس غاية الانصاف وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والاحسان اليهم لما لم يسمع بمثله فى زمانه ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٧٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(٧١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠١ .

(٧٢) ياقوت : معجم البلدان ص ٣١٢ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٥ .

انشغالها بالقضاء على احدى الثورات الخطيرة التى نشبت فى آسيا الصغرى وهى ثورة توماس الصقلبى(٧٣) ، فاضطر الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى ٨٢٠ / ٨٢٩ م الى سحب قواته من أطراف امبراطوريته لدفع الخطــر المحدق بعاصمة الدولة ولم يتمكن من أخماد هذه الثورة الا سنة ٨٢٣ م(*) . فى نفس الوقت الذى استقر فيه مهاجرو الأندلس ونزلوا بأول حصن لهم وهو حصن سودا(٧٤) .

ولم يقف أهل الجزيرة من الفاتحين موقفا عدائيا بل استقبلوهم دون مقاومة مما يدل على أن أوضاعهم فى ظل التبعية البيزنطية كانت حافلة بالاضطراب والمنازعات الدينية(٧٥) .

وفى هذه الفترة أهتم خلفاء العصر العباسى الاول بهذه الجزيرة

---

(٧٣) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦٢٥ ، الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢١٩ .

(*) أومان : الامبراطورية البيزنطية ترجمة د. مصطفى طه بدر ص ١٦٢ ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز توفيق ص ٤٤ ، د. حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١٧٣ .

« حاول المأمون أن يفيد من الفتنة التى تزعمها توماس الصقلى بين سنتى ٨٢١/٨٢٣ م الذى دعا الى خلع الامبراطور ووقوف المأمون الى جانب هذا الثائر وحالفه على أن يمده بقوات تعينه على فتح القسطنطينية ولكن توماس هزم وقتل على أبواب القسطنطينية وأراد ميخائيل الثانى أن يرد هذا الكيد فانتهز فرصة ثورة بابك الخرمى فأعانه على المأمون » ، الطبرى : جـ ٨ ص ٥٥٦ وابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٨٤ وفازلييف : ص ٨٦ و ٩١ و ٩٢ .

(٧٤) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٣ ، فازلييف : العرب والروم ص ٥٧ ، ود. ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٠ ، ود. صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثامن الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ص ٦٤ .

(٧٥) فازلييف : العرب والروم ص ٥٧ ، أومــان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٢ ، ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٠ .

التى ساعدت على عودة نشاط البحرية الاسلامية فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط فى محاولة لايجاد نوع من التوازن مع المغـاربة والاندلسيين الذين آلت اليهم السيطرة على القسم الغربى من البحر لذلك لعبت الجزيرة دورا هاما فى صد هجمـات البيزنطيين وفرض السيادة الاسلامية ، وقد حدث أول صدام بين مسلمى اقريطش وبين البيزنطيين سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م حيث أرسلت الدولة البيزنطية حملة عجزت عن غزو[٧٦] الجزيرة ثم أرسلت الدولة البيزنطية حملة أخرى فشلت أيضا فى اقتحام الجزيرة • وكان من نتـائج الانتصار على البيزنطيين فى هذه الحملات المتكررة أن تخلت الدولة البيزنطية عن مشاريعها لاسترداد الجزيرة ، وكان عليها أن تكرس نشاطها للدفاع عما تبقى لها من جزر فى بحر ايجه وتدفع عنها بأس أساطيل مسلمى اقريطش التى بدأت تفرض سيادتها على الجزر المجاورة لها[٧٧] • وقد أعد الامبراطور ميخائيل حملة ثالثة لاستعادة بعض الجزر الصغيرة التى دخلت فى تبعية جزيرة اقريطش مما أضعف نفوذ البيزنطيين وهيبة أساطيلهم فى شرق البحر الابيض المتوسط[٧٨] •

ثم تتابعت الحملات البيزنطية فى عهد الامبراطور ثيوفيل ٨٢٩ — ٨٤٢ م الذى كان معاصرا للخليفة العباسى المعتصم وقد انتصر الاسطول الاقريطشى على الاسطول البيزنطى قرب جزيرة ثاسوس Thasos سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م ثم وصلت غارات المسلمين القادمة من جزيرة

---

(٧٦) فازلييف : العـرب والروم ص ٨٥ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٢ ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٤٤ .

(٧٧) فازلييف : العرب والروم ص ٨٥ — ٨٦ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسـلمين والبيزنطيين ص ٦٠ .

(٧٨) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٣ ، فازلييف : العرب والروم ص ٨٥ ، د. ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٢ ، اومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٢ ، ابن حوقل : صور ةالارض ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

اقريطش الى سواحل آسيا الصغرى فى سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م[٧٩] .

وقامت الدولة البيزنطية بحملة أخرى على اقريطش سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م فى محاولة لاستردادها ولكنها فشلت وأستولى مسلمو أقريطش على هذا الاسطول الذى بلغ حوالى مائة سفينة[٨٠] .

وقد ظلت هذه القوة الاسلامية النامية تهدد الوجود البيزنطى فى البحر المتوسط بل هددت القسطنطينية نفسها[٨١] ، وبعد فشل الحملات الكثيرة التى أرسلتها الدولة البيزنطية ضد مسلمى اقريطش انتقلت خطتهم من الدفاع الى الهجوم وكان ذلك فى ولاية الامير شعيب بن عمر بن عيسى المعروف بابن الغليظ الذى تولى أمر اقريطش بعد وفاة أبيه فى سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م[٨٢] .

وهكذا أصبح الاقريطشيون يلعبون دورا هاما ليس فى الدفاع عن أنفسهم فحسب وانما أصبحوا قوة كبيرة تخشاها الامبراطورية البيزنطية . وقد أدرك الأباطرة البيزنطيون أن مصر كانت القاعدة الرئيسية[٨٣] التى ساندت مسلمى اقريطش فى هذا المجال بتأييد من الخلافة العباسية التى شجعت هذا النشاط البحرى الاسلامى لاضعاف قوة البيزنطيين فى الجبهة الشرقية الممتدة من شمال الجزيرة والشام

---

(٧٩) فازلييف : العرب والروم ص ٨٦ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٤ ، د. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٤٢ ، ٤٣ ، ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦١ .

(٨٠) فازلييف : العرب والروم ص ٨٦ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢١٧ — ٢٢٣ .

(٨٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٤ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢١٧ — ٢٢٣ ، د. ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٣ .

(٨٢) ياقوت : معجم البلدان : ص ٣١٢ ، زامباور : معجم الانساب ص ١٠٩ ، دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ٤٦٧ .

(٨٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠١ — ٢٠٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٤ .

وأرض الدولة البيزنطية فى جنوب آسيا الصغرى فأرسلت الدولة البيزنطية الحملة السابق ذكرها على دمياط لمنع هذا التعاون بين مصر واقريطش حتى تحد من قوة مسلمى هذه الجزيرة[٨٤] .

ولكن الغارة التى تمت فى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م على دمياط كان لها أثر بعيد المدى فى بعث النشاط البحرى الاسلامى من جديد ، وضح ذلك من تدعيم مصر لأسطولها فى المناطق المطلة على البحر المتوسط وشحنت الثغور بالرجال والعتاد[٨٥] والمؤن ووقفت مصر بالمرصاد لأية محاولة من جانب الدولة البيزنطية[٨٦] . وقد أدى هذا الى استئناف النشاط البحرى لاقريطش على أراضى الدولة البيزنطية فهوجمت جزيرة سيكلاديس Cyclades وشواطىء آسيا الصغرى[٨٧] وعادوا بغنائم كثيرة وفى سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م أغاروا على جزيرة

---

(٨٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٨ ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ .

(٨٥) يبدو ان نتيجة لهذه الانتصارات التى حققها أمراء اقريطش اضطرت الدولة البيزنطية الى القيام بغارة أخرى على دلتا النيل عام ٢٤٥ هـ » ٨٥٩ م مما كان له اثر بالغ على اقريطش فقد انصرف أهل كريت عن ازعاج الاراضى البيزنطية حتى عام ٨٦٢ م ويعطى لنا الكندى تفاصيل هذه الغارة فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى « وخرج يزيد بن عبد الله الى دمياط فى المحرم سنة خمس واربعين ومائتين مرابطا ورجع الى الفسطاط فى ربيع الأول فلما كان بينها بلغه أن الروم نزلوا الفرما فرجع فى جيشه فلم يلقهم » الكندى ص ٢٠٣ وارشيبالد ص ٢٢٣ . وفازلييف : العرب والروم ص ١٩٢ .

(٨٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، وفازلييف : العرب والروم ص ١٩٢ .

(٨٧) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٣ ، فازلييف : العرب والروم ص ٢٢٦ ، د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٢ ، د. ابراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٥ .

ميتلين[٨٨] وكان الهدف من وراء هذه الحملات الاسلامية القضاء على مراكز تجمع الجنود البيزنطيين الموجودة فى قواعد سواحل آسيا الصغرى وكان الاسطول البيزنطى يحملهم من هناك لمهاجمة جزيرة اقريطش[٨٩] .

وهاجم أيضا مسلمو اقريطش جزيرة نيون سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م وأقاموا عليها قاعدة شبه دائمة ، للحد من نشاط الاساطيل البيزنطية فى جزر بحر ايجه ، مما أزعج الامبراطورية البيزنطية وأصبحت هذه الاساطيل الاسلامية مثار فزع لهم[٩٠] .

كان من الطبيعى أن يعمل أباطرة الاسرة المقدونية على حماية الجزر اليونانية منذ عهد الامبراطور باسيل الأول سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م اذ عمل على الاهتمام بالاساطيل[٩١] وتدعيم قوتها حتى يستطيعوا الوقوف فى وجه الاسطول الاسلامى فى اقريطش ، وقد استمر أهلها فى نشاطهم برغم محاولات البيزنطيين الفاشلة فى التصدى لهم ، وقد أضحى بقاء الدولة البيزنطية رهينا بتفوقهم البحرى على المسلمين[٩٢]

---

(٨٨) فازلييف : العرب والروم ص ٢٢٦ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢٢٣ ، د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ص ٤٣ ، د. ابراهيم أحمد العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٥ .

(٨٩) فازلييف : العرب والروم ص ٢٢٦ ، د. ابراهيم أحمد العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ص ٦٥ ، د. أحمد مختار العبادى : و د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٧ .

(٩٠) ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢٢٣ ، فازلييف : العرب والروم ص ٢٢٦ ، د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٤٣ .

(٩١) **ستيفن رنسيمان** : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٦ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٦٤ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢١٨ — ٢٢٣ .

(٩٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٠ ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٤٦ .

فعملت على اصلاح الاوضاع الداخلية أولا وقد وضح ذلك فى عهـد الامبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٥٩ ــ ٩٦٣ م ، اذ جعل استرداد اقريطش[٩٣] شغله الشاغل وأهم اهدافه فضرب حصارا حول الجزيرة ليمنع عنها وصول الامدادات تحت قيادة القائد نيقيفورس فوقاس[٩٤] ، وكان أمير اقريطش فى ذلك الوقت عبد العزيز بن شعيب وقد ظل القائد فوقاس يحاصر الجزيرة عدة أشهر حتى نجح فى القبض على عبد العزيز بن شعيب أخر امراء الجزيرة واستولى على العاصـمة « الخندق »[٩٥] . ويعطينا ياقوت الحموى صورة واضحة عن ذلك بقوله « وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها نقفور بن الفقاس الدمستق فى خلافة المطيع[٩٦] وتملك ارمانوس ابن قسطنطين فى آخـر جمادى سنة ٣٤٩ هـ[٩٧] ، فى اثنين وسبعين ألفا منهم خمسة آلاف فارس ولم يزل محاصرا لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع فى نصف المحرم سنة ٣٥٠ هـ فقتل ونهب وسبا وأخذ

---

(٩٣) د. أحمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية البيزنطية ص ٤٧ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢٩٦ ، فازلييف : العرب والروم ص ٦٠ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٧٢ .

(٩٤) كان القـائد البيزنطى نيقيفوروس فوقاس حفيـد نيقيفوروس قائد الامبراطور باسيل « باسيليوس الاول » وعندما توفى الامبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ م تاركا ولدين صغيرين هما باسيليوس الثانى وقسطنطين الثامن ، تزوجت أرملته الوصية المؤقتة الامبراطورة ثيوفانو من نيقيفوروس فوقاس فاستولى على التاج وأصبح امبراطورا ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٩٥) ياقوت : معجم البلدان ، ص ٣١٢ .

(٩٦) هو الخليفة العباسى أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر تولى فى ١٢ جمادى الاخرة سنة ٣٣٤ حتى ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ ــ ٩٧٣ م .

(٩٧) هو الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى بن قسطنطين .
الامبراطور قسطنطين السابع تولى من ٩٤٥ ــ ٩٥٩ م / ٣٣٤ هـ ــ ٣٤٨ هـ وابنه تولى من ٩٥٩ ــ ٩٦٣ م / ٣٤٨ هـ ــ ٣٥٢ هـ .

صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبى حفص عمر بن عيسى الاندلسى وأمواله وبنى عمه وحمل ذلك كله الى القسطنطينية وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبى أهلها نحو من ثلثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة وألقوها فى الميناء الذى دخلت مراكبهم فيه لئلا يدخل فيه بعدهم عدو وهى التى الآن بيد الافرنج »[٩٨] .

وبدخول البيزنطيين اقريطش والاستيلاء عليها[٩٩] والقبض على أخر امرائها ينتهى دورها الفعال الذى لعبته طوال قرن ونصف من الزمان وأقلقت بال الامبراطورية البيزنطية وحدت من وجودها فى البحر المتوسط شرقه ووسطه . وقد توفى عبد العزيز بن عيسى أخر امرائها من المسلمين فى القسطنطينية ودخل ابنه ويدعى انيماس Anemas فى طاعة امبراطور الروم[١٠٠] .

وكان ضياع اقريطش له أثر بعيد على العالم الاسلامى وخاصة فى مصر أيام الدولة الاخشيدية وفى عهد كافور الذى أسرع بتدعيم قواته البحرية ببناء سفن جديدة لمواجهة أى هجوم بيزنطى على مصر ، وفعلا كان الخوف فى محله عندما ظهرت السفن البيزنطية عند الفرما وأثناء عودة هذا الاسطول سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م استطاع القضاء على اسطول مصرى قوامه ٣٦ سفينة بالقرب من شواطىء قبرص[١٠١] .

---

(٩٨) ياقوت الحموى : معجم البلدان ص ٣١١ .

(٩٩) مما يدل على مدى الضعف الذى أصاب مسلمى اقريطش كريت وساعد على زوال دولتهم فيقول ابن حوقل « ما دخل أهلها من الحسد والنكد وما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية واهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعناد والغيلة فجعلوا عبرة للمعتبرين وموعظة للناظرين » ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٤ و ٢٠٥ .

(١٠٠) ياقوت : معجم البلدان ص ٣١٢ ، زامباور : معجم الانساب ص ١٠٩ ، دائرة المعارف الاسلامية : المجلد الاول ص ٤٦٧ مأخوذة من الاصل الانجليزى والفرنسى .

(١٠١) ارشيبالد لويس تاريخ القوى :البحرية ص ٢٩٣ .

واستطاعت بيزنطة استرجاع قبرص كما استطاع الاسطول البيزنطى فى عهد الامبراطور نقفور فوكاس الاستيلاء على طرسوس سنة ٩٦٥ وضم هذا الموقع البحرى الهام الى ممتلكات الامبراطورية البيزنطية مما ساعد على عودة النشاط البحرى البيزنطى فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط لفترة قصيرة[١٠٢] .

---

(١٠٢) د. احمد مختار العبادى ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ٤٤ ، ارشيبالد لويس : تاريخ القوى البحرية ص ٢٩٣ .

الموريسيكيون

تاريخهم وآدابهم

دكتور / جمال عبد الكريم
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مقدمة

نستعرض فى هذا البحث تاريخ المورسكيين وآدابهم فى فترة تمثل مرحلة هامة من آخر مراحل التاريخ الاندلسى (الاخير) والتى تنتهى بمأساة المدجنيين وطرد الموريسكيين بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ . وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية قبل وبعد قرار طردهم من أسبانيا نهائيا الصادر فى سنة ١٦١٠ ، والنتائج التى ترتبت عليه بعد خروجهم ، ومعاملة السلطات الكاثوليكية لباقى المسلمين الذين ظلوا فى الاندلس يعاملون بقسوة وبأبشع الاساليب والطرق للقضاء على البقية الباقية من الامة الاسلامية فى الاندلس . وتشتمل هذه الدراسة على قسمين ، القسم الاول : « تاريخ الموريسكيين » وتدوين الاحداث والوقائع التاريخية معتمدين فى هذه الدراسة على المراجع الاوربية والعربية التى تتناول قضية الموريسكيين باعتبارها قضية شعب تحالفت ضده كل القوى العنصرية والدينية لابادته . وقد تعرضنا فيها لاقوال المؤرخين والكتاب والادباء لهذه الفترة وأحوال الجماعات الاسلامية فى الاندلس واكتفينا فى هذا القسم بعرض الموضوع عرضا تاريخيا شاملا جوانب متعددة من البحث . أما القسم الثانى ، فيختص « بأدب الموريسكيين » الذى أجمعت الآراء على قيمته التاريخية والاجتماعية ، وأوضحت مدى أهميته وتأثيره على الادب الاوربى بصفة عامة والادب الاسبانى بصفة خاصة .

القسم الاول : تاريخ الموريسكيين

يقول خورخي جيين الاديب الاسباني الشهير :

« يجب أن نستفيد من معرفتنا للأحداث والوقائع التاريخية كي لا نكرر أخطاء الماضي وهذا في حد ذاته يجعل الانسان مدركا لاحدى ماهيات وجوده الاساسية ألا وهي « الامل » وهنا يكمن الدور الاجتماعي الهام للتاريخ ... » .

من هم الموريسكيون ؟

جرت العادة عى أن يفرق المؤرخون ما بين كلمة أو مصطلح مدجن Mudejar [1] وبين موريسكي Morisco [2] ، وعلى الاخص

---

(١) كلمة مدجن Mudéjar تطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت حكم المسيحيين الذين فتحوا واستردوا كثيرا من الاراضي الاندلسية وسائر القواعد الاسلامية في اواخر القرن الرابع عشر . شاع استخدام هذا اللفظ بالاندلس منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . وكان تسامح المسيحيين في أول الأمر مع المدجنين أمر معترف به حيث كانوا يتمتعون بكل حقوقهم الشرعية المدنية والدينية ، وذلك ليخففوا عنهم وطأة اذلالهم وهزيمتهم وانسلاخهم عن مجتمعهم القديم وانتمائهم الى المجتمع المسيحي ، وتمتعوا أيضا بامتيازات كثيرة ، ولكن تبدل الحال منذ أن اتسعت الفتوحات المسيحية في أراضي الاندلس وزاد عدد المدجنين في مختلف المناطق المفتوحة وكانت الكنيسة تحقد عليهم وتبغضهم ، ونادت بالانتقام وعدم التسامح معهم وتحديهم وحرضوا الملوك الكاثوليك على مطاردتهم واتباع سياسة العنف والانتقام واسترقاقهم أو تنصيرهم ، هذا ما حدث في سنة ١٢٩٨ ، ولكن لم يستجب الملوك الكاثوليك في بادىء الامر لهذا النداء حرصا على مصالحهم ولأسباب أخرى تتعلق بكفاءة المدجنين واعتبارهم افضل العناصر وانشطها واكثرهم دأبا ومثابرة ولتفوقهم في جميع ميادين الحياة ، وتشهد أعمالهم ومشاريعهم التي انشاؤها في الاندلس بعبقريتهم وذكائهم وضربوا المثل في البراعة والنزاهة والامانة والنظام .

انظر :

J. Corominas : Diccionario critico etimológico de la lengua Castellana, Madrid, 1954, p. 723 — 724.

(٢) تعني كلمة موريسكي Morisco المسيحي الجديد ، أي المدجن =

فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى ، أى فى سنة ١٥٢٦ م تقريبا ، الذى يسجل حادثة ارغام المدجنين الذين فضلوا وآثروا البقاء فى أراضيهم خاضعين لحكم المسيحيين . وابتداء من هذا التاريخ يتحول كل ما هو مدجن الى موريسكى ؛ وهى تسمية فى حد ذاتها تثير شيئا من الخلط والتشويش على كلمة « مسلم » وهذا ما حدث فعلا فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وهذا يعتبر كارثة دينية لمسلمى الاندلس . وقد كان من المعروف أن المسيحى والمسلم قبل ٢ يناير سنة ١٤٩٢ م

= الذى تنصر عنوة دون رغبة ودخل الديانة المسيحية ، ولم يستخدم كلا المصطلحين الا بعد سنة ١٥٠٠ م ، وقد تم استخدام هذا التعبير وخصوصا بعد دخول المدجنيين الدين المسيحى وخضعوا وعاشوا تحت حكم المسحيين ، ولذلك سموا فيما بعد بالموريسكيين بدلا من المدجنيين ، وهو اسم اطلق على المدجنيين أو المسلمين أو العرب الاسبان بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م . وكلمة موريسكى تصغير لكلمة مسلم أو مورو Moro وعنوا بذلك الأصاغر وهى تسمية غير دقيقة ، كناية عن سقوط الامة الاندلسية وانحلالها.

انظر مقالة د. محمد حسن ابراهيم العمرى فى مجلة الدراسات الشرقية ، العدد السادس سنة ١٩٨٨ صفحة ٣١٠ « محنة الموريسكيين الاندلسية » وثيقة ادبية وسند تاريخى .

ويقول خوليو كارو باروخا ، ان المصطلح مشتق من اللاتينية Mauriscus أو Mauriskus وهناك ايضا مصطلح فى اليونانية العامية يحمل هذا المعنى وهو Mauriscus ، ويستخدم فى تعريف المسلمين Mauro ونحن نعرف أن كلمة موروس Moros اى مسلم الذى يطلق فى بعض النصوص الاسبانية على عرب أسبانيا او مسلمى الاندلس والمغرب ، او على المسلمين عامة . أما عن كلمة موريسكى فقد استخدمت لأول مرة كمصطلح وكلمة وتعبير عن هذا المجتمع الباقى من المسلمين فى ٢ سبتمبر ١٥٢٣ م ، وليس هذا أن هذه الكلمة لم تعرف وتستخدم قبل هذا التاريخ ، فقد استخدمه المجلس البلدى لمحافظة بياسة عندما أصدر أوامره للحانات والبارات والفنادق بتقديم النبيذ الى الموريسكيين . واستخدم هذا المصطلح سنة ١٥٠٠ « كصفة » لتحديد شرعية وقانون وحقوق المسلمين فى وثيقة تحت بند « احتفالات الموريسكيين » وبعدها تحول هذا المصطلح من صفة الى اسم عندما اعتبر على انه ليس لدلالته الدينية فحسب ، بل هو أشمل من هذا . =

يعاملان بالمثل دون تفرقة باعتبارهما سكان البلاد من العرب الاسبان المسلمين والاسبان المسيحيين[٣] . ولكن ابتداء من هذا التاريخ أى منذ سقوط غرناطة وتسليمها الى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيللا

فهى تسمية لحضارة وثقافة مختلفة تماما عن ثقافة المسيحيين ، وتطورت هذه الكلمة وسموا بها المسلمين المتنصرين والمسيحيين الجدد . واستخدموا كلا منهما حتى سنة ١٥٦٠ ، واستخدم ايضا هذا المصطلح Morisco ، عندما ثار الغرناطيون ضد المسيحيين . هذا على المستوى الرسمى ، اما على المستوى الشعبى ، فهذا المصطلح قد استخدم لأن كلمة مسيحى جديد لم تكن كافية لتؤدى المعنى وتحدد الاختلاف والفروق بينه وبين المسيحى القديم . والموريسكيون هم نفس المدجنون الذين تنصروا ولكن اسما فقط وليس قلبا وقالبا .

انظر :

Bernard Vincenti, Historia de Andalucia, ed. Planeta y Morisco, Ha. 16, no. 18.

Mercedes Garcia - Arenal **Inquisición y Moriscos,** p. 9. nota 4 Caro Baroja : **Los Moriscos. del Reino de Granada**, ed. ISIMO. Madrid, 1976.

(٣) كان العرب الاسبان المسلمون (الاندلسيون) والاسبان المسيحيون يعيشون معا منذ فتح ودخول العرب اسبانيا سنة ٧١١ حتى القرن الثالث عشر عندما بدات حروب الاسترداد المسيحى وغزو الأراضى التى كانت تخضع للمسلمين . واخيرا سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ م وتحول المسلمون الى « مدجنين » خاضعين لحكم المسيحيين ، وعوملوا فى بادىء الامر معاملة حسنة حتى قرار طردهم وتأسيس محاكم التنكيل . ونجح النبلاء والاقطاعيون فى حمايتهم والدفاع عنهم حرصا على مصالحهم الخاصة ، واستمروا فى رعايتهم مؤقتا ولفترة حتى سنة ١٥٦٦ م ، كان المدجنون الذين اطلقوا عليهم فيما بعد بالموريسكيين فى تلك المناطق يمارسون عقائدهم الدينية فى سرية تامة ، بل استمروا فى استخدام زيهم الاسلامى وكانوا يتحدثون العربية ويخضعون لقوانينهم الدينية التى عرفت بقانون وشريعة المسلمين .

انظر :

Ice Gebir, Alfaqui mayor y Mufti de la aljama de Segovia : Tratado de la legislaciòn musulmana, « Leyes de Dios del Siglo XIV. 2o » Suma de los principios, mandamientos y devedamientos de la ley y le çunna. Ano 1462.

أصبح المسلم فى أى مكان من أسبانيا يعــامل معاملة سيئة ، معاملة المهزوم ، وبدأ يفقد حقوقه تدريجيا وخصوصا كلما قويت شــوكة المسيحيين وغزوهم لمعظم الاراضى التى كانت تخضع لحكم المسلمين[٤] . حتى انهم لم يضعوا فى الاعتبار هذه الاقلية الاسلامية ولم يعترفوا بحق وجودهم فى البلاد بالرغم من أن كلا من الجماعتين الاسلامية والمسيحية تعايشتا خلال هذه القرون الطويلة منذ فتح الاندلس حتى تاريخ طردهم . بدأ كل هذا ينهار مرة واحدة ، وقضت تلك المعاملة على روح التسامح والود اللتين كانتا تسودان المجتمع الاندلسى ، وقل تدريجيا هذا الاحساس ، حتى اتسم بالعنف والكره من جانب الجماعات المسيحية ، فنجد مثلا أن المجلس البلدى بمدينة غرناطة ١٤٩٢ كان يتزعم الحركة فيه أفــراد من كلتى الجماعتين ويديرون معا شئون الاقليم[٥] . نجد بعدها أنه فى ٣ من أكتوبر سنة ١٤٩٧ لم يكن هذا المجلس يمثل من قبل المسلمين واقتصر فقط على المسيحيين ، ومن هنا كما أشرنا بدأ يسود حكم القوى على الضعيف ولم يسمح للمسلمين

---

(٤) سقطت قواعد الاندلس الشهيرة واحدة تلو الاخرى نتيجة للتطاحن والتشاحن بين زعماء وقيادات الامة الاندلسية ومنذ انهيار الخلافة الاموية فى القرن العاشر الميلادى وقيام دول الطوائف المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة ، وكانت ضربة قاسية للدولة الاسلامية فى الاندلس ، وهرع معظم السكان المسلمين الى تلك القواعد الاسلامية الباقية حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين التى استمر فيها الحكم على أيدى خلفائها بنى نصر خلال اكثر من مائتى ونصف عام ، سقطت ايضا غرناطة فريسة للنصارى وبعد نهاية الدولة الاسلامية فى الاندلس استولى الاسبان الكاثوليك على غرناطة ١٤٩٢ ، وابرمت معاهدة بين المسلمين والاسبان الكاثوليك قضت بتسليم غرناطة ، حسب شروط وافق عليها الملكان الكاثوليكيان وتعهدوا بها ، أقسموا بدينهم وبشرفهم على رعايتها الى الأبد .

انظر بنود هذه الشروط المكونة من ٥٦ مادة من كتاب محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس . وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٩٦٦ ، صفحة ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٢٠ .

(٥) انظر نفس المصدر السابق .

بالادارة وتدبير شئون الحكم فى البــلاد فى هــذه الفترة ، لدرجة أن السلطات الكاثوليكية حرمته ــ فى هذه الفترة ــ المدجنين من شراء وامتلاك الاراضى بغرض تعميرها بالعناصر المسيحية ورغبــة فى طرد المسلمين من المجتمــع الاندلسى وتقويض ممتلكاتهم ، بل تمادى فى ذلك المــلوك الكاثوليك ففرضوا الضرائب الباهظــة على المدجنــين ســنة ١٤٩٥ و ١٤٩٩[٦] ميــلادية . ومن هنا فقــد كانت حيــاة وتعايش المسلمين مع المسيحيين صعبة[٧] بل كادت أن تكون مستحيلة ، ولذلك نجد أنه فى ١٨ ديسمبر سنة ١٤٩٩ ، ثار مدجنى البياســين بغرناطة كرد فعل على انتهاك حرياتهم واجبارهم على التنصر عنفا ، بأمر الكاردينال ثيسنيرو Cardnal Cisneros ثم حاول ممثل أسقف غرناطة فراى ايرنانــدو دى طلبيرة Fray Hernando de Talavera

---

(٦) يقول لاديرو كيسادا انه خلال القرن الثالث عشر حتى الخامس عشر الميلادى ، وهاجر وتدفق كثير من المدجنين الى مملكة غرناطة ، بالرغم من محاولة منعهم من الهروب الجماعى ، نتيجة لفقدان حقوقهم وسلب حرياتهم وكل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد تمادى المسيحيون فى فرض الحصار عليهم واجبارهم على دفع الضرائب الباهظة الغير مبررة .

انظر ما كتبه فى هذا الموضوع المؤرخ الاسبانى لاديرو كيسادا :

M. A. Ladero Quesada : los Mudéjares de Castilla, en tiempos de Isabel I, Valladolid, 1964. 57 — 58.

(٧) وصف انطونيو دومنجث اورتيس وبرناند بيثنت العلاقات بين المجتمع المسيحى والموريسكى بانها « مأساة » ، وان التعايش والحيــاة معا اصبح مستحيلا من الفترة ١٥٠١ ــ ١٥٧١ (بين المسيحيين الجــدد والقدامى) بل زاد من هذا احساسهم ومشاعرهم التى يســودها الكره والحقد والخوف فى حياتهم اليومية .

انظر الفصل السابع الذى تعرض فيه لهذا الموضوع بالتفصيل تحت عنــوان :

« التعايش الصعب والمستحيل »

Antonio Dominguez Ortiz y Bernard Vincent : **Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoria,** ed. Alianza Universidad. Madrid, 1984. Pags. 129 — 155. y Nicolas Carbrillana, **Almeria Morisca,** Colección Monográfica, no 76 Universidad de Granada, 1982, Pag. 15.

أن يتدخل ويهدأ من ثورتهم ويأمرهم بالقاء السلاح خلال أيام مقابل العفو عنهم بشرط الدخول فى الديانة المسيحية .

يبدأ تاريخ الموريسكيين منذ سقوط غرناطة ، آخر معاقل المسلمين الاسبان الاندلسيين الذين أقاموا فى قصر الحمراء حتى آخر القرن الخامس عشر الميلادى (١٢٣٥ — ١٤٩١) ، أى ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان وخصوصا بعد أن اضمحلت قوة الموحدين فى أسبانيا سنة ١٢٣٨ م واستيلاء محمد بن الاحمر على غرناطة واتخاذها عاصمة لملكته وللمسلمين فى الاندلس[٨] ولهذا فهو مؤسس الاسرة النصرية (بنو نصر) ، التى كانت تضم كل من جيان ووادى آش وباجة والمرية وغرناطة العاصمة .

ضعفت غرناطة بعد محمد الغنى بالله وتعاقب على العرش ملوك ضعفاء ، دبت بينهما الخلافات وقامت الحروب والفتن الداخلية ووقعت غرناطة كمثيلاتها من العواصم الاندلسية من قبــل فريسة للحروب الاهلية ، وخسر المسلمون معارك كثيرة ومواقع هامة أدت الى تقويض مملكتهم واقتصرت سيطرتهم فقط على مدينة غرناطة ووادى اش وما حولها . وزاد من ضعفهم انهيار غرناطة أيام أبى الحجاج يوسف الثانى . وانتهز هذه الفرصة ملك قشتالة مستفيدا من هذا الموقف ليشن هجماته ويستولى على مدينة الزهراء المجاورة لغرناطة سنة ١٤١٧ م لمحاصرتها وأخيرا فى سنة ١٤٧٩ م تحالف كل من الملك فرناندو الرابع ملك أراغون والملكة ايزابيلا الثانية ملكة قشتالة وتعهدا بالقضاء على ما بقى من المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية . وفى نهاية سنة ١٤٨٢ م تولى عرش غرناطة أبى عبد الله المعروف فى تاريخ أسبانيا ولدى الكتاب الغربيين والمؤرخين الاسبان باسم بوابديل Boabdil الملك الضعيف

(٨) استولى محمد بن الاحمر على غرناطة فى ابريل ١٢٣٨ واصبحت غرناطة حاضرته ومقر حكمه بعد وفاة ابن هود .

انظر : عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٩٦١ ، صفحة ٤٠ .

الذى لم يستطع أن يحسم المواقف وينهى النزاع بينه وبين عمه أبى عبد الله محمد بن سعد • واستغل فرناندو هذا الخلاف لصالحه وقرر وايزابيلا السيطرة على مملكة غرناطة • وفى النهـاية عقد أبو عبد الله معاهدة لتسليم المدينة الى الملكين الكاثوليكيين فى نوفمبر من عام ١٤٩١ م ودخل الملكان مدينة غرناطة فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ م • وقد اعتبر هذا الحدث حاسما فى تاريخ الامة الاسلامية وفى تاريخ الغرب ويذكرنا أيضا بطرد الموريسكيين[٩] وأحداث تاريخية أخرى هامة •

وقد كانت هذه الفترة تمثل مأساة حقيقية لا نظير لها ، آلا وهى استسلام المسلمين بغرناطة وتسليمها للاسبان الكاثوليك وفق شروط نصت عليها المعاهدة التى وقعها المسلمون والاسبان • ولكن لم يمض الا قليل حتى نقض الاسبان هذه الاتفاقية المتفق عليها بعد استيلائهم على غرناطة واخضاعها تماما وبدأوا فى اضـطهاد مسـلمى غرناطة المدجنين[١٠] الذين عاشوا تحت حكم النصارى • وبالرغم من احتجاج

---

(٩) أوضح كل من انطونيو دومنجث وبرنارد بيثنت النتائج الاقتصادية التى ترتبت على طرد الموريسكيين من ديارهم سنة ١٦٠٩ ، وافردوا لها فصلا خاصا مشيرين الى غموض هذا القرار ، موضحين انه من بين هذه الاسباب ، الدينية وهى فى المقام الاول نتيجـة للتعصب الدينى الاعمى • راجع كتـاب : Ortiz y Vincent : Los Moriscos, p. 117 — 223.

(١٠) كثرت الدراسات والابحاث وشغلت الباحثين والمستشرقين من الشباب عن هذه القضية التى تؤرق الضمير الاسبانى اليوم ، بل وتعددت الآراء حول الموضوع وتضاربت الاقوال حول تقييم دور المورسكيين فى اسبانيا والنتائج التى ترتبت على طردهم وكيفية معالجة قضاياهم وثقافتهم ولغتهم • انظـر :

Alvaro Galmes de Fuentes : **El libro de los batallas** (Narraciones caballeriscas aljamiadas o Moriscos), Oviedo, 1967, **Historia de los amores de paris y viena** (Madrid, 1976).

ودراسـات اخرى اهمها التى قام بها هارفى وباتيجس

L. P. Harvey : « The literary culture of Moriscos », the morisco who was Muley Zaidan's spanish Interpretor, en Miscelanéa de E. A. y Hebràicos, VIII, (Granada, 1959). Pags. 67 — 97. y Yuste Banegas. « Un moro noble en Granada bajo los Reyes Catòlicos ». en Al-Andalus. XXI (1956), Pags. 297 — 302.

المسلمين وتمردهم وقيامهم بثورات متتالية ضد الارهاب والاضطهاد المقيت التى اتبعتها الكنيسة والسلطات الاسبانية الا أن الامر انتهى بطرد بقايا المسلمين المويسكيين من الاندلس نهائيا سنة ١٦٠٩ م فى عهد الملك فيليب الرابع[١١] .

وتاريخ المويسكين الاندلسيين حافل بالاحداث المروعة الدامية التى استهدفت القضاء على شعب بأكمله ولا يتسع المجال ولا الوقت هنا للقيام بدراسة مفصلة وتحليلية لتاريخهم الطويل المضنى . وقد تصدت لهذا الموضوع فى الوقت الحاضر الدراسات الحديثة ، وتعددت كتابات الغربيين وبخاصة الاسبان منهم بعد أن كان محظورا عليهم تناول هذه القضية والكلام عنهم وعن أخبارهم حتى ولو بالاشارة[١٢] ، وتناول الحديث عنهـم وذكر أخبارهم ودراسـتهم بعض المؤرخين والكتـاب الشرقيين فأثروا المكتبـة العربية بمزيد من المعـرفة عن أحوالهم وقضاياهم[١٣] .

---

(١١) انظـر :

المقـرى : ازهار الرياض . الجزء الاول ، ص ٦٨ — ٧٠ ، عام ١٩٧٨ .

(١٢) فى رأينا ان اهم الدراسات والابحاث التى تناولت موضـوع المورسكيين ككل ، هى التى قام بها خوليو كارو باروخا الكاتب الاسبانى والتى تعرض فيها لكل المشكلة من البداية حتى طردهم مع تحليل لكل المواقف ، كما تضـمن كتابه قائمة بيليوجرافية شاملة ومتنوعة تعـالج القضية من جميع زواياها ، وهى دراسة تحليلية دقيقة وموضوعية فى نفس الوقت والتى تعتبر من اهم المصادر والمراجع التى يعتمد عليها فى هذا اجال . وقد وصف بروديل كتابه على انه افضل واحسن ما الف من كتب التأريخ وفى الانثربولوجيا الثقافية حتى هذه اللحظة .

انظـر : Caro Baroja, Los moriscos. Madrid (1970).

Brudel Fernand : **La Meditehranée et le monde mediterranieén** a l' epoque de philippe II, Armand Colin, México 1953.

(١٣) ونشـير الى أن دومينجث أورتيس تناول موضـوع المويسـكيين =

أحوال الموريسكيين بعد سقوط غرناطة :

بالرغم من تفويض الحكم و لسيادة فى الاندلس وسقوط غرناطة فى شبه الجزيرة الايبيرية واستيلاء فرناندو وايزابيلا عليها ، ظلت جماعات كبيرة من المسلمين المدجنين والموريسكيين فى البلاد • ولم يكن سقوط الدولة الاسلامية فى الاندلس ســوى بداية للوجود العربى الاسلامى حتى أواخر القرن السادس عشر . دفع الموريسكيون ثمنها وتحملوا مسئولية الهزيمة والانهيار بعد أكثر من ثمان قرون طويلة وقاسية ، عانت منها هذه الجماعات الاسلامية الكثير عقب نقض الملكين الكاثولكين الاســبان للعهــود والمواثيق التى نصــت عليها معاهدة التســليم(١٤) ، وأخذا بنصيحة رجــال الكنيســة وضعت خطــة

=

جزئيا وكليا فى دراسات متعددة وابحاث مختلفة تتعلق بأصولهم واحوالهم وثقافتهم وقضاياهم :

Dominguez Ortiz : **Crisis y decadencia de Espana de Ios Austrias (Madrid, 1969) y el antiguo regimen : Los R**eyes Catòlicos y los Austrias en « Historia de Espana, Alfaguara » III (Madrid, 1974).

تعتبر هذه الدراسة التى قام بها دومنيجث من اهم الدراسات التى تناولت الموريسكيون فى غرناطة ومشاكلهم قبل قرار طردهم نهائيا من الاندلس :

Los Moriscos granadinos antes de su difinitiva expulsiòn, en Miscelanea. de Estudios àrabes y Hebràicos, XII — XIII, fasc. I. (1963 — 1964), Pags. 133 — 128.

واخــيرا :

« **Notas para una Sociologia de los moriscos espanoles** » en la misma miscelanea, XI, fasc. I, (1962), Pags 39 — 45.

(١٤) فى هذه المعاهدة تهد الملكان الكاثوليكيان فى ٢٩ نوفمبر ١٤٩٢ م وأقسموا على احترام هذا الميثاق وان يكفل لجميع المسلمين حقوقهم وان يكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى اراضيهم أو حيث شاءوا وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا وان يسمح لمن شاء بالهجرة الى المغرب ولكن ملكى قشتالة نقضا وخانا عهدهما بعد تسليم المدينة فى الثانى من

=

لابادة المسلمين المتبقيين بالبلاد بشكل جماعى على الرغم من قسوة قوانين الاضطهاد التى طبقتها الكنيسة الكاثوليكية ضدهم بغرض تصفيتهم من خلال محاكم التنكيل والتعذيب La Inquisición [(١٥)] ، حيث تعرضوا فيهما لاقصى أنواع الظلم

=

يناير سنة ١٤٩٢ م . ويرى عبد الله عنان أن عهد التسليم وقع فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م ،الذى يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمى فى أيدى النصارى ، وتعددت الآراء والروايات حول هذه التواريخ .

انظــر :

محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٩٦٦ .

(١٥) هناك رؤية جديدة أيضا عن محاكم التنكيل والتعذيب الاسبانية التى اقامتها السلطات الاسبانية الموريسكيين فى كوكنة والمريا وغيرها من المدن الاسبانية الشهيرة .

هذه الدراسة تسير فى نفس النهج الذى بداه جيان بير عن الموريسكيين فى قشتالة الجديدة ، دراسات يتضمنها الجزء الخاص الذى نشره كارديلاك تحت عنوان « التنكيل والموريسكيون » ودراسة اخرى **لارسيندو رفير عن الموريسكيين فى طليطلة** وهو اجرا عمل نقدى عن محاكم التنكيل فى أسبانيا الذى قام بنشره فى باريس خوان أنطونيو يورنيتى سنة ١٨١٧ — ١٨١٨ م . ثم نشر بعد ذلك فى مدريد سنة ١٨٢٢ م . ونظرا لأهمية هـذا العمـل فقد ترجم الى كل اللغات الحديثة وبدات تظهر طبعات منها فى كل أنحاء العالم . وتعتبر من أعظم المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع ، حيث عرض وجهة نظره ، معتمدا على النصوص والمراجع والمصادر المباشرة من واقع الوثائق ، وهو أيضا مرجع هام وأساسى لأى دراسة من هذا النوع يستفيد منه الدارسون والباحثون باعتباره أول محاولة جدية ونقدية . وتعتبر هذه الطبعة الجديدة شاملة حيث استكملت وزودت ببعض الصـور الحقيقية والمشاهد البشعة التى تجعلنا نقف على أهم أحداث هذه المحاكم والجرائم التى ارتكبتها السلطات ضد الانسانية من تنكيل وتعذيب وقتل واعدام . وخوان انطونيو يورنتى شـاهد عيان على كل هذه الجـرائم حيث كان يشغل سكرتيرا لمحاكم التنكيل والتعذيب بمدريد فى السنوات ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ — ١٧٩١ ولديه كل المعلومات التى تتعلق بهذا الموضوع ، وقد لاقى هذا العمل النقدى شهرة عالمية لا مثيل لها . وهناك مؤلفات أخرى متعددة عن هذا الموضوع بصـفة عامة تحت عنـوان التنكيل والموريسـكيون

=

والقهر وألوان العذاب من الكنيسة تمشيا مع سياستها التى كانت تهدف من جراء ذلك الى تحقيــق الهدف المنشود ألا وهو الوحدة الاسبانية الدينية الكاثوليكية . ولذلك فقد قام الموريسكيون بثورات مضادة استقبلتها السلطات الاسبانية بشدة وضراوة بالغة ، مات خلالها الكثير من المسلمين . وأجبر الكثير منهم ــ بعد مطاردات قاسية ــ على الدخول فى المسيحية والبعض الآخر على مغادرة البلاد .

قرر بعض الموريسكيين الرضوخ للامر الواقع ولم يغادروا البلاد تمسكا بأراضيهم وممتلكاتهم ومصالحهم ، وتظاهروا بالدخــول فى المسيحية مع بقائهم على دينهم . وعلى الرغم من كل هذا ، الا أنهم قوبلوا بالقسوة والاضطهاد . ذلك الاضطهاد الذى لم تشهده الانسانية قط فى العالم حينذاك . استمر الوجود العربى الاسلامى فى الاندلس تحت سيطرة الاسبان الكاثوليك وأضطروا الى مخالطتهم واســتخدام لغتهم ، إلا أنهم لم ينسوا تلك اللغة العربية فكتبوها بالاسبانية ولكنهم استخدموا حروفا عربيا ، والتى تعرف اليوم بالاعجمية أو الخميادو

La* Inquisicion y los moriscos

نكتفى ان نذكر بعض منها على سبيل المثال :

Mercedes Garcia — Arenal : Inquisición y moriscos. « Los Procesos del tribunal de Cuenca » 2° ed. siglo XXI Madrid, 1983.,

L. Cardaillac, Morisques et chétiens. Un affrontement polemic (1442 — 1640), Paris 1977, H. Kamen; La Inquisiciòn espanola, Madrid, 1973.

P. Dressendoerfer : Islam unterder Inquisition : Die morisco Prozesse in Toledo, 1575 — 1610. Wiesbaden, 1971;

Juan Antonio Llorent, Historia Critica de la Inquisicion en Espana. cuatro volumenes, Ed. Hipision, S. L, Madrid 1981,

وأخيرا نقدم كتابا جديدا ورؤية جديدة ونقد عن محاكم التنكيل الاسبانية يتضمن دراسات ومقالات لمتخصصين فى هذا الموضوع هو كتاب :

Joaquin Perez Villanuevo : La Inquisicion espanola, Nueva Visión, Nuevos Horizontes, Siglo XXI, Madrid, 1980.

Aljamiada [١٦] وقد أصبحت لغة أخرى جديدة مختلفة عن العربية ومحرفة ، لها آدابها وفنونها وكتاباتها المتميزة .

ونحن نتفق مع رأى الدكتور « مصطفى السباعى » من أن هؤلاء الموريسكيون قد ضربوا أروع الامثلة فى المثابرة والجهاد وكانوا أيضا نموذجا مشرفا لانتصار حضارة الاسلام وثقافته على هؤلاء الأسبان المتعصبين[١٧] . ومن الواضح أنه لم يخف على الكنيسة الكاثوليكية أن

---

(١٦) المقصود هنا بالكتابة الالخميادو Aljamiado وهى تحريف اسبانى لكلمة الاعجمية وهى عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية وكان العرب المتنصرون اى الموريسكيون يضطرون للكتابة بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم استخدام اللغة العربية ولكنهم كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية ، وبهذه اللغة كتب الادب الموريسكى ، ادب مسلمى الاندلس الأواخر بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ م والذى يعرف بأدب المستعجمين، او ادب الموريسكيين ، اى الأدب الاسبانى المكتوب بالاحرف العربية . انظـر :

Alvar Galmes de Fuentes : **El intrés literario en los** escritos aljamiado — moriscos, en las actas del coloquio Internacional sobre literatura aljamiado — morisca, Departameto de Filologia Románica de la Sección de Filosofia y letras de la Universidad de Oviedo, 10 al 16 de julio 1972. ed. Gredos. La lengua espanola de la literatura aljamiado — morisca como expresión de una minoria religiosa : ponencia leida en IV simposio de la sociedad, publicada en la Revista espanola de Linguisticos : ano 16. fasc. I. Enero - Junio 1986, en. Gredos. Madrid. Lengua y estilo en la literatura aljamiado — morisca, en la Nueva Revista de Filologia Hispánica tomo XXX 1982 num. 2. Centro de Estudios Linguisticos y literarios. El cologio de México y Juan Vernet : Relaciones de la literatura àrabe con las hispànicas. literatura aljamiada. (Literatura arabe), Barcelona 1972.

(١٧) كان المسيحيون يعتبرون الموريسكيون كفارا وذلك لاتصالهم باتباع محمد رسول الله وبالاتراك ، واتهموهم ايضا بالشعوذة والسحر واعتبروهم اعداء وضد الحكم والملوك الكاثوليكيين . ولمعرفة هذه المشاكل يمكن الرجوع الى هذا المقال :

P. Chaunu ,: Minuite et conjoneture. L'expulsion des morisques, en Revue Historique, ccxxv, I (1961) pags. 81 — 98.

وانظر كتاب الدكتور مصطفى السباعى . من روائع حضارتنا . المكتب الاسلامى الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٧ .

ذلك التنصر لم يكن حقيقيا ، ولذلك فقد أصدر فيليب الثالث (١٥٩٨) قـــرارا بطردهم نهائيا تم ذلك فى الفترة ما بين عامى ١٦٠٥ م — ١٦١٤ م[١٨] .

هذه نبذة تاريخية موجزة عن أحوال الموريسكيين فى الاندلس ، بعد فقدان أعظم دول الاسلام حضارة ، ولكنهم دافعوا عنها بكل امكانياتهم

---

(١٨) ان طرد الموريسكيين يعد خسارة كبيرة وكارثة اقتصادية ومأساة اجتماعية ، وذلك لحرمان البلاد من مجتمع هام له أحقيته الشرعية وكيـــانه ووجوده وخبراته وتجاربه . ومن المعروف أن أكبر تجمع للموريسكيين فى المناطق الجنوبية والشمالية الشرقية وخاصة فى اقليم بالنسية (بلنسية) حيث كانوا يمثلون ثلث سكان هذه المنطقة فى القرن السادس عشر الميلادى ، وقد طرد منهم حوالى ١٢٠٫٠٠٠ . وقد سبق أن طرد من قبـــل حوالى ١٥٥٫٠٠٠ آخرين ، فأصبح المجموع ٢٧٥٫٠٠٠ المطرودون ويمثلون حوالى ٣٪ من عدد سكان شبه الجزيرة الأيبيرية حينذاك . وهناك احصائية تقول انه فى ١٦١٣ م استقر حوالى ١٠٫٠٠٠ موريسكى بالقرب من ضواحى تطوان (المغرب) قادمين من بلنسية وغرناطة ، وآخرون استقروا بالجزائر وحوالى ٥٫٠٠٠ قد عبروا البرانس الى فرنسا ، بالقرب من سان خوان دى لوث . كل هؤلاء الموريسكيين ، بالرغم من انهم مسلمون ، الا أنهم تشبعوا بالثقافة الاسبانية وامتزجوا بها وبمشاعرهم التى وصفها الموريسكى الرشاطى هكذا :

« هناك تقابلنا ، وشعرنا بحزن عميق لفراق أسبانيا فى بلادنا هناك ، وهناك ولدنا ونشأنا وهو وطننا الطبيعى والشرعى » ويقال أن الموريسكيين الذين قدموا من اسبانيا الى المغرب كونوا جماعات مستقلة منظمة استقرت بالرباط وكونوا شبه جمهورية اندلسية وكان هذا الموضوع هو الدراسة التى قام بها جييرمو جوثالبس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعـــة غرناطة ســـنة ١٩٧٤ تحت اشراف د. خاسنتوبوش فيلا أســـتاذ التاريخ الاسلامى . انظـــر :

وانظر ايضـــا :

Guillermo Gozalbes Busto **La Republica andaluza de Rabat en el siglo XVII,** Tesis doctrol de la Universidad de Granada, 1974.

P. E. Russell : **Introducción a la cultura hispánica, Barcelona,** 1982, p. 77.

والدكتور حسين مؤنس : تاريخ المغرب والاندلس : الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٨٠ .

المادية والروحية للحفاظ على عقائدهم وديانتهم وتقاليدهم وعاداتهم الاسلامية .

تقييم الدور والوجود العربى الاسلامى فى الاندلس :

من يعرف تاريخ المسلمين فى الاندلس ، يستطيع الوقوف على الانجازات الهامة الحضارية والثقافية التى حققها المسلمون على مر العصور منذ دخولهم شبه الجزيرة الايبيرية (٧١١ — ١٤٩٢ م) وحتى فترة حروب الاسترداد فى أوائل شهر يناير سنة ١٤٩٢ حتى طرد الموريسكيين من الاندلس وبالرغم من هذا ، كان الملوك الكاثوليك يدركون تماما أهمية وقدر المدجنيين والموريسكيين وخبراتهم وتجاربهم الطويلة فى مختلف مجالات الحياة ، حيث كانوا يضطلعون بالدور الاكبر من النشاط التجارى والزراعى والصناعى ، بل كان النبلاء والاقطاعيين الاسبان المسيحيين يعتمدون عليهم اعتمادا كليا ، بل يحاولون جهدهم الحفاظ على بقائهم واستثنائهم من تطبيق القوانين والقرارات التى كانت تصدر لطردهم من أسبانيا قبل عام ١٦١٤[١٩] خوفا على مصالحهم

(١٩) فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ صدر قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين او العرب المتنصرين — موجهين اليهم تهمة الخيانة واتصالهم بأعداء أسبانيا ، ولذلك فقد قرر الملك نفيهم جميعا الى المغرب فى ظرف ثلاثة ايام من نشر هذا القرار ، والموت عقوبة لمن يخالف هذا القرار ، ونص القرار على استبقاء ٦ ٪ من الموريسكيين للانتفاع بهم ، ويسمح للاطفال بين الرابعة بالبقاء اذا شاءوا ورضى آباؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء اذا كانوا من ابناء النصارى القدماء . وتظلم كثير من المدجنيين من قرار النفى ، ووقعت فى هذه الآونة ثورات محلية وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة فى المناطق للمقاومة ، ولكنها اخمدت كل هذه الثورات وقتل عدد كبير منهم وبدأ تنفيذ هذا القرار . وفى غرناطة وانحاء الاندلس اعلن قرار النفى فى ١٢ يناير ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض احكامه وتوالى اعلان قرارات النفى فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية فى سائر انحاء المملكة الاسبانية سنة ١٦١٠ حتى سنة ١٦١٤ واختلف المؤرخون فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا « تطبيقا لقرار النفى » .

انظر :

محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، القاهرة ١٩٦١ ، صفحة ٤٠٢ .

وتجنبا لتدهور أحوالهم المعيشية والاقتصادية ، حتى أصدرت السلطات الاسبانية من جديد أوامر لطردهم ، وخصوصا بعدما فشلوا فى جذبهم الى اعتنــاق المســيحية • وحتى الذين رضخوا لاوامرهم لم يكن تنصيرهم كما أشرنا من قبل حقيقيا ، بل أظهروا ذلك خشية البطش والخوف من التنكيل بهم ومطاردتهم ، ولكنهم مع هــذا ظلوا مسلمين باقين على ديانتهم وعقيدتهم غير مؤمنين بقرار التنصير ، ومارســوا عقائدهم فى السر ، ولكن الكاثوليك اكتشفوا أمرهم ، فأمرت خوانا ابنة وخليفة الملكين الكاثوليكيين أن يخلع الموريسكيين زيهم الاسلامى حتى لا يذكرهم بأصولهم ، وأمهلوهم مهلة لا تزيد على ستة أشهر وأنذروهم مرة اخرى ومنحوهم مهلة أخرى مماثلة للتخلص من هذا الزى •

وأمر الملك كارلوس الاول سنة ١٥١٨ م أن ينفذ هذا الامر على الفور ، ولكنه تراجع فى النهاية وأضطر للعدول عن قراره ازاء استياء الموريسكيين واحتجاجاتهم المتكررة والمستمرة وشكواهم التى وصلت خارج البلاد وقيامهم بثورات متعددة ومتتالية ضد هذه الســياسة التعسفية اللاانسانية ، فاشتد غضب الكنيسة لعدول الملك عن رأيه ، وحاولت مرة أخرى الوقيعة بينه وبين الموريسكيين ووشوا بهم موجهين اليهم تهمة ممارسة عقائدهم ومزاولة نشــاطهم الدينى دون اكتراث بأوامر الملك وأبلغوه بخطورة التهاون مع الموريسكيين والسماح لهم بهذا الحق الذى يساعد على الحفاظ على تكتلاتهم ، وأنهم لن يصبحوا أبدا مسيحيين حقيقيين[٢٠] ولذلك فقد عاد الملك فاستخدم سلطاته فى اصدار أوامره التاليــة :

---

(٢٠) رأت الكنيسة انهم قد دخلوا المسيحية لا عن اقتناع ويقــين وتظاهروا بالتنصر واطلقوا عليهم الاسبان « بالموريسكيين الصغار » ليقللوا من شأنهم ، وهم الذين بقوا فى الاندلس يدافعون عن دينهم وثقافتهم فاضطهدوهم الكاثوليك والسلطات الاسبانية وفرضوا الضرائب الباهظــة المثقلة عليهم خلال ١٤٩٥ — ١٤٩٩ دون غيرهم من السكان الاســبان الكاثوليكيين . انظــر : عبد الله عنان ، نهاية الاندلس .

١ — تحريم استخدام اللغة العربية واقتناء الثياب العربية .

٢ — عدم ممارسة العادات والتقاليد العربية .

٣ — عدم استعمال الحمامات العربية .

٤ — عدم غلق منازل الموريسكيين وأن تظل مفتوحة طول اليـوم وفى الاعياد والحفلات والعطلات الرسمية وأيام الجمعـة والسبت .

٥ — عدم استخدام الحناء والتزين بها .

٦ — عدم الاحتفال بالزواج الا طبقا للمراسم والطقـوس الدينية والعادات والتقاليد المسيحية الكاثوليكية ، على أن تفتح البيوت ليلة الزفاف .

٧ — لابد من اقامة شـعائر الصلاة والذهاب الى الكنيسة بدلا من الجوامع .

٨ — عدم حمل واستخدام السلاح .

كل هذه الاوامر التى أصدرها كارلوس الأول لم تطبق الا فى عهد فيليب الثانى . .

وخلاصة القول فان محنة الموريسكيين مرت منذ سـقوط غرناطة بثلاث مراحل ، فنجد أن المرحلة الاولى اتسمت بروح التسامح مع المدجنيين والموريسكيين باعتبارهم جزءا من المجتمع الاندلسى له أهميته وكيانه وصلاحيته ، وأيضا حفاظا على روح المعاهدة التى وقعت من قبل عرب الاندلس والملوك الكاثوليك ، ولكنه لم تمضى فترة زمنية قصيرة حتى نقض الاسبان كما أشرنا من قبل بنود هذه المعاهدة وأجبـروا الموريسكيين على الدخول فى الدين المسـيحى فى حضـور الكاردينال ثيسـيروس Cardenal Cisneros مستخدمين فى ذلك أبشع الاساليب القهرية . وتحقيقا لذلك قاموا بتأسيس وانشاء محاكم التنكيل والتعذيب

بعد فشل سياستهم فى تنصير المدجنين[٢١] • وتزعم هـذه الحـركة فيما بعـد وهـذه الفـكرة اللاانسانية الكاردينال خيمينث مطران طليطلة • واسـتهدفت هـذه الحـركة غرناطة نفسـها باعتبارها بل ، وتمادوا فى ذلك فقاموا أيضا بحرق كتب الموريسكيين ووثائقهم • وقد كان هذا العمل الشين موضـع نقد من بعض المؤرخين والكتاب وأكثرهم أوربيون[٢٢] ، وان دل ذلك على شىء فانما يدل على جهالة وظلام العصور الوسطى وجهل شعوبها الاوربيـة وتناسيهم لأبسط قواعد الانسانية والتحضر الفكرى • هذه وصمة عار فى تاريخ الكنيسة الاسبانية الكاثوليكية على مر تاريخ أسبانيا والعصـور الوسـطى المظلمـة •

ثورات وتمـرد الموريسكيين :

لقد كان من نتائج هذه السياسة القهرية من جانب السـلطات الاسبانية الكاثوليكية ازاء الموريسكيين العزل انهـم شـعروا بعـدم الامان والاطمئنان والثقة فى هذه السلطات العنصرية ونقض وعودهم وشروطهم فثاروا لمواجهة عنف وبطش الاسبان بهم ولتعصبهم الاعمى ، فثارت ثورتهم ولم يخشوا التنكيل والتهديدات والانذارات المتكررة وضحوا بحياتهم وبأعز ما يملكون مفضلين الاسـتشهاد والموت على الحياة الذليلة ، فانتقم الاسـبان منهم شر انتقـام وفتكوا بالنسـاء والاطفال والشيوخ • وكان هذا جبن من السلطات الاسبانية وضعف ارادتهم وعزيمتهم فى مواجهـة الواقـع التاريخى للوجـود العربى

---

(٢١) منذ فترة وجيزة بدأ موضوع الموريسكيين ومحاكم التنكيل يلقى اهتماما كبيرا من جانب الكتاب الاوربيين وخاصة الاسبان ، بعد ما كان محظورا عليهم الكتابة فى هذا الموضوع . وفى دراستنا لآدابهم فى القسم الثانى من هذا البحث ، سنذكر البيليوجرافيا الخاصة بالموريسكيين والتى تشمل المراجع والمصادر الاوربية الهامة والمتخصصة .

الاسلامى . وحاولت السلطات الاسبانية خداع الموريسكيين فلم تفلح فى ذلك ولم تلق دعوتهم الترحيب الكافى فلم يتنصر الا عدد ضئيل منهم ورفض الباقون بشدة اعتناق الديانة المسيحية ، ولذا فقد قامت السلطات الاسبانية الكاثوليكية بالتعاون مع الكنيسة باتخاذ الاساليب التعسفية والقهرية ضدهم فاضطر الموريسكيون للقيام بثورات أولها :

ثـورة البيازين فى غرناطة سنة ١٤٩٩ :

من المعروف أنه من أسباب تمرد وثورة الموريسكيين فى حى أو محلة البيازين Albaicin فى غرناطة سنة ١٤٩٩ نقض الاسبان الكاثوليكية لعهودهم ومواثيقهم[٢٢] وخصوصا عندما اعتدى أحد رجال الشرطة الاسبان وخادم الأب خيمينث على فتاة مسلمة فى حى البيازين ، فهاجمه الموريسكيين وفتكوا برجل الشرطة واحتجوا وثاروا وتوجهوا للاب خيمينث للقضاء عليه بوصفه المدبر والمخطط لهذه الحادثة ، وتدخل الاب تالافيرا لحمايته من غضب وثورة الموريسكيين ، وقد كان يحظى بتقديرهم وحبهم ، فهدأ من ثورتهم وساعدته السلطات الحكومية بأساليبها الماكرة حتى يكتشفوا مدبرو هـذه الثورة وهم أربعون

---

(٢٢) من اهم المصادر والمراجع الاندلسية التى تناولت اخبار الموريسكيين وأحوالهم السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية وقضاياهم بصفة عامة نذكر المقرى فى نفح الطيب من غصن الاندلس وفى تاريخ ابن خلدون وعلى الاخص فى « الاحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب وغيرهم من أشهر علمائنا الاندلسيين . أما فى الوقت الحاضر فقد تناول بعض كتابنا الشرقيين هذا الموضوع فى ابحاث ودراسات متفرقة أمثال محمد عبد الله عنان والدكتور حسين مؤنس وغيرهم . ونأمل ان يلقى هذا الموضوع مزيدا من الاهتمام لابراز الدور العظيم لهذه الجماعات الاسلامية المضطهدة فى الاندلس والمآساة التى عاشوها فى اخر ايام المسلمين فى الاندلس حتى طردهم نهائيا من البلاد ، واجبار وتحويل كثير منهم وادخالهم فى الدين المسيحى عنوة .

موريسكيا ، هربوا كلهم الى جبال البشارات خشية الانتقام والابادة(٢٣) ونجحت السلطات الاسبانية فى القضاء على هذه الثورة واخمادها سنة ١٤٣٩ ، وبعدها قرر ملك غرناطة الاسبانى تشكيل محاكم التفتيش والتنكيل دون محاكمة واجبار الموريسكيين على التنصر أو التشريد • لم تجد السلطات الاسبانية استجابة ، فقررت منعهم من الاختلاط بأهل غرناطة حتى لا يؤثروا عليهم ويبثوا فيهم روح الثورة • وأصدر الملكان مرسوما يقضى بحرمان الموريسكيين من ممارسة أى عمل يتصل بعقائدهم ولغتهم ولذلك لم يبق أمامهم الا اللجوء والاحتماء بالحصون والمعاقل المنيعة والجبال والمرتفعات ، ومن هناك كانوا يشنون هجماتهم وغاراتهم على القوات الاسبانية التى كانت تطاردهم باستمرار وتسعى للقضاء عليهم(٢٤) •

---

(٢٣) كان قرار طرد الموريسكيين من غرناطة نتيجة ونهاية ثورة وحرب البشارات ١٥٦٨ — ١٥٧٠ • صدر القرار فى أكتوبر سنة ١٥٧٠ م وبدأ تنفيذه فى نوفمبر سنة ١٥٧٠ . قاد هذه الثورة ابراهيم ابن امية واستمرت ثلاثة اشهر ، احتلوا فيها اماكن هامة حصينة على السواحل ولكن المسيحيين استطاعوا ان يهزموهم ويستولوا على لانجرون Lanjaron فى الغرب واندراس Andrax فى الشرق . وقامت أيضا بعض التمردات فى المرية وجبال فيلابرس وفى منطقة نيجر Nijar ، وكان آخر هذه الثورات التى قام بها المدجنون فى هذه الفترة فى رنده Ronda واستمرت فى شهر يناير حتى مايو . اضطر الملك فرناندو الى التدخل ، بعد هزيمة المسيحيين فطالبه المدجنون بتحسن ظروف معيشتهم الاجتماعية . انظر :

L. Marmol Carvajal, **Historia de la reblión y testigo de los moriscos del reino de Granada,** Biblioteca de autores espanoles XXI,, Madrid 1946 ;

F. Janer, **Condición Social de los moriscos en Espana.** Madrid, 1857, pp. 43 — 46. y B. Vincent, **L'expulsion des morisques du royaume** de Granada et Ceur repartition en Castille (1570 — 1571) Melanges de la Casa de Velásquez, VI. 1971, pp. 187 222.

(٢٤) لقد خرج منهم فى هذا العام الاخير او فى سنة ١٦١٢ نحو ستمائة الف ، ذهب اكثرهم الى المغرب وانبثوا فى الريف وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانبا من فاس ، وذهب كثيرون منهم أيضا فسكنوا تلمسان

=

ثـورة البشـارات :

كان من نتائج ثورة الموريسكيين فى حى البيازين بغرناطة أن ثار اخوانهم فى منطقة البشارات الواقعة فى جنوب غرناطة فأرسلت السلطات الاسبانية حملة للقضاء عليهم ، وقام جنـود السـلطة بحرق المنازل والقرى وقتل النساء والاطفال والشيوخ ولم يلحقوا بالرجال الاشداء من الموريسكيين الذين انضموا الى اخوانهم بجبـال البشـارات وما جاورها ، واحتل رجال وقواد الملك الكاثوليكى القـرى والحصون والقلاع . ولقيت هذه الحملة العسكرية كل مقاومة من الموريسكيين ، ودافعوا بشجاعة عن مواقعهم ، ولكن هذه الثورة أيضا أخمدت سنة ١٥٠٢ م واضطدهم الاسبان كالعادة اضطهادا لا مثيل له ، فأشعلوا النيران فى مساجدهم وقتلوا نساءهم وأطفالهم وأحرقوهم أحياء وتعرض الموريسكيون المهزومون لحرب ابادة شاملة ومكشوفة ، ولذلك كان عليهم أن يختاروا ما بين التنصر القهرى والبقاء أو الهجرة الجماعية الى شمال أفريقيا أو الى مصر والشام[٣٤] . وكانت نتيجة هذه الثورات وهذه الاحداث أن تحول مسجد غرناطة والبيازين الى كنائس ، وأجـبر الموريسكيون على تبديل زيهم وترك لغتهم وتقاليدهم وتغيير أسماءهم وحملوهم على اعتناق الدين المسيحى واستعمال اللغة والتقاليد والاسماء الاسـبانية .

فى أوائل شهر يناير سنة ١٥٦٧ م أصدر مرسوما جديدا فى غرناطة وفى كل أنحاء المملكة يقضى بشروط محـددة على أن يسـتثنى منها

=

والجزائر وتونس ووصل آخرن الى الشرق (الى مصر والشام) ، وقد سبق أن هاجر من قبل عدد كبير منهم الى شمال افريقيا ايضا نتيجة للمرسوم الذى أصدره فيليب فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٦ م .

الموريسكيون المتواجدون بالمدن والجبال وباقليم البشارات[٢٥] • وعلى كل حال فان كل هذه الاجراءات والمواقف المتشددة والقرارات الصارمة ما هى الا وسيلة للتخلص من كل مسلم أو أى أثر اسلامى يمت بصلة للديانة والعادات والتقاليد والروح الاسلامية ، وبمعنى أصـــح القضاء على كل ما يذكرهم بالحكم العربى الاسلامى فى البلاد ، ولهذا فقد تمرد وثار أهالى اقليم البشارات ضد السلطات الاسبانية الكاثوليكية وكان يقود هذا التمرد باقليم البشارات موريسكى ويدعى فـــرج بن فـــرج بمســـاعدة بعض الموريسكيين أصـــحاب النفـــوذ والسلطة فى اقليم البشـــارات •

تفجرت ثورة البشارات فى يوم الخميس من عام ١٥٦٨ م ، وعندما أحست السلطات الاسبانية فى غرناطة بهذا الخبر ، أسرعت على الفور فى اتخاذ التدابير لمنع هذا التمرد واتخذت الاجراءات اللازمة تحسبا

---

(٢٥) سمى حى المسلمين بحى Moreria نسبة الى كلمة مورو ومن المعروف انه صدر قرار من الملكين الكاثوليكيين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٠٠ الى المســـلمين بهـــذا الحى بمدينـــة بسطه Baeza باعفـــاء الذين تنصروا منهم أو يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكيين ، وتحريمهم منها سواء بالنسبة لانفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من يوم التنصير ، والا يدخل أحد منازلهم ضد ارادتهم ، ومن يفعل ذلك يعاقب بغرامة فادحة . وأن يعفوا من سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ، وان تحترم جميع العقود والمحررات التى كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم ، وأن يعامل المتنصرون منهم كسائر النصـــارى الآخرين فى بسطة ولهم أن يتنقلوا وأن يعيشوا فى أى مكان آخر من أراضى قشتالة دون قيد أو عائق الى غير ذلك من المنح والامتيازات ، وصدر أخيرا مرسوم بالعفو عن جميع سكان حى المسلمين Moreria بغرناطة والقرى الملحقة بها .

انظـــر :

اخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، المنشور بعناية المستشرق ميلر جوتنجن سنة ١٨٦٣ ، صفحة ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ . وأيضا نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى (انظر طبعة القاهرة وبولاق) .

للموقف ولمنع وقمع هذه الثورة ، ولكن الموريسكيين غيروا من خططهم فى أوائل شهر يناير سنة ١٥٦٩ م وقاموا بثورتهم ليلا وشنوا هجومهم على قصر الحمراء وعلى مدينة غرناطة ، يدعمهم جماعات البيازين وعشرة آلاف موريسكى آخرين ، وبالرغم من أن الخطة لم تنفذ بهذه الطريقة المعلنة ، الا أن الصراع نشب مبكرا • وهو الصراع المعروف بحرب أو ثورة اقليم البشارات ، التى أشرنا اليها من قبل ، والتى انتهت بهزيمة الموريسكيين وترحيلهم الى بعض المدن والقرى فى أقصى الجنوب والى جـالثيا وطليطـلة وقشـتالة القـــدمية وأراجــون وقطالونيــة وبلنسية ومرسية أيضــا ، حتى يندمجوا مع ســكان هــذه المناطق ليتلاشوا تماما وتذوب أصـــولهم ويحرموا من ممارســة عقائدهم الاسلامية ، وبالرغم من ذلك فقــد عاش الموريسكيون المهزومون فى أماكن وأحياء مستقلة خاصة بهم تسمى Moreria [٢٥] منعــزلين • ولم يكن استسلامهم حقيقيا ، وظلوا يمارسون عاداتهم وعقائدهم ، وكونوا جماعات مستقلة ولم يعترفوا أبدا بولائهم واخلاصهم للمسيحية ولم يعتبروا أنفسهم على الاطلاق — « مسيحيين » — وبالرغم من هذا لم يسلموا من شر الكاثوليك ، الذين تمادوا فى تعسفهم ، فأمر الملك فيليب الثانى بتعديل القوانين والعادات الموريسكية وتنفيذ هذه الشروط فور اعلانها وهى :

١ — على الموريسكيين التحدث باللغة القشتالية ومحظور عليهم الكتابة والقراءة فى مكان عام سرا أو علانية باللغة العربية •

٢ — الغاء كل العقود والكتابات والمواثيق والمستندات المحررة باللغــة العربية ، لأنه لن يكون لها الصفة الشرعية والرسمية •

٣ — تودع كل الكتب والمجــلات العربية فى دار القضاء المســيحى بغرناطة لتبحث ويدرس مضمونها •

٤ — لأسقف غرناطة الحــق فى اصدار أوامره فى تعليم الموريسكيين اجباريا اللغــة القشتالية ــ

٥ — محظور على المسلمين أن يقتنوا الملابس الاسلامية ، بل تستبدل بالملابس المسيحية ، على أن تعطى لهم مهلة للتخلص من هذه الثيـــاب .

٦ — على النســـاء الموريســكيات عدم اســتخدام الحجاب وكشف وجوههن .

٧ — عدم استخدام الحمامات الصناعية وهدم كل الحمامات العربيـــة الاســـلامية .

٨ — وعلى الموريسكيين اعتاق العبيد الذين يخدمون بمنازلهم كما أنه محظور عليهم أيضا شرائهم ، وعلى من يحوز أى تصـــاريح لامتلاك العبيد السود ، عليه أن يقدمها الى رئيس المحكمة العليا بغرناطة وذلك لمراجعتها وتجديدها أو الغائها . هذا وقد تم تنفيذ هذه الاوامر على مراحل .

حاول مرة أخرى ومن جديد الونسو دى اوروثكو المشرع القانونى الكنسى أن يجبر الموريســكيين بالقبــول والرضــوخ لهذه الاوامر ولكنهم لم يستجيبوا لمحاولته ولم يقنعوا بآرائه ولم يهدأ لهم بال . ظلوا يحاربون ضد الحكام الأسبان الطاغيين والمستبدين ، بل ويشجعون الاهالى والسكان على التمرد والمؤامرات السياسية التى تهدد أركان الدولة وأمنها وحكامها ، ولهذا فقد أشـــار كثير من المقربين الى الملوك الكاثوليك ونصحوهم بطرد الموريسيكين وخاصة فى عهد فيليب الثـــانى وفيليب الثالث .

وفى هذه الفترة تمت اتصالات بين الموريسكيين فى غرناطة وبين الموريسكيين فى كل من بلنسية وأراجون وقشتالة واندلسيا ووطدوا علاقتهم أيضا مع مسلمى الجزائر .

الأعمال التى كان يزاولها الموريسيكيون :

من المعروف أن الموريسكيين كانوا يشتغلون بالزراعة والتجارة وبعض الصناعات والفنون وأعمالا أخرى • وكانت لهم أيضا شهرتهم كاقتصاديين مهرة ، وبعضهم أثرياء ، بالرغم من الظروف القاسية التى كانوا يعانون منها وفرض الضرائب الباهظة المثقلة عليهم • وقد كان الموريسكيون يتزوجون فى سن مبكرة ليساعدوا على زيادة أسرهم وعددهم • فنجد انه فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، كان عدد الموريسكيين فى مملكة بلنسية قليلا جدا ولكن فى سنة ١٥٧٣ زاد عددهم بنسبة ١٩٫٨٠٠ عائلة موريسكية ، وفى سنة ١٥٩٩ الى ٢٨٫٠٠٠ و ٣٠٫٠٠٠ فى أوائل القرن السابع عشر ، فى حين أن السكان الاسبان الكاثوليك قل عددهم بسبب الحروب والفقر • أدى ذلك الى مطالبة الملك مرة أخرى بطرد الموريسكيين • ومن جهة أخرى ناشدت البارونات البلنسية وبعض القساوسة الملك العدول عن رأيه فى قرار طردهم ، غير مشجعين على الاقدام على هذه الخطوة الجريئة والخطيرة التى سوف تؤدى بدون شك الى زيادة فقر الممالك الاسبانية وقلة الجبايات التى كانت تحصل من الموريسكيين • وفى سنة ١٦٠٤ م درس البلاط الملكى هذه القضية وطلب بعض القساوسة من الملك فيليب الخامس النظر ، فأصدر قرارا عام ١٦٠٦ م يقضى باجتماع أساقفة المنطقة لعرض الموضوع ودراسته وابداء الرأى والمشورة ويصدرون بما يرونه مناسبا من قرارات • وفى نفس الوقت كتب للملك والاساقفة يحثونهم على اتخاذ أساليب أكثر لينا وأن يمتنعوا عن استخدام العنف والقسوة ضد الموريسكيين ، بل الجنوح الى اتخاذ الطرق السلمية والمقنعة فى تنصيرهم • واجتمعت فعلا اللجنة المشكلة من الاساقفة لاستصدار الاوامر والقرارات اللازمة • وفعلا بعد انتهاء الجلسة كتبت ورفعت اللجنة تقريرا مفصلا بعد مناقشات وعرض الآراء لبحث الموقف فى سنة ١٦٠٩ وأرسلته الى مدريد ، ولكن الملك لم ينتظر قرار اللجنة الشرعية المكونة وأخذ بنصيحة

دوق ليرما ، وانزعج من الاخبار التى وصلته عن الشـــكاوى المتكررة والمتواصلة التى بعث بها الموريسكيين الى قسطنطين والمغرب ، وأصدر قرار طردهم • وكلف حاكم بلنسية العام الماركيز كراثينا قراءة نص القرار بطرد الموريسكيين من بلنسية والسماح لهم بالعبور الى شمال أفريقيا وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام لخروجهم ومغادرتهم البلاد دون تردد والا ينفذ فيهم حكم الاعدام ، ومحظور عليهم أيضا حمل أى شىء الا بعض الاموال والاثاث والاشياء الضرورية ، على أن لا يبقى فى الأراضى أى موريسكى ، وعلى من يخالف هذا الأمر ، فيحق — فى نفس الوقت — لأى اسبانى كاثوليكى أن يقتله أينما يوجد ، ويعاقب كل شخص يحمى موريسكى أو يتستر عليه ويخفيه فى منزله •

وأخيرا خرج عدد لا بأس به من الموريسكيين الى شمال أفريقيا ، وسمح فقط لستة أشخاص موريسكيين ليقوموا بتعليم السكان الجدد الزراعة • ويسمح أيضا للصغار اللذين لا يزيدون على أربع سنوات البقاء فى البلاد اذا رغبوا أو سمح لهم آباؤهم بذلك ، أما الاولاد فيظلون مع الأم ويطرد الاب الموريسكى خارج البلاد • أما عن الموريسكيين الذين قرروا مغادرة البلاد والهجرة الى أراضى وبلاد أخرى الى شمال أفريقيا ، فلهم حق المغادرة بشرط عدم المرور بالاراضى الاسبانية • وتلبية لهذه الأوامر وتنفيذها فقد اضطرت بعض العائلات الموريسكية للابحار من الموانى الاسبانية بشمال شرق أسبانيا مثل اليكانتى وغيرها من الموانى فى طريقهم الى تونس والجزائر وأوران ومدن افريقيـــة أخرى • ولكن لم يسلم الموريسكيين المهاجرين مرة أخرى من قسوة وبطش الجنود الأسبان ووحشـــية الجماعات الاســـبانية المتطرفة والمتعصبة فانقضوا عليهم وهم فى طريقهم الى هذه الموانى ونقلوهم ونقـــلوا أولادهم وشـــيوخهم وانتهكوا حرماتهم وبناتهـــم وســـلبوا أموالهم • وبالرغم من أن بعض الموريسكيين غادروا البلاد ، الا أن كثيرا منهم لم يستجب ولم يرضخ لهذا الأمر وتحصنوا واجتمعوا وعسكروا فى كل من : Val de ayora, Castellá, Alakar, Guadaleste

حارب الموريسكيون فترة قصيرة ولكن دون جدوى ، وأخيرا اضطروا الى الاستسلام وخرج من موانى بلنسية وأماكن أخرى كثيرة منذ ٢٦ سبتمبر سنة ١٦٠٩ حتى مارس سنة ١٦١٠ ، حوالى ١٥٠٫٠٠٠ موريسكى وبعد خروج الموريسكيين من بلنسية ، اتبعهم الموريسكيون المتواجدون فى أندلسيا ومرسية ، وطبقا للقرار الذى أصدره الملك فيليب فى ١٢ — ١٨ يناير سنة ١٦١٠ م وكان محظورا على الموريسكيين حمل الذهب والفضة والمجوهرات ولا أى عملات أجنبية ولا شيكات من أى نوع ، وبعدها صدرت أوامر أخرى بحمل نصف المبالغ فقط ، على أن يسمح لهم بحمل ما يشاءون من الفواكه والسلع الغير ممنوعة . وهاجر هؤلاء الموريسكيون الى أفريقيا وأجبروهم على ترك أبناءهم الذين لم يبلغوا سن السابعة ، أما اذا كانوا متوجهين الى بلاد كاثوليكية مثل فرنسا فيسمح لهم باصطحاب أولادهم ، مهما كانت أعمارهم ولذلك . فقد خرج من اندلسيا ٨٠٫٠٠٠ موريسكى ، ومن مرسية ١٥٠٫٠٠٠ آخرون .

وفى ١٩ مايو من نفس السنة ، أصدر الملك مرسوما آخر بطرد الموريسكيين ، فى كل من أراجون (اراغون) وقطالونيا وقد خرجوا فعلا وأبحروا من ميناء الفقهاء Al-Faques وآخرون اتجهوا الى باريس عن طريق نافارا وخرج من أراجون ما يزيد على ٦٤٫٠٠٠ وهم ينتمون الى ١٣٫٨٩٤ عائلة موريسكية . وطرد أيضا الموريسكيون بنفس الطريقة حوالى ٥٠٫٠٠٠ من قطالونيا وتبعهم آخرون من قشتالة الجديدة والقديمة ومن اكسترمادورا . وكان عدد المهاجرين من كل قشتالة القديمة والجديدة ما يقرب من ١٠٠٫٠٠٠ ألف موريسكى .

وبلا شك فان خروج الموريسكيين من أسبانيا وطردهم خارج البلاد يعتبر كارثة اقتصادية وسياسية ومأساة اجتماعية وانسانية كبيرة تتحدث عنها الأجيال الحاضرة والقادمة ويندد بها اليوم المؤرخون والكتاب الشرقيون والغربيون على السواء بعد مرور قرنين من الزمان ، حيث تضاربت الآراء حول النتائج التى ترتب عليها طرد

الموريكسيين[٢٦] . لأن هذا الأجراء فى حد ذاته أدى الى حرمان اسبانيا من مجتمع زراعى وصناعى وتجارى واقتصادى هام اعتمد عليه الاسبان خلال فترات تاريخية منذ دخول العرب شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) حتى ساعة طردهم . وقد لاقت بعض الصناعات الهامة أيضا بعد خروج الموريسكيين قصورا فى الانتاج ، فنقص انتاج وصناعة الحرير والمنسوجات والجلود والورق التى كانوا يجيدون صناعتها وانتاجها ، هذا بجانب أعمال أخرى يدوية هامة وفنية وصناعية لم يتقنها الاسبان الكاثوليك حتى خروج الموريسكيين من البلاد ، أما من الناحية التاريخية فلا يوجد مؤرخ معاصر الا ويثير هذه المشكلة ويناقشها ويعلق عليها ويبدى رأيه ويستعرض أقوال الآخرين من الكتاب ويؤكد خطأ هذا الحدث التاريخى السياسى الخطير وهو طرد الموريسكيين . أما من الناحية السياسية فنجد أن طرد الكاثوليكيين للموريسكيين لاقت تأييدا من الكتاب الاسبان وبعض المتعصبين على أنها تمثل فكرة قديمة وأملا منشودا يسعى اليه كل كاثوليكى ألا وهى الوحدة الدينية وهى الفكرة التى سار على نهجها كل الملوك الكاثوليك منذ سقوط غرناطة حتى منتصف القرن السابع عشر ، بل يذهبون الى أكثر من هذا لاعتبارهم أن هذه الوحدة هى الطريق الصحيح الى الوحدة القومية الوطنية . وأن طرد الموريسكيين أيضا يجنب البلاد حروبا مستمرة تستنزف أموالهم وقواهم وثرواتهم وخيرات بلادهم ، بصرف النظر عن حقوق الموريسكيين الطبيعية والتاريخية والسياسية والانسانية .

---

(٢٦) يؤكد روسيل ان طرد الموريسكيين كان يعد عاملا من عوامل انهيار وتدهور الاحوال بالمدن الاسبانية خلال القرن السابع عشر ، ونحن معه فى هذا الرأى ، بالرغم من معارضة بعض الكتاب والمؤرخين اللذين خالفوا هذا الرأى .

P. E. Russell : Introduccion y Dominquez Ortiz y B. Vicent, Los moriscos.

الثقــافة الموريســكية :

عندما نتناول هذا الموضوع ، أعنى ثقافة الموريسكيين[٢٧] يتبادر للذهن أننا سنقتصر فقط على الناحية الدينية وهو ما أرادته السلطات والكنيسة الكاثوليكية صبغها بالطابع الدينى ، لتعميق الخلاف بين كل من المجتمعين الاسلامى والمسيحى ، ولكننا فى الحقيقة نذهب الى أكثر من هذا ، فهذه الثقافة تتناول جوانب أخرى متعددة وهامة وهى التى تحدد الصراع القائم بين الحضارتين : الاسلامية والمسـيحية[٢٨] . والثقافة الموريسكية تشمل أيضا العادات والتقاليد والروح والشريعة والقانون والأدب والحضارة التى حاولت السلطات الاسبانية الكاثوليكية التقليل من أهميتها والانتقاص من قدرها .

ومن المعروف عن الموريسكيين حرصهم الشــديد على الالتزام بالقواعد والآداب والعادات والتقاليد العربية الاسلامية والسير على نهج المسلمين فى أنحاء العالم الاسلامى ، ويقال أيضا أن الموريسكيين البلنسيين يفضلون الخبز والخضروات والفاكهة والعسل والنبيذ والزبيب والتين عن اللحم ، أما عن الغرناطيين فيفضلون الحساء بكل أنواعه[٢٩] . ويأكلون الحلوى المصــنوعة من السكر والعسل واللوز ، وطبقهم المفضل هو الكسكسى Alcuzcuz ومن يتناوله يعرفون انه موريسكى ، ويذكر أن مســيحى يدعى خــوان دى بورغش Juan de Burgos تناول ذات مرة هذا الطبق الشعبى فكان جزاءوه حمله الى محاكم التنكيل بطليطلة سنة ١٥٣٨ للخلاص منه[٣٠] .

---

(٢٧) يتعرض للمشكلة الثقافية كارو باروخا .
Caro Baroja, los moriscos, p. 122

(٢٨) انظــر :
Braudel, Fernand : Conflicts et refus de civilisation, espagnols et morisques au XVI, siecle, Annales SEC, 1947, pp. 397 — 410.

(٢٩) اذا أردت التعرف على انواع الحساء الذى كان يفضــله الموريسكيون فى غرناطة ، انظــر :
B. Vincent : la cultura morisca H° 16, no 18.

(٣٠) نفس المصدر السابق .

ويمكن تمييز المسيحى عن المسلم عن طريق الرداء الذى يحمله كل منهما . ويعلق على هذا المؤرخ المشهور Aznar Cardona أن ملابس البلنسيين تدعى للاشمئزاز وأن الغرناطيين يلبسون السراويل Zaragüilles والغرناطيات يلبسن القندرة Alcondra وقميص طويل من الكتان أو الحرير وعليه يوضع عباءة تسمى الملوطة Maltola ثم الملحفة Almalafa وهى عبارة عن قماش من الكتان ، والصوف أو الحرير ، لونها أبيض والجزء الأعلى يغطى وجه المرأة . أما الرجال فيستخدمون أحيانا ، قفطانا Caftàn وعمامة Turbante [٣١] . وأما عن مساكن الموريسكيين — بصفة عامة — فهى أصغر من البيوت المسيحية ويختلف توزيع الحجرات والغرف مع مراعاة الضوء والظل والحرارة والبرودة والنظافة كل هذا كان يوضع فى حسبان الموريسكى دون المسيحى بهذه الكيفية والعناية . ويزيد على ذلك اهتمام الموريسكيين بالحمامات ، وبقرض الشعر والرقص الشرقى على أنغام الآلات الموسيقية مثل الغيطة Gaitas والطبول Atabales . هكذا كانوا يرقصون فى أفنية الكنائس ، حسب النصوص التى دونها الموريسكيون بعد الانتهاء من حفلاتهم والتى كان يقدمها ويشاركهم فيها أسقف غرناطة ايرناندو دى طلبيرة . Hernando de Talavera [٣٢] .

---

(٣١) تناولموضوع استعمال الملابس أو الزى الاسلامى فى اسبانيا قبل طرد الموريسكيين الكاتبة الفرنسية راشيل أرييه . أنظر :

R. Arié. „ Acerca del traje musulmàn en Espana desde la caida de Granada hasta la expulsión de los moriscos „ en la Rev. del IEI. de Madrid, XIII (1965 — 1966). Pags. 103 — 117.

وتطرق الى هذا الموضوع أيضا كل من بيرنس وباروخا .

C. Bernis **Modas moriscas en la sociedad espanola del siglo XV y Principio del XVI,** en Boletin de la Real academia de la historia, CXLIV (1499), Pags. 199 — 226. Y Caro Baraja, Los moriscos, p. 117. Capt. 4.

(٣٢) راجع نفس المصدر السابق .

أما بالنسبة للغة فقد كان الموريسكيون يتحدثون لغة مختلفة عن المسيحيين ، ولهجات مختلفة مشتقة من اللغات المتحدث بها فى كل من أراجون وبلنسية وغرناطة . وأيضا العربية Algarabia وهى تختلف بدورها عن العربية المتحدث بها فى الدول العربية ، بالاضافة الى اللغة المستعربة التى ترجع أصولها الى اللاتينية وقد كان الموريسكيون على علم تماما بأهمية التحدث بلغة أصلية .

وبالرغم من هذا كله ، فالمشكلة التى كانت تعوق العلاقات بين المسيحيين والموريسكيين وتزيد من الخلافات بينهما موقف السلطات الكاثوليكية وسياسة القهر والقمع والاضطهاد وخاصة عندما قاموا بحرق كتب الموريسكيين ما عدا الكتب الخاصة بالفلسفة والطب ومع هذا ، فقد ظهر أدب دينى أعجمى خلال القرن السادس عشر الميلادى يشمل نصوصا مكتوبة بلغة رومانية ولكن بأحرف عربية واتى فيها ينتقد بعض القوانين الكاثوليكية والافكار الدينية ، وعلى سبيل المثال مشكلة التثلث ورفض كلى لفكرة سر التجسد فى الدين المسيحى .

وهناك مخطوطات كثيرة موريسكية تشمل نصوصا عن الطب وتتداولها الجماعات الموريسكية ويعرفونها فى هذه الفترة والتى ساعدت على ازدهار العلوم الحرة والتى يعترف بها ويقدرها المسيحيون ، وهناك عديد من مشاهير الاطباء والفلاسفة الموريسكيون ممن ساهموا فى ازدهار هذه العلوم الطبية والفلسفية(٣٣) . وبالرغم من كل هذا فان هذه الوقفة وهذا التعاون المثمر لم يستمر فترة طويلة ، بسبب نشوب خلافات بين الاطباء الكاثوليكيين والموريسكيين ، وقد كانت محاكم التنكيل أيضا السبب فى بث الخلافات واثارة مشاعر الحقد والضغينة والكره بينهما ويمكن القول أن الصراع بين الثقافة الموريسكية والمسيحية يتفاقم تدريجيا وزاد من حدته المعاملة السيئة التى كان يلقاها

(٣٣) راجع نفس المصدر السابق .

الموريسكيون من المسيحيين • وعلى كل حال فقد كان طبيعيا أن يكون هنـــاك نموذجين مختلفين من الحيـــاة ومتعارضين هما : الموريسكية والمســـيحية •

ان اختلاف الثقافة وطريقة ونظم الحياة بين الموريسكية والمسيحية أدى الى عدم التفاهم والتسامح ، بل زاد من عنادهما ان كل واحد منهما يريد ان يثبت أنه أفضل من الآخر وان ثقافته تتفوق على ثقافة الآخر ، ومن هنا كان التعايش بينهما مستحيلا •

ومما يدعو للاسف ، أن كثيرا من الكتاب والمؤرخين والأدباء الاسبان المعاصرين وصفوا الموريسيكون بأبشع الصفات والعادات فى جمل تكاد تشمئز منها الانفس[٣٤] على عكس كتاب أسبان آخرين أيضا ، يشيدون بعظمة الآثار الاسلامية التى هى من صنع هؤلاء البشر[٣٥] •

أحوال الموريسكيين بعد الطـــرد :

ويجىء الســـؤال هنا فى المقام الأول وهو ماذا بعد الطرد ؟
وهل استمر الوجود الموريسكى فى أسبانيا وكيف ؟

بلا شك ، بعد القرارات التى صدرت بطرد الموريسكيين من أسبانيا ، كان من المتوقع ألا يبقى موريسكى فى هذه البلاد ، وهذا ما كان ينتظره المسيحيون وبخاصة السلطات الكاثوليكية ، وفعلا اختفى الموريسكيون بعد قرار الطرد فى ٩ ديسمبر سنة ١٦١٠ ، ولكن جماعات منهم حاولت أن تتباطأ فى تنفيذ هذا القرار والرضوخ لهذا الأمر ، بعضهم ذهب الى بلاد

---

(٣٤) راجع نفس المصدر السابق .

(٣٥) لمعرفة هذه الاحصائيات وموقف السلطات الكاثوليكية والملوك الاسبان من هذه المشكلة . راجـــع :

Bernard. V., Historia de Andalucia, ed Planeta y Gran Encic. de Andalucia. Sevilla. Promociòn Cultural andaluza. Historia ed Planeta y Gran. **Encic. Sevilla, P. C. A.**

البربر وآخرون عادوا الى أسبانيا والبعض سجنوا وآخرون استطاعوا الهروب والاختفاء فى المدن الاسبانية . بطبيعة الامر كان المسيحيون يبلغون ويخطرون السلطات عنهم ، واستمروا على هذه الحال ، حتى أصدر الملك فى سنة ١٦٢٣ بعدم قبول أى شكوى أو بلاغ ضدهم .

ويبدو أن كثيرا من الموريسكيين ظلوا وبقوا فى غرناطة فى هــذا المكان ، أما الذين فضلوا أو أجبروا على البقاء فكان معظمهم أطفال فى السابع من عمرهم ، وعبيد وموريسكيون معروفون كمسيحيين قدامى حقيقيين أو موريسكيون اختبأوا ولم يتعــد عددهم أكثر من ٥٫٠٠٠ شخص(٣٦) .

طرد الموريسكيين دون مملكة غرناطة التى احتوتهم . أما بالنسبة لباقى المدن الاندلسية فقد غادر البلاد حوالى ٢٫٥٢٦ موريسكى أبحروا من المنكب وبخاصة من مالقه ١٦١٠ ــ ١٦١١ م . وخرج من أشبيلية وقرطبة وجيان حوالى ١٥٫٠٠٠ آخرون .

ووصل عدد كبير منهم الى سبتة وطنجة ومرسيليا ، هذه الأخيرة التى حاول الموريسكيون أن يتجهوا الى شمال افريقيا عن طريقها .

ومن المعروف أن كثيرا من العبيد المسلمين تنصروا ثم عادوا مرة أخرى الى الدين الاسلامى . وهناك أمثلة عديدة لكثير من الموريسكيين الذين ارتدوا الى الاسلام من جديد ، ونتيجة لذلك فقد أقامت السلطات الكاثوليكية محاكم التنكيل والتعذيب .

وفى القرن الثامن عشر لم يعثر الا على عدد قليل من الذين عاودوا الدخول فى الاسلام ، ويقال أن الأقلية الموريسكية قد اختفت وامتزجت بالمجتمع المسيحى وأن الأثر الموريسكى أصبح ذكرى تتغنى بها الأجيال وتترحم على أرواحهم وتفتخر بشجاعتهم وبسالتهم وقوة ايمانهم التى لا نظير لها .

---

(٣٦) انظــر :
Historia, de. planeta 4 Gran Encic. Sevilla. P. C. A.

القضية الأرمنية بين مؤتمرى برلين والحرب العالمية الأولى

١٨٧٨ — ١٩١٤

أ. د. محمد عبد الرحمن برج
عميـــد آداب المنوفية

تمثل الفترة التاريخية بين مؤتمرى برلين والحرب العالمية الأولى فترة هامة فى دراسة القضية الأرمنية ، ذلك أنه منذ سنة ١٨٧٨ وهو التاريخ الذى انعقد فيه مؤتمر برلين دخلت هذه القضية فى دائرة اهتمام السياسة الدولية وشكلت عاملا هاما فى علاقات الدول الأوربية بالدولة العثمانية بل فى علاقات هذه الدول بعضها ببعض • تمثل منطقة أرمنيا التى تقع بين خطى طول ٣٧ و ٣٩ شرقا وخطى عرض ٣٧٫٥ ، ٤١٫٥ شمالا منطقة ذات أهمية استراتيجية كبيرة على مدى التاريخ فلقد ضمت للامبراطورية المقدونية عام ٣٣١ ق•م وبعد هزيمة السلوقيين على يد الرومان فى شتاء ١٩٠ — ١٨٩ ق•م ظهرت أرمنيا الكبرى وأرخ (سترابو) عنهم كما فتحها العرب سنة ٦٤٠ م ولعبت دورا هاما كمعبر من معابر التجارة بين الشرق والغرب كما كانت حدا بين الدولة البيزنطية والاجزاء الشرقية من دولة الخلافة الاسلامية •

ثم كان خضوع القسم الغربى بين أرمنية للعثمانيين على عهد السلطان بايزيد الأول وبعده استكمل كل من السلطان محمد الثانى وسليم الاول فتح قسمها الشرقى وأصبحت تعرف باسم الولايات الست التى تكونت من تبليس ، أرضروم ، خربوت ، فان ، وجـــزء من ديار بكر ، سيواس •

وعندما سمح السلطان محمد الفاتح للبطريريكية الأرثوذكسية بالبقاء فى الاســتانة فى أيدى العثمانيين ومنح اليونانيين عـددا من الحقوق عرفت بالامتيازات الدينيــة أنشأ أيضا بطريريكية أرمنية

واستدعى أسقف بروسه الأرمنى ليقيم فى الاستانة رئيسا دينيا لهذه الطائفة التى بلغ عددها فى مطلع القرن التاسع عشر فى عاصمة الدولة العثمانية ما يقارب ١٥٠ ألف أرمنى[1] •

وبرغم أن الأرمن صار لهم بموجب فرمان صادر من السلطان عبد العزيز فى ١٧ مارس ١٨٦٣ تنظيم قومى حيث أصبحت المسائل الأرمنية من اختصاص مجلس وطنى عام يجتمع مرة كل عامين فى استنبول برئاسة البطريرك للنظر فى أمور هذه الطائفة مع وجود مجلسين صغيرين أحدهما للشئون الدينية والآخر للمسائل الاخرى المدنية ، كان هناك بواعث تذمر بين أبناء هذه الطائفة •

ويذكر المؤرخون عددا من الاسباب لهذا التذمر فى مقدمتها انتقاص السلطات التى كانت للبطريرك الأرمنى بعد التنظيمات العثمانية ومع انتخاب بطريرك أرمنى له تطلعات استقلالية فى سنة ١٨٦٩ اسمه حريمان أصبحت الكنيسة الأرمنية تلعب دورها فى اثارة الأرمنيين ضد الدولة العثمانية وتلاقت مصالح هذا البطريرك مع مصالح الروس الذين كانوا يبغون اثارة القلاقل فى هذه المنطقة طمعا فى ضمها اليهم[2] •

وطالب البطريرك الدولة العثمانية باصلاح أحوال الارمن ورفع مذكرة الى الصدر الأعظم فى سنة ١٨٧٢ م بهذا الخصوص • وازاء ذلك شكلت الدولة العثمانية لجنة من أعضاء متساوية العدد من المسلمين ومسيحيين لبحث هذه الشكاوى التى تقدم بها الأرمن •

---

(1) Kamuron Gurun : The ARMEMAN FILE :
The Myth of Innorcence exposed, London — Niasia — Istanbul 1975.

ص ٤٨ وفى الاحصائية التى نشرها هذا المؤلف والمستمدة من مصادر احصائية للدولة العثمانية بلغ عدد الأرمن سنة ١٨٩٣ ١٫٠١٧٫٥١٩ نسمة . وكانت الدولة العثمانية قد أسست أول مكتب للاحصاء فى سنة ١٨٩٢ ثم صار عددهم فى سنة ١٩٠٥ ١٫١٧٣٫٢٣٣ نسمة وفى سنة ١٩١٤ ١٫٢٩٤٫٨٥١ وحاول البطريرك وهو يقدم عدد الأرمن للدول الأوربية فى مؤتمر برلين أن يزيد عددهم فبالغ فى عددهم وذكر أن عدد الأرمن ثلاثة ملايين .

(٢) المصـــدر الســابق ص ٧٤ .

ومع تدخل الدول الاوربية فى أمور الدولة العثمانية بعــد ثورة البوسنة والهرسك ١٨٧٥ وتقدم الارمن عن طريق بطريركهم بمذكرة الى الدول فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ لبحث المشــكلة الأرمنية ضــمن الأمور التى سوف تبحثها الدول وكان من بين مطالبهم اعفاء الأراضى الموقوفة للكنيسة الأرمنية من الضرائب وأن تكون هناك لجنة فى عاصمة الدولة العثمانية يشترك فيها البطريرك الأرمنى لبحث ما يشكو منه الأرمــن •

وفى تقرير للسفير البريطانى فى الاستانة (هنرى اليوت) أرسله لوزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٧ ديسمبر ١٨٧٦ قال : « زارنى أمس البطريرك الأرمنى وعبر عن أمله أنه باسم المجموعة المسيحية الأرمنية فى الدولة العثمانية التى يعتبر نفسه زعيمها أن يضغط المؤتمر على الباب العالى كى يمنح الامتيازات التى ســوف تقرر للولايات الاخرى التى لم تقم بثورة • وأجبته بحذر وقلت له أن المؤتمر مهمته بحث الوضــع فى الولايات التى تمردت والتى يهــدد أمرها السلم العام ولا أعتقد أن المؤتمر سوف يتناول الوضع الادارى العــام فى الامبراطورية العثمانية •

وأجابنى البطريرك أن (أمته) متضايقة وأنه اذا ما كان الاضطراب ضرورى لجذب انتباه الدول الأوربية فان ذلك أمر ليس من الصعوبة القيام به »(٣) •

ولم يبحث المؤتمر الاوربى الذى عقد فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ فى عاصمة الدولة العثمانية القضية الارمنية وفى نفس اليوم أعلن السلطان عبد الحميد الثانى الدستور •

ويرى بعض المؤرخون الاتراك الذين تناولوا القضية الارمنية بالدراســـة ومنهــــم الدبلوماسى التركى Kamuran Gurum

---

(٣) F. O. 424 / 46 No. 336.

نقــلا عــن Kamuron Gurun

فى كتابه الذى سماه : The ARMENIAN FILE أن الارمن لم يرحبوا باعلان الدستور لأن تحسين الاوضاع والادارة فى الدولة كان ضـد مصلحة خلق الظروف التى تمكنهم من حصولهم على حكم ذاتى وعلقوا آمالهم على تحقيق ذلك من خلال الحرب الروسية التركية التى نشبت سنة ١٨٧٧ .

وعندما سقطت (بلفنا) القريبة من الاستانة وأصبحت روسيا قاب قوسين أو أدنى منها سعى بطريرك الارمن للتقرب من الروس ، ومع انتهاء حرب ١٨٧٧ — ١٨٧٨ بين روسيا وتركيا أصبحت المسألة الارمنية مسألة أوربية .

قبل انتهاء الحرب الروسية التركية أرسـل بطريرك الارمن فى استنبول مذكرة سرية الى الدول الكبرى يلتمس مساعدتهم (الارمن) فى قضيتهم كما طلب الارمن الخاضعين لروسيا من الحكومة الروسية أن تساعد الارمن فى تركيا .

وعندما عقدت هدنة (أدرنه) بعد انهزام القوات العثمانية أمام القوات الروسية طلب الارمن من قيصر روسيا أن يساعدهم على أن تتقرر لهم ما يتقرر للبلغار من امتيازات ، وخلال المباحثات التى دارت بين الحكومتين الروسية والتركية ذهب وفد أرمنى بقيـادة بطريرك الارمن (نرسس Nerses) الى سان ستفانو يلتمس من الحكومية الروسية المساعدة .

ويقول جمال باشا فى مذكراته : « ويعتبر نرسيس أفندى بطريرك الارمن الذى ذهب فى ذلك الحين الى سان اسطفانو للحصول على مساعدة القيصر لقضية الاستقلال الارمنى أكبر مسئول عن فقـدان الثقة التى كانت موضوعة فى الارمن منهم وضياع اللقب الذى لقبهم به الاتراك وهو (الأمة الصادقة)[٤] .

ويعزو جمال باشا النص الذى تضمنته معاهدة (سان ستفانو)

---

(٤) جمال باشا : مذكراته ص ٤٣٥ تعريب على شكرى بدون تاريخ .

فى مادتها السادسة عشر الخاصة بالارمن الى رغبة روسيا فى التدخل فى شئون تركيا الداخلية وذلك بعد أن انقضى أمل تدخلها فى تلك الدولة باعلان استقلال بلغاريا .

وكان البطريرك قد سعى الى روسيا يلتمس أن تتضمن معاهدة صلحها مع الدولة العثمانية نصا خاصا بطائفته .

وتضمنت المادة ١٦ من المعاهدة التى وقعت بين الروس والعثمانيين فى سان ستفانو أن يمنح الارمن الاصلاحات التى يطالبون بها وأن يضمن سلامتهم وأمنهم وألا ينسحب الروس من المناطق التى احتلوها فى أرمنيا حتى تقوم تركيا بتنفيذ تلك الاصلاحات .

وعندما أذيعت نصوص معاهـدة ستفانو عارضتها — كما هو معروف — كل من النمســا وانجلترا ومعها فرنسا ثم تقرر بناء على مبادرة من بسمارك عقد مؤتمر برلين لبحث الامور التى تضمنتها المعاهدة التى أبرمت بين روسيا وتركيا فى سان ستفانو .

وبدأ المؤتمر جلساته بالفعل فى ١٣ يونيو ١٨٧٨ وفى هذا الاثناء بل وقبل عقد المؤتمر الدولى فى برلين نشط الارمن وذهب البطريرك الارمنى الى القنصل البريطانى فى الاستانة (لايارد Layard) فى ١٧ مارس يطلب عون بريطانيا للارمن فى قضيتهم ويلوح له أنه ما لم يحصل الارمن على ما يطالبون فانهم سوف يتجهون الى روسيا وطلب مساعدة انجلترا لحصول الارمن على حكم ذاتى . وعندما سأله لايارد عما يعنى بأرمنيه قال له البطريرك تشمل (قاعـدة سيواس ومعظم ديار بكر والملكة القديمة لقليقلة) وعندما أوضح له لايارد أن معظم هذه المناطق يسكنها أناس مسلمون أقر البطريرك ذلك ولكنه قال له حتى المسلمين فى هذه المناطق غير راضين عن الادارة الحالية وأنهم يفضلون من أجل ذلك حكومة مسيحية . وعندما أوضح له القنصــل البريطانى صعوبة تحقيق ذلك قال له البطريرك أن المنطقة كلها سوف تثور وتلحق بروسيا . وقال لايارد فى تقريره لحكومته أن خطورة ذلك أن وجود أرمنيا تتمتع بحكم ذاتى معناه سقوطها فى يد الروس لاحقا

أو مستقبلا ، وأنه فى حالة ما يكون لروسيا حدود مع سوريا فهذا ليس فى مصلحة انجلترا • وفى تقـــرير تال قال لايارد انه علم أن الارمن يعدون مشروع دستور حكم ذاتى ينقدمون به الى مؤتمر برلين(٥) •

ثم كان سفر وفد أرمنى الى برلين برياســـة البطريرك السابق حريمان(٦) وقدم الوفد مذكرة الى المؤتمر تضمنت خريطة لما يعرف بأرمنيا الواقعة تحت الحكم العثمانى وهى أقاليم أرضروم ، فان ، الجزء الشمالى من ديار بكر والجزء الشـــمالى من خربوط وحدودها الغربية نهر الفرات ويقترح تعيين حاكم أرمنى للولاية يعتمده الباب العالى على شرط موافقة الدول الضامنة لحقوق الارمن على ذلك وأن يقيم فى أرضروم • ويمنح هذا الحاكم كل الصلاحيات التنفيذية ويكون مسئولا عن حفظ الأمن فى كل المنطقة ومسئول عن جمع الضرائب ويعين القضاة ويدعو الجمعية العمومية للارمن • وتكون مدته خمس سنوات ، وقد يعزل من منصبه قبل انقضاء المدة بموافقة الدول الاوربية الضامنة لحقوق الارمن •

وتقسم المنطقة الى سناجق وهذه تقسم الى قضاءات •

ويقترح المشروع الذى تقدم به الارمن للمؤتمر انه لما كان سلامة وأمن المنطقة سوف تكون محلية فانهم يقترحون دفع ٣٠٪ من ايراد المنطقة للخزانة العثمانية كما تضمن المشروع الذى تقدم به الوفد نظاما مقترحا لتشكيل الجمعية العامة وتتكون من عضوين من كل قسم من هذه المنطقة يختارهم السكان المسلمون والمسيحيون ويجتمـــع هؤلاء الممثلون فى مركز السنجق ويختارون اثنين منهم واحد للمسلمين وآخر للأرمن وتتضمن مشروع الارمن ما ينبغى توافره فى عضو الجمعية من

---

(٥) F. O. 424 / 68 No. 644.

(٦) ذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الثالث ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٢ ص ١٥٥٠ أن الوفد الأرمنى سافر برياسة اسقف ارمنى فى استنبول الى برلين والحقيقة أن هذا الأسقف منع فسافر الوفد برئاسة حريمان الذى كان قد عين غيره اسقفا وكان هو خارج تركيا فى ذلك الوقت .

حيث السن اذا اقترح ألا يقل عن خمس وعشرون عاما .... الخ .

وناقش المؤتمر فى جلسات ثلاث (١٢ — ١٥) موضوع الارمن . ونصت المادة ٦١ من معاهدة برلين تعهد الباب العالى أن يجرى بدون تأخير أكثر من ذلك فى الولايات التى يسكنها الارمن التحسينات والاصلاحات التى تحتاج اليها أمورها الداخلية وأن يتعهد بتأمينهم من اعتداءات الشراكسة والاكراد عليهم ويقوم بابلاغ الدول الكبرى المرة بعد الاخرى بالاجراءات التى اتخذها لهذه الغاية وعلى الدول الكبرى أن تراقب تطبيقها[٧] .

ولقد خاب أمل الارمن من وراء مؤتمر برلين الذى لم يحقق لهم الحكم الذاتى الذى كانوا يحلمون به[٨] .

لقد وعدت الدولة العثمانية باصلاح أحوال الارمن طبقا لنص المعاهدة السابق الاشارة اليها وأصبحت الدول الاوربية — طبقا لنص المادة نفسها — ضامنة لهذا الاصلاح فعلى الباب العالى ابلاغها بالاصلاح الذى عليها مراقبة كيفية اجرائه وتنفيذه .

ويرى بعض المؤرخين أن هذه المادة من المعاهدة لم تعط الارمن الا وعدا غامضا من الدولة العثمانية بالاصلاح فى الوقت الذى اهتمت معاهدة برلين بالنص صراحة على استقلال الجبل الاسود والصرب ورومانيا وتعيين حدود كل منها[٩] .

لكنه على كل حال أصبحت القضية الارمنية منذ مؤتمر برلين موضع اهتمام السياسة الدولية خاصة وأن روسيا قد أصبحت بموجب هذه المعاهدة التى عقدت عقب انتهاء هذا المؤتمر متاخمة لأرمنيا العثمانية بعد أن تقرر أن تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن مساحة من أراضيها شملت أراضى (أردهان وقارص وباتوم) وأن يكون الميناء الاخير حرا

---

(٧) عبد العزيز الشناوى : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٥٥٢ .
(٨) Kamuron Gurun المصدر السابق ص ١٠٥ .
(٩) عبد العزيز الشناوى ص ١٥٥٢ .

لا تفرض فيه رسوم على الصادرات أو الواردات . وفى مقابل ذلك تسترد الدولة العثمانية من روسيا بعض المناطق التى كانت قد سلمت بموجب معاهدة سان ستفانو .

ومن المعروف أن روسيا أخذت دورا نشطا عقب مؤتمر برلين فى اثارة المتاعب فى وجه الدولة العثمانية عن طريق القضية الارمنية وأخذت تنشر بين الارمن أن الدولة العثمانية لن تحقق لهم شيئا من الاصلاحات التى تضمنتها معاهدة برلين .

وفى ٨ أغسطس ١٨٧٨ تقدم السفير البريطانى فى الاستانة سير هنرى لايارد بناء على رســالة وصلته من سولسبرى وزير الخارجية ابريطانية أن يضغط على الحكومة البريطانية كى تنفذ هذه الاصلاحات التى وافق مؤتمر برلين عليها . وتشرح الوثائق البريطانية أن السفير البريطانى رفع مذكرة بذلك الى الباب العالى فى ١٩ من نفس الشهر ولكن الخزانة العثمانية كانت تواجه عجزا كبيرا وقد تم ايضاح ذلك للسفير البريطانى خلال اجتماعه بالسلطان عبد الحميد ورئيس وزرائه صفوت باشا والتمس السلطان أن تقرضه الحكومة البريطانية قرضا مقداره ستة ملايين جنيه يستعين بها على تنفيذ الاصلاحات المطلوبة[١٠] .

كما تذكر نفس الوثائق تهديد البطريرك الارمنى باثارة الارمن ضد الدولة العثمانية وذلك خلال اجتماعه مع السفير البريطانى .

ولم ينفذ السلطان عبد الحميد الثانى ما عاهد عليه الدول فى معاهدة برلين وجاءت وزارة الاحرار الى الحكم فى بريطانيا سنة ١٨٨٠ برئاسة جلادستون الذى كانت سياسته تبنى على تشجيع فكرة عدم المحافظة على تمامية الدولة العثمانية وأخذ (جرانفل) وزير خارجيته يتصــل بزملائه وزراء الدول الاوربية الاخرى للعمل مع بريطانيا بشأن موضوع الارمن بعد أن كانت حكومة سولسبرى تفضل العمل وحدها . فأرسل

---

(١٠) نقلا عن Gurun ص ١٠٦ F. O. 424 / 43 No. 263

منشورا الى سفراء بريطانيا فى باريس وبرلين ، فيينا ، سان بطرسبرج ، روما يحثهم على الضغط على الحكومة العثمانية كى تقوم بتنفيذ وعدها الذى تضمنته المادة ٦٦ من معاهدة برلين والخاصة بالارمن .

وشهدت السنوات التالية تفتيت أملاك الدولة العثمانية على يد الدول الاوربية فتأخذ فرنسا تونس سنة ١٨٨١ وفى السنة التالية احتلت بريطانيا مصر ، وفى سنة ١٨٨٥ أصبحت الرومللى الشرقية جزءاً من بلغاريا ورغم أن الاتراك كسبوا حربهم مع الاغريق سنة ١٨٩٧ فقد خسروا كريت التى أصبح لها حكم ذاتى . وشهدت هذه السنوات سوء ادارة فى الدولة العثمانية لم تشـهد لها مثيل . فالحكومات تتعاقب والصدور العظام يتغيرون باستمرار ففى ثلاثين سنة ما بين مؤتمر برلين ١٨٧٨ وثورة الاتحاد والترقى ١٩٠٨ تغير ثمانية عشر من الصـدور العظام بل أن أربعة عشر منهم قد تغيروا ما بين ١٨٧٨ ، ١٨٩٦[11] .

ومضت بريطانيا تضغط على الدولة العثمانية بشأن اصلاح أحوال الارمن والدولة العثمانية تنتحل الاسباب لتأخير تنفيـذ ذلك واتبعت بريطانيا هذا الضغط بالتهديد فأعلن (دوفرين) للسلطان العثمانى أنه فى حالة تقاعس الدولة العثمانية عن تنفيذ الاصلاحات فان اتفاقية قبرص الموقعة بين بريطانيا وتركيا فى ٤ يونيو ١٨٧٨ والمتضمنة فى مادتها الاولى تعهد انجلترا أن تشترك مع الدولة العثمانية فى الدفاع عن أراضى تلك الدولة سوف تلغى[12] ومع ازدياد النفوذ الالمانى فى تركيا سعت انجلترا لدى المانيا كى تستخدم هذه الاخيرة نفوذها فى الضغط على الحكومة التركية تنفيذ ما وعدت به من اصلاحات .

ثم سعت حكومة الاحرار عندما عادت الى الحكم مرة أخرى فى سنة ١٨٨٦ بالتعاون مع فرنسا وروسيا لاجبار السلطان على تنفيـذ

---

(١١) Gurun ص ١١١ .

(١٢) محمد برج : دراسة فى تاريخ اوربا الحديث : انجلترا شرق البحر المتوسط ص ٦٤ .

وعوده فى الاصلاح ولم يستجب السلطان عبد الحميد الا فى ١١ نوفمبر ١٨٩٦ حين نشر ارادة سلطانية بالاصلاحات وكان السلطان قد وافق فى ٢٢ أكتوبر ١٨٩٥ على مشروع اصلاح يتضمن تنفيذ الاصلاحات فى مناطق أرمنيا العثمانية أو الولايات الست كما كانت تسمى وتتضمن فى مادتها الاولى أن يعاون حكام هذه الولايات مساعدين مسيحيين وأن يكون ضباط الشرطة من المسلمين والمسيحيين حسب نسبة السكان وأن يمنع على الفرق الحميدية[١٣] أن تحمل السلاح خارج أماكن تدريبها ولم يتم هذا كله الا بعد نشاط ثورى كبير للأرمن .

وكان الارمن قد شكلوا بعض التنظيمات منذ فترة طويلة بعضها داخل الدولة فى استنبول مثل الاتحاد الطيب ، Benevolent Union فى سنة ١٨٦٠ ، ويقال أن أفراده كانوا من كبار رجال الارمن ولم تكن لهم نيات ثورية وتوالت بعد ذلك التنظيمات الثورية فى داخل الدولة مثل الصليب الاسود Black Cross وقد تأسس فى (فان) .

أما أول تنظيم حزبى ثورى فقد حمل اسم الحزب الارمنى The Armenian Party أسسه مدرس أرمنى اسمه بورتكاليان Portakalian ولد فى استنبول ومضى عدة سنوات فى (فان) وربى جيلا من الثوريين . وفى سنة ١٨٨٥ عندما منع من الاقامة فى فان ذهب الى فرنسا وأصدر صحيفة اسمها أرمنيا ولو أنه بدأ يقدم نفسه على أنه مواطن تركى مخلص ، الا أن أفكاره تغيرت بعد ذلك وأصبح ثوريا وتبنى فكرة أن الاستقلال لا ينال الا باراقة الدماء[١٤] .

أما أخطر الاحزاب وأكثرها أهمية فهما الحزبان اللذان لعبا دورا كبيرا فى العمليات الثورية وهما حزب (هونشاك) Hunchak وأحيانا يسمى (الهنشاك) Hinchak أو Henckak

---

(١٣) Gurun ص ١٢١ .

(١٤) مصطفى كامل : المسالة الشرقية ص ٦ نقلا عن الشناوى ص ١٥٦٦ .

ومعناها الجرس وقد تكون فى جنيف سنة ١٨٨٧ ، ثم عرفت بعد ذلك فى سنة ١٨٩٠ بحزب الهونشاك الثورى بعد أن أصدر صحيفة تحمل هذا الاسم . تأسس هذا الحزب فى جنيف من طلبة من أبناء الارمن الاغنياء الذين تلقوا تعليمهم بالخارج فى باريس وكان أكثرهم نشاطا طالب اسمه (نزاربكيان) Nazqrbekian والذى اشتهر بكتاباته الثورية فى الصحيفة التى حملت اسم أرمينا ثم ذهب الى جنيف مع خطيبته وكانا فى العشرينات من عمرهما وهناك التقيا بأربعة طلبة من الارمن الروس وكونوا مجموعة قادها نزار بكيان لوضع أسس حزب للأرمن وبرنامجه وقد جاء فى هذا البرنامج ألا سبيل الا بالثورة لتغيير أوضاع الارمن وأن هدف الحزب الرئيسى هو الحصول على الاستقلال لأرمنيا التركية استقلالا سياسيا وقوميا[١٥] .

واختار الحزب استنبول كهدف لعملياته ونشاطه ثم حدث اختلاف بين أعضائه فمنهم من رأى أن تبنى الحزب للآراء الاشتراكية معناه حرمان الحزب من تأييد الدول الاوربية وأسرع المنشقون بتأسيس فرع لحزبهم بالاسكندرية فى سنة ١٨٩٦ وعرفوا باسم الهونتشاك الجدد[١٦] .

أما التنظيم الآخــر فعرف باســم الاتحاد الارمنى الثورى أو (الداشناكسيوتون) Dashnaksutyun وأحيانا يطلق عليهم اختصارا (الداشناكس) Dashnaks تكون فى روسيا سنة ١٨٩٠ وضم معظم الارمن الروس بل أن حزب الهوشناك كان منضما لهذا الاتحاد عند تأسيسه ثم انفصل عنه بعد عام واحد فى ٥ يونيو ١٨٩١ وقيل أن السبب هو عدم رضا حزب (الهوشناك) عن هذا الاتحاد وبطء عملياته وتحركاته . وكان من برنامج الداشناكس تأســيس عصابات ثورية واتباع كل الوسائل بالكلمة والفعل لاثارة النشاط الثورى لدى الشعب الارمنى .

---

(١٥) Gurun ص ١٢٤ .

(١٦) يذكر الدكتور الشناوى أن الحادثة وقعت صيف ١٨٩٤ وقد اعتمدنا على Gurun لانه رجع الى المصادر الأولية التركية والأرمنية فى هذا الخصوص .

بدأ الارمن أعمالهم الارهابية الكبيرة « فى أرضروم » ٢٠ يونيو ١٨٩٠ ثم كانت مذبحة ساسون الاولى فى سنة١٨٩٣[(١٧)] حين أصدر حزب الهونشاك الى أعضائه أوامره بقتل عدد من الفرسان الحميدية ورد هؤلاء الفرسان بالانتقام • وانتهت هذه المذابح فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٤ ، وقد أثارت هذه المذابح بريطانيا واقترحت على الدول التى لها قناصل فى أرضروم أن ترسل ممثلين لها الى جانب اللجنة التى أرسلت للاستقصاء عن أسباب الحادث • وضغطت بريطانيا على الباب العالى لكى يقبل ذلك ووافقت فرنسا وروسيا على الاقتراح البريطانى ، وفى ١١ مايو ١٨٩٥ قدم سفراء كل من فرنسا وروسيا وانجلترا فى استنبول مشروع مصالحة بين الحكومة العثمانية والارمن اشتمل على ادخال الاصلاحات فى الولايات الست فى شرقى الاناضول ووافق عليه السلطان فى ٢٢ أكتوبر ١٨٩٥ على نحو ما سبق القول •

كما قام الارمن بعدد من المظاهرات فى عاصمة الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٨٩٥ برغم منع المظاهرات ، ولكن الارمن لم يعبأوا بذلك بل هددوا أنه فى حالة منعهم فان العواقب الوخيمة سوف تحدث كما شهدت مدن أخرى غير الاستانة مظاهرات مشابهة لتلك التى نظمت فى عاصمة الدولة العثمانية مثل سيواس وترابيزون وتبليس وديار بكر وغيرها •

ومن أهم ما شهدته سنة ١٨٩٦ من أعمال عنيفة للارمن قيامهم بالهجوم على مقر البنك العثمانى فى عاصمة الدولة العثمانية يوم ٢٦ أغسطس من تلك السنة حين نظم ثلاثة من الارمن لتلك العملية • وكانت مطالبهم تعيين أوربى لشغل وظيفة قائد الشرطة فى أرمنيا تختاره الدول الاوربية ، أما بقية حكام الاقاليم والسناجق فيقوم به قائد الشرطة بموافقة الباب العالى ، وأن تكون الميليشيات والجندرمة والشرطة من

---

(١٧) من يشاء التفصيل يرجع الى Gurun فى كتابه السابق الاشارة اليه ص ١٤٨ •

أبناء الاقاليم وتحت سيطرة قائد الشرطة ، وأن يتم اصلاح قضائى للمنطقة وحرية دينية وتعليمية وصحافية وتخصص ثلاثة أرباع دخل الاقليم للاحتياجات المحلية التى تحتاجها الاصلاحات فى أرمنيا والغاء القروض على الضرائب ، وأن تخصص ضرائب للخمس سنوات القادمة لاصلاح ما تم من تخريب فى المنطقة والسماح بعودة المهاجرين بحرية وعودة الثروات المنهوبة من الارمن والعفو عن الارمن المحكوم عليهم فى قضايا سياسية وأن تؤلف لجنة مؤقتة من ممثلى الدول الاوربية تشرف على تنفيذ ذلك .

وانتهت عملية البنك بذهاب مديره سير ادجار فنسنت Edgar Vincent الى قصر السلطان ومعه ماكسيموف Maximoff المترجم الاول للسفارة الروسية وحصلا على وعد بحل مشاكل الارمن وضمان بمغادرة المعتدين الارمن على البنك الى الخارج ونقلوا الى يخت مدير البنك ومنه غادروا الاستانة الى مارسيليا على سفينة فرنسية .

وتبع هذه الحادثة استمرار التوتر فى عاصمة الدولة العثمانية فألقى الارمن بعض القنابل ورد البوليس العثمانى بفتح النار عليهم وجاء فى تقرير للسفارة البريطانية فى برقيتها بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٨٩٦ « عاد الهدوء الى الاستانة ولكن هذا المساء فى الساعة السادسة مساء رمى بعض الارمن قنابل فى حى غالاطه قرب البنك العثمانى ورد الجنود العثمانيين بفتح النار ... انه لا يمكن أن ينكر أن استمرار الارمن فى القاء القنابل أثار الاتراك[١٨] وفى تقرير آخر للسفارة فى ٣ سبتمبر ١٨٩٦ الى وزارة الخارجية البريطانية أن الارمن ألقوا قنبلة أخرى .

---

(١٨) F. O. 424 / 188 No. 149 & 169
نقلا عن : Gurun

ويأخذ المؤرخون الاتراك على المصادر الغربية مبالغتها فى أرقام خسائر الارمن الناتجة عن هذه الحوادث وقولهم أن عدد من قتل من الارمن تتراوح ما بين أربعة آلاف وستة آلاف أرمنى ، ويقولون أن الوصول الى مثل هذا الرقم لم يكن ليتم الا باستمرار الحوادث عدة أسابيع فضلا عن أن المسلمين لم يكونوا مسلحين الا بالسكاكين والعصى فكيف يمكن لهم قتل مثل هذا العدد . وفى الوثائق البريطانية أن ١٢٠ جندى من حرس الصدر الاعظم قد قتلوا وحوالى ٢٥ جرحوا . وفى نفس الوثائق أن حوالى ٣٠٠ مسلم قد قبض عليهم بسبب هذه الحوادث وأن محكمة مخصوصة قد شكلت وقدم اليها المتهمون من الارمن والمسلمين على السواء(١٩) .

وتبعت هذه الحوادث ثورة ثانية للارمن فى ساسون فى يوليو ١٨٩٧ قام بها حزب الداشناكس ثم كانت محاولة الارمن الاعتداء على قصر يلدز حيث يقيم السلطان عبد الحميد يوم الجمعة ٢١ يوليو ١٩٠٥ وقد فجروا قنبلة فى عربة ظنا أن السلطان سوف يستقلها لأداء صلاة الجمعة ولم تنجح المحاولة وعفا السلطان عمن اشتبه فيهم لهذا الحادث .

يذكر جمال باشا فى مذكراته أن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى كانوا يعطفون على أمانى الارمن ويستنكرون مذابح السلطان عبد الحميد للأرمن « ويشترك فى هذا الرأى جميع الوطنيين الذين يلقبون بثوار (تركيا الفتاة) فانهم استنكروا حوادث ١٨٩٤ — ١٨٩٦ التى وقعت فى أرمنيا واعتبروها غلطة سياسية خطرة ارتكبها السلطان عبد الحميد الثانى على أمل اطالة مدة حكمه الاستبدادى بهذه الطريقة القاسية . وهذا هو الذى حدا بأحمد رضا بك واخوانه الذين كانوا مشردين فى أوربا وقتئذ الى مد ثوار الارمن لمساعدتهم الفعلية . أما الثوار الآخرون — مثلى — الذين كانوا موجودين فى تركيا فكان هذا

---

(١٩) F. O. 424 / 188 No. 190 Encl. 1
نقلا عن : Gurun p. 159

رأيهم أيضا • فانهم لم يترددوا فى ابداء سخطهم على عبد الحميد للضرر البليغ الذى لحق القضية التركية وخصوصا العثمانية من جراء تلك المذابح »[٣٠] •

ومع قيام الاتحاديين بثورتهم فى يوليو ١٩٠٨ دارت مفاوضات بينهم وبين الارمن الذين تقدموا باقتراح أن تعمل جمعية الداشناكس وكان يمثلها شخص اسمه مالوميان أفندى مع جمعية الاتحاد والترقى للمحافظة على دستور الامبراطورية اعثمانية • أما فيما عدا ذلك فان كلا من الجمعيتين (جمعية الاتحاد والداشناكس) تحتفظ بحريتها فى العمل سواء أكان ذلك لتحقيق برنامجها الاساسى أو فى اختيار الوسائل • ومعنى ذك أن تحتفظ جمعية الداشناكس بتشكيلاتها الثورية فى تركيا مع هذا الفارق الوحيد وهو أن تلك التشكيلات التى ظلت سرية الى الآن تصبح علنية كجمعية سياسية ويعمل أعضاؤها فى رابعة النهار جهرا[٣١] •

ويذكر جمال باشا فى مذكراته أن جمعية الاتحاد والترقى فشلت أن تطوى تحت لواءها جمعيات الارمن بسبب ما كان من مطالبتها بالاستقلال « ولكننا أردنا من جهة أخرى أن تكسب جمعية الاتحاد والترقى نفوذ الجمعية المشتركة التى تمثل سائر الجمعيات الثورية للعناصر العثمانية محتذين حذو المملكة العثمانية التى لم تصر الى ما صارت اليه الا باشتراك أولئك العناصر • فلقد رغبنا أن يتحقق اعتراف العناصر المختلفة بالاتحاد العثمانى ليصبح الدستور فى مأمن من أى خطر »[٣٢] •

ولكن جماعة الداشناكس الارمنية رفضت بتاتا كل تعاون مع جماعة الاتحاد والترقى وظلت تتعاون ــ كما يقول جمال باشا ــ مع السفارة الروسية بصورة علنية •

---

(٣٠) جمال باشا ص ٤٣٩
(٣١) المصدر السابق ص ٤٥٢
(٣٢) نفس المصدر ص ٤٥٣

وفى انتخاب مجلس المبعوثان — التى أجريت فى أوائل شهر ديسمبر ١٩٠٨ فاز الارمن بأربعة عشر مقعدا وكان لهم دور فى مناقشات هذا المجلس من ذلك ما هدد به أحد هؤلاء الاعضاء واسمه (وورتاكس) عند بحث قانون الصحافة فى ابريل ١٩٠٩ أنه فى العهد الحميدى أرسل ستين قنبلة الى استنبول وأنه يعد القنبلة الواحدة والستين لمن يتجرأ على المساس بحرية الصحافة[٢٣] .

ثم كانت انتفاضة الارمن الكبرى فى اطنه بعد القضاء على الانقلاب المضاد ، ويذكر جمال باشا فى مذكراته « أنه فى نفس الوقت الذى نشبت فيه ثورة ١٣ أبريل ١٩٠٩ بقصد القضاء على زعماء جمعية الاتحاد والترقى كانت اطنه تعج بمذبحة تركية أرمنية مروعة . ويعزو جمال باشا أحد أسباب هذه الفتنة الى سوء تأويل الناس للفظ حرية الذى نادت به جمعية الاتحاد والترقى وظهور لفيف من الساسة سموا أنفسهم بمعارضى جمعية الاتحاد والترقى فاتخذوا من التأويل الغريب الذى أولت به لفظة الحرية فى الصحف سلاحا لمهاجمة الجمعية »[٢٤] .

وأعلنت فروع الاحزاب الارمنية الداشناكس والهونشاك عن نفسها فى أطنة بعد ان كانت قبل ثورة جماعة الاتحاد والترقى تعمل فى الخفاء وكان القسيس الارمنى فى أطنه واسمه موشيج أفندى زعيما لفرع حزب الهونشاك فى أطنه ويعزو جمال باشا الى حاكم أطنه العام جواد بك مسئولية الاحداث فى أطنه لضعفه وكذلك الى قائد الفرقة التركية بها ، وانتشرت اشاعة فى أوائل ١٩٠٩ أن الارمن سيثورون على الاتراك وسيبيدونهم عن بكرة أبيهم فى أطنه وأنهم يتحينون الفرصة ومتى حانت سيسمحون لفصائل من أساطيل الدول الاوربية باحتلال الولاية وعندئذ يشرعون فى انشاء دولة أرمنية ، وحدث التوتر بين الاتراك والارمن

---

(٢٣) توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى — مطبوعات معهد الدراسات العربية — دار الهنا للطباعة ١٩٦٠ ص ١٢٦

(٢٤) جمال باشا ص ٤٥٨

وفى ١٤ أبريل ١٩٠٩ كانت مذبحة مروعة راح ضحيتها — على حد قول جمال باشا — ١٧ ألف أرمنى و ١٨٥٠ تركى وعين جمال باشا حاكما لأطنه وبدأ فى تشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة المسئولين عن هذه الحوادث وأمر باعدام ما لا يقل عن ثلاثين مسلما أثبتت المحكمة العسكرية ادانتهم(٢٥) .

وعقب انتهاء الحرب البلقانية الاولى وخلال مفاوضات الصلح التى بدأت فى لندن فى ١٦ ديسمبر ١٩١٢ واشترك فيها سير ادوارد جـراى Grey وزير خارجية بريطانيا وصل وفد أرمنى يلتمس تأييد الدول لحصول الارمن على الاستقلال عن الدولة العثمانية ولكن لم تسفر مساعى الوفد عن نتيجة ايجابية(٣٦) .

وعندما أصدر الباب العالى قانون اصلاح الولايات فى ٢٦ مارس ١٩١٣ عادت قضية الارمن للظهور تتبناها روسـيا وذلك حين أقدم الباب العالى على خطوة ظن أن فيها ارضاء الدول . فقد طلبت خبراء وضباط من بريطانيا للعمل فى قوات الجندرمة فى شرقى الاناضول ، ولكن روسيا عارضت ذلك وطلبت أن يبحث ذلك بينها وبين كل من فرنسا وانجلترا على مستوى السفراء فى استنبول . ولكن المانيا أبدت هى الاخرى رغبتها فى الاشتراك فى بحثه ونتيجة لذلك دعت روسيا فرنسا وبريطانيا والنمسا وايطاليا أن يبحثوا الموضوع على مستوى السفراء فى استنبول وذلك فى منشور أرسل فى ٦ يونيو ١٩١٣ وحين اقترحت المانيا اشراك تركيا عارضت روسيا واجتمع السفراء برئاسة أقدمهم السفير النمسوى وقدم الروس مقترحاتهم التى كانوا قد بحثوها مع خبراء فرنسا وانجلترا تتضمن أن يعين حاكم منطقة الارمن لمدة خمس سنوات بأمر من السلطان وبموافقة الدول وأن يكون مسيحيا

---

(٢٥) المصـــدر السابق ص ٤٩٦

(٢٦) الشـــناوى ج ٤ المصدر السابق ص ١٦٠٨

وأن تكون هناك جمعية ادارية لها دور استشارى للحاكم وأن يسمح فى عضوية هذه الجمعية باشتراك المسلمين والمسيحيين بعد انتخابات تجرى لهذا الغرض فى كل خان وحده ، ومضت روســيا تقنع المانيا بالوقوف معها موقف المؤيد لهذا المشروع خاصة وكان النفوذ الالمانى فى تزايد الدولة العثمانية فى ذلك الوقت بعد البعثة العسكرية برياسة ليمان فون ساندرز وتوصل المؤتمرون فى ١٣ يناير ١٩١٤ الى اقتراح تطبيق نظام المراقبة الاوربية على أرمنية على غرار النظام الذى وضعته الدول الأوربية لمقدونيا وانشاء وظيفتين يشغلهما أوربيان من دولتين محايديتين هما هولندا والنرويج وأن يلقب كل منهما بالمفتش العام وفى ضوء قرار اللجنة وقعت الدولة العثمانية اتفاقا فى ٨ فبراير ١٩١٤ •

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى لم يكن المفتشون قد بدأوا عملهم وقررت الدولة العثمانية وقف مشروع الاصلاح ودخلت القضية الارمنية مرحلة جديدة ابان هذه الحرب ، أرجو أن تكون موضوعا لبحث آخر ان شاء الله تعالى •

الغـــزو الفرنسى لمصر

فى ضـــوء الوثائق التركيــة

دكتور / محمــد كمال يحيى
كلية السياحة ــ جامعة حلوان

اتفق أكثر المشتغلين بالتاريخ على أن الحملة الفرنسية على مصر من أبرز معالم التاريخ الحديث ، سواء على المستوى المحلى ، أو على مستوى المنطقة بأسرها • ذلك لأن مصر كانت منذ وقت طويل ملتقى للمواصلات العالمية ، ومعبرا تمر به التجارة بين الشرق والغرب ــ وقد جعل موقعها الجغرافى ، فى أضيق بقعة بين البحرين المتوسط والاحمر ، محطة مهمة لتجارة أفريقيا وأوربا وآسيا ــ ولم تفقد تلك الاهمية الا بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول التجارة الى الطريق البحرى حول أفريقيا •

وكان مما وجه الانظار الى مصر ، أنها كانت من أجزاء الامبراطورية العثمانية ــ وكان المعاصرون يعتقدون أن هذه الامبراطورية على وشك الانهيار ، ورأى الفرنسيون ــ بصفة خاصة ــ أن يكون لهم نصيب ، الى جانب روسيا والنمسا فى تركة العثمانيين وأن تكون مصر من هذا النصــيب •

وقد ساعد على تحريك هذه الرغبــة لدى الفرنسيين ، اشتعال الثورة فى عــام ١٧٨٩ ، ثم انتصــارات نابليون بونابرت فى الحملة الايطالية ، وتحطيم المحالفة الدولية الاولى التى تألفت ضد فرنسا منذ عام ١٧٩٣ وعقد الصلح مع النمسا المنهزمة فى معاهدة كامبوفورميو فى ١٧ أكتــوبر ١٧٩٧ • وكان على فرنســا بعد ذلك أن تقتص من انجلترا ، التى ألبت الدول ضدها ، اما بتوجيه الضربة فى عقر دارها ، واما بالحاق الهزيمة بها فى مستعمراتها وطردها من الهند خصوصا ،

بحيث ترغمها على طلب الصلح ، ثم قبول الشروط التى تمليها عليها حكومة الادارة •

ولما كانت فرنسا قد جربت غزو انجلترا مباشرة قبل ذلك فى أواخر عام ١٧٩٦ وفى أوائل عام ١٧٩٧ ، بانزال حملة فى ايرلنده ، وباءت هذه التجربة بالفشل — فلم يتبق أمامها الا اتباع الطريق الثانى ، وهو هزيمتها فى الهند • وكان نابليون نفسه من أنصار هذه الفكرة — وزاد اقتناعه بها بعد الرحلة التفتيشية التى قام بها فى الشواطىء الشمالية فى مطلع عام ١٧٩٨ ، وقدم تقريرا الى حكومة الادارة ، يتضمن أن من المتعذر تنفيذ المشروع الخاص بغزو انجلترا قبل تنظيم البحرية الفرنسية وتجهيز عدد كبير من السفن ، واعداد الموانى الشمالية ، واتخاذ غير ذلك من التدابير الملحة قبل الاقدام على الغزو المنتظر • واقترح نابليون على حكومته أن توجه أنظارها صوب « الشرق » ، وأن تسعى لغزو انجلترا بطريق غير مباشر ، بتهديد مستعمراتها فى الهند ، وذلك عن طريق ارسال جيش كبير لفتح مصر والاستيلاء عليها •

وفى نفس الوقت ، كانت حكومة الادارة قد تلقت تقريرا آخر من « شارل مجالون » ، قنصلها القديم فى مصر — والذى كان قد جاء الى باريس ليبسط أمام حكومتها مدى الاضرار التى لحقت بالتجارة الفرنسية فى مصر على أيدى البكوات المماليك • وفى هذا التقرير ، تحدث مجالون باسهاب عن نظام الحكم العثمانى فى مصر ، وراح يعدد المساوىء التى شكا منها الفرنسيون فى عهد سيطرة المماليك ، وبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها • وكان فى رأيه أن بوسع الفرنسيين أن يعطوا مباشرة من مصر على طرد الانجليز من الهند ، أو أن يقنعوا بتعطيل تجارة الانجليز مع الهند ، ويستأثروا بهذه التجارة من دونهم •

كان التفكير فى الاقتصاص من انجلترا يسير حثيثا الى جانب

التفكير فى احياء مجد الامبراطورية الاستعمارية — ولم يكن القضاء على قوة الانجليز وارغامهم على قبول الصلح مع فرنسا وفق الشروط التى ترتئيها حكومة الادارة ، ثم احراز التفوق السياسى فى أوربا ، سوى وسيلة لتحقيق أهداف فرنسا الاستعمارية . وقد تبلور هذا التفكير فى التقرير الذى وضعه « تاليران » — وزير الخارجية الفرنسية فى حكومة الادارة بتاريخ ١٣ فبراير عام ١٧٩٨[١] — والذى يحتل مكانة كبيرة فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، نظرا لما بذله صاحبه من جهد ، عندما أخذ على عاتقه أن يعرض للعلاقات التى قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر ، وأن يبسط الآراء التى نادى بها كثيرون ممن سبقوه فى الكتابة فى أوقات مختلفة لاظهار مزايا امتلاك هذه البلاد واستعمارها ، وذلك الى جانب مسعى تاليران نفسه فى اقامة الحجة على أن الفرصة قد باتت سانحة لارسال الحملة على مصر وفتحها . وفضلا عن ذلك ، فقد تضمن هذا التقرير ذكر كل تلك المبادىء التى استرشدت بها فرنسا فى سياستها الخارجية ازاء الباب العالى فى أثناء الغزو الفرنسى ، ثم عمل بونابرت نفسه ، ثم خلفاؤه من بعده على تنفيذها عند احتلال هذه البلاد ، وبدء التجربة الاستعمارية الجديدة — أما تاليران ، فقد اعتمد عند اعداد هذا التقرير على كل ما وقعت عليه يده من كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر ، وبخاصة « فولنى » ، كما اعتمد على تقارير شارل مجالون . وليس من شك فى أن تاليران وحده كان صاحب هذه التقرير ، والمسئول عن كتابته ، على الرغم من ذيوع الاعتقاد بأنه كان لبونابرت يد فى اعداده — لكن الرسائل التى تبادلها بونابرت وتاليران بعد ذلك تعطينا فكرة التوافق التام بين نظرتيهما .

على أية حال — فان وثائق هذه المغامرة الفرنسية بدأت تتحدد ،

---

(١) انظر عرضا وافيا لهذا التقرير ، نقلا عن مصادره الأصلية فى : دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر — دار الفكر العربى ، القاهرة ، (ب.ت) — ص ٦٩ .

عندما سمح نابليون لخياله أن يجمح . ويستعيد ذكريات الماضى ، بعد معركة واترلو . ويملى قصة الحملة المصرية ، ازجاء للوقت فى جزيرة سانت هيلانه — وشخص فى الوقت نفسه تلك الدوافع التى حملت حكومته على انفاذ هذه الحملة ، فقال : « كان ضعف حكومة الادارة يتحكم فيها ، فهى لكى تعيش ، تحتاج الى حالة حرب دائمة تماما كما يحتاج غيرها من الحكومات للسلام » . وقد عكف على جمع هذه « الذكريات » وغيرها من الكتابات المعاصرة « المركيز دلاجونكيير » فى كتاب من خمسة مجلدات ، تضم أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كبيرة ، مطبوعة بحروف صغيرة ، بمناسبة مرور مائة عام على تنفيذها[٢] . ومنذ ظهور هذا الكتاب ، ومعظم المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع ، ينقلون عنه الكثير من تفاصيل ودقائق الحملة الفرنسية على مصر . وأشهر الذين نقلوا عن « دلاجونكيير » المؤرخ الامريكى « كريستوفر هيرولد » فى كتابه الممتاز « بونابرت فى مصر »[٣] — وهو فى ذلك يعترف صراحة فى مقدمة كتابه ، حيث يقول : « اعترف بدينى له .. فدلاجونكيير أكثر من قرأت من المؤرخين تدقيقا — وهو لم يصدر حكما على أحد ، ولكن مجلداته الخمسة تؤلف أكمل ملف تطمع فيه محكمة من المؤرخين ، استند فيها الى وثائق غير منشورة ، يفوق عددها ما أتيح لأى كاتب بعده » .

أما على الجانب المصرى — الجانب الذى وقع عليه الاحتلال — فقد عاصر الحملة الفرنسية ، وراقبها ، وسجل أحداثها بالتفصـــيل شاهدا عيان ، هما الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والمعلم نقولا الترك . ومن خلال مشاهدتهما ، التى تعتبر أقدم ما كتب باللغة العربية عن

---

(٢) — De la Jonquiere : L'Expedition d'Egypte (1798 1801). Paris, 1899.

(٣) — J. Christopher Herold : Bonaparte in Egypt, New York, 1962.

وقد ترجمه الى العربية فؤاد اندراوس ، وراجعه الدكتور محمد أنيس القاهرة ، يونيو ١٩٦٧ .

تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر ، يستطيع الباحث أن يستشف موقف المجتمع الشرقى المحافظ من حضارة الغرب ، وكذلك الفلسفات السياسية والاجتماعية ، التى كانت تتصارع فى عصرهما ، لاسيما وأن مصر قد ابتعدت عن التيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التى كانت تشع من الغرب ما يقرب من ثلاثة قرون[٤] .

ويبدو أن الدافع الرئيسى الذى دفع الجبرتى الى كتابة مؤلفه الشهير « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » ، هو خيبة الامل التى أصابته بعد عودة العثمانيين ، فأدرك أن الحكم العثمانى لم يكن خيرا من الحكم الفرنسى ، بل ربما كان الحكم الفرنسى يفضله من بعض الوجوه . ويقع « عجائب الآثار » فى أربعة أجزاء ترجم الجزء الثالث منه الى الفرنسية ، وطبع فى باريس عام ١٨٣٨ لأول مرة — وهنا قد يتبادر الى الذهن سؤال ، عن السبب فى عدم طبعه بلغته العربية — وللاجابة على ذلك نجدها فى الكتاب نفسه ، حيث يتميز بعنفه فى خصومة محمد على ، والحقائق المؤلمة التى سجلها عن الفترة الاولى من حكمه[٥] — الامر الذى جعل بعض المؤرخين يتهمون محمد على بقتل الجبرتى ، أو قتل ابنه ، فلم يكن مما يرضى عنه أحد من أسرة محمد على أن يدرس هذا التاريخ ويعرف الناس ما سجله عن مؤسس الاسرة . وقد أعيد ترجمة الكتاب بالكامل الى اللغة الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء ، وطبع بالمطبعة الاميرية ببولاق بين عامى ١٨٨٨

---

(٤) انظر دراسة ممتازة عن بعض مصادر التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر فى :
— دكتور عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٨٣ — ص ٦٥ .

(٥) محمود الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر — الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

و ١٨٩٦[٦] — وقد كشف مؤخرا عن نسخة من « عجائب الآثار » مكتوبة بخط الجبرتى ، وجدت فى مكتبة المتحف العراقى ببغــداد ، ومخطوطة أخرى منه ، عليها تعليقات بخط الجبرتى ، موجودة فى مكتبة جامعة كمبردج . أما فى القــاهرة فيوجد بدار الكتــب المصرية من « عجائب الآثار » ثلاث عشرة نسخة مخطوطة ، منها أربع كاملة ، وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة .

وللجبرتى كتاب آخر ، هو « مظهر التقديس بذهاب الفرنسيس » كتبه فى تاريخ الحملة الفرنسية وفترة احتلالها مصر — ويوجد بدار الكتب منه مخطوطان ، كما يوجد نسخة منه فى المكتبة الاهلية فى رامبور بالهنــد .

وهناك كثير من الاختلافات بين كتابى الجبرتى « مظهر التقديس » و « عجائب الآثار » — وهى ، على أى حال ، اختلافات قليلة القدر والاهمية ، ويبدو أن السبب فى ذلك ، هو أن الجبرتى قد وجد نفسه وحيدا بعد مغادرة الفرنسيين لمصر ، وعودة السلطة للعثمانيين ، فشرع فى تأليف ذلك الكتاب ، يذم فيه الفرنسيين ، ونابليون ، وأسقط منه ما كان فيه من مدح فى كتابه الاول .

أما المؤرخ الثانى الذى كتب عن الحملة الفرنسية باللغة العربية بعد عبد الرحمن الجبرتى ، فهو « المعلم نقولا بن يوسف بن ناصيف أغا الترك » (١٧٦٣ — ١٨٢٨) — الذى وضع كتابا عن تاريخ الحملة فى مصر والشام ، بعنوان « ذكر تملك جمهــور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » . وكان نقولا الترك قد زار مصر فى سبتمبر عام ١٧٨٩ ، وأقام فيها فترة من الزمن وربما عاد الى لبنان بعد أن أسس علاقات طيبة بأوساط الشوام المهاجرين الى مصر من التجار

---

(٦) المترجمون هم : شفيق بك منصور يكن ، عبد العزيز كحيل بك ، جبرائيل نقولا كحيل ، اسكندر عمون افندى .

وكتاب الدواوين المنتمين الى طائفة الروم الكاثوليك مثله[٧] ، ولم يغادر نقولا الترك مصر مع رجال الحملة كما اعتقد البعض ، بل ظل مقيما بها حتى عام ١٨٠٤ ، حين غادرها عائدا الى « دير القمر » حيث استأنف مهنة التدريس . وقد استطاع خلال السنوات التى قضاها فى مصر ، لمراقبة الجيش الفرنسى وتحركاته ، أن يجمع المعلومات والملاحظات ، التى كونت كتابه الضخم عن الحملة الفرنسية . وقد ظهرت أول طبعة لكتابه فى عام ١٨٣٨ بباريس ، فى نفس الوقت الذى تم فيه طبع الجزء الثالث من كتاب الجبرتى « عجائب الآثار » — وهى عبارة عن ترجمة فرنسية قصيرة لتسع وستين صفحة ، قام بها « الكسندر كردان » مترجم القنصلية الفرنسية فى الاسكندرية — كما ظهر فى نفس الوقت تقريبا نسخة كاملة باللغة العربية ، طبعت فى باريس عام ١٨٣٩[٨] .

وفى عام ١٩٤٨ ، اقتنت مكتبة الملك السابق فاروق من احدى مكتبات القاهرة ، مخطوطا يقع فى ٢٥٩ صفحة ، وقد جاء غفلا من العنوان واسم المؤلف ، وهو منسوخ بخط اليد بشكل غير متغير ، فيما عدا بضع صفحات فى آخره لم تلق العناية الكافية فى نسخها . وبعد أن تحقق « جاستون فييت » — فى ضوء ترجمة كردان ، من أن المخطوط هو نفسه تاريخ نقولا الترك ، قام بنشره بعد ترجمته الى الفرنسية والتعليق عليه ، وطبعه المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة فى عام ١٩٥٠ تحت عنوان « مذكرات نقولا الترك »[٩] .

---

(٧) دكتور عمر عبد العزيز ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٨) اعتمد عليها استاذنا الدكتور محمد فؤاد شكرى فى مؤلفه السابق الاشارة اليه ، ص ٧٠٤ — وذكر أنه طبع فى « مدينة باريز المحمية عام ١٨٣٩ » .

(٩) عنوانه بالفرنسية :

— Nicolas Turc, Chronique D'Egypte 1798 - 1804, editee et traduite par Gaston Wiet, (Le Caire, 1950).

وقد اتبع نقولا الترك الطريقة التقليدية فى كتابة تاريخه — اذ أخضع تأريخه للاحداث لطريقة اليوميات والحوليات . ومما أضفى على كتابه قيمة تاريخية ، أنه كان على اتصال بكبار القوم ، من وطنيين وأجانب ، حكاما وولاة وموظفين وتجار ، ووقف على أحوالهم وأعمالهم ، وأرخ أهم أحداثهم . ورغم أنه اقتصر فى تاريخه على تسجيل الاحداث ، ولم يتعد ذلك الى التعليل والنقد ، فانه امتاز بدقة فى النظر ، وصواب فى الحكم ، وتحر لبعض المعلومات ، ولباقة فى الوصف .

وقد بدأ نقولا الترك مذكراته عن الحملة الفرنسية بلمحة سريعة عن التطورات التى حدثت فى فرنسا من الثورة الى قيام الحملة مما يدل على أن نقولا الترك كان ملما بتاريخ الثورة الفرنسية ، وهو فى هذا يختلف عن معاصره عبد الرحمن الجبرتى ، الذى يبدو أن معلوماته عن الثورة الفرنسية وتطوراتها كانت منعدمة . على أنهما اتفقا — من ناحية أخرى — فى سرد أحداث الحملة الفرنسية وأهم تطوراتها ، خاصة سياسة بونابرت الاسلامية ، وموقف المجتمع الشرقى الاسلامى من التقاليد والعادات الغربية ، حيث كانت وجهتا نظرهما متطابقـــة تقـــريبا .

وسواء كانت وجهتا نظرهما اتفاقا أو اختلافا ، فان هذين المصدرين يعالجان مرحلة هامة من مراحل التريخ المصرى فى مطلع القرن التسع عشر ، بمعاصرتهما لفترة الحملة الفرنســـية — حيث غطيا أحداثها المتلاحقة ، وانعكاساتها المختلفة ، من اقتصادية واجتماعية على المجتمع المصرى ، مما يجعلهما أهم مصدرين لا غنى لأى باحث عن الرجوع اليهما ، والاعتماد عليهما فى رسم الصورة الحقيقية لتاريخ مصر فى تلك الفترة .

وبطبيعة الحال شغلت كتابات الرجلين حيزا لا بأس به من مؤلف أستاذنا الدكتور محمد فؤاد شكرى الذى أشرنا اليه من قبل « الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر » — بالاضافة الى أنه رجـــع

الى مؤلف « المركز دلاجونكيير » الذى ألمحنا اليه أيضا على الصفحات السابقة ــ هذا الى جانب العديد من الوثائق الاخرى التى اعتمد عليها ، بما فيها الرسائل والمذكرات والتقــارير وكتب الرحلات والاسفار ، وكتابات وبحوث المعاصرين ، والتراجم الشخصية ، سواء كانت فرنسية أو انجليزية ــ بحيث جاء ذلك المؤلف سفرا يضم بين دفتيه كل صغيرة وكبيرة تناولتها مسألة الحملة الفرنسية على مصر •

لكن باحث التاريخ لا تقف تطلعاته عند حد ــ فقد تسوقه المقادير فى مجال بحثه ، الى العثور على ما يغير ذكره من قضية معينة ، استقرت ملامحها فى مفاهيمه ــ وهو فى هذه الحالة لا يستطيع الا أن يتعامل معها ليثبت مدى صحتها فى تعارضها لمداولات القضية القائمة • وربما تقوده الظروف الى العثور على ما يؤكد معلوماته عن هذه القضــية نفسها ، عندئذ تترسخ تلك المفاهيم ، وتزداد الاسانيد لهذه القضية ذاتهــا •

وقد سنحت بعض الظروف لكاتب هذه الدراسة فى التعامل مع احدى دور الوثائق الاكاديمية الحديثة[١٠] ــ التى استطاعت الحصول على بعض الوثائق التركية ، تتعلق بموضوعنا عن الحملة الفرنسية ، لم يسبق ــ على حد علمنا ــ أن تناولتها أيدى الباحثين ، وربما تكشف المرحلة القادمة على المزيد منها •

وعلاقة تركيا ــ أو الدولة العثمانية حينئذ ــ بالحملة الفرنسية على مصر ، وثيقة الصلة ، لأنها كانت صاحبة السيادة عليها ، منذ أن فتحها الســلطان سليم الاول فى عام ١٥١٧ ، وحتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ، وتبعية مصر لها لم تتغير طوال هذه الحقبة الطويلة ، على الاقل من الناحية الشكلية • لذا فان اهتمام السلطان العثمانى بما

---

(١٠) مكتبة الوثائق ، بدارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، المملكة العربية السعودية •

يجرى على الارض المصرية كان يدخل ضمن واجباته الرئيسية ، كولاية لها وزنها ، ضمن الولايات الاخرى التى تتكون منها امبراطوريته الواســعة .

الغريب فى الامر — أن العلاقة بين الباب العالى وحكومة الادارة فى فرنسا لم تكن من التوتر أو السوء ، بحيث تتوقع الحكومة العثمانية هجوما فرنسيا على احدى ولاياتها . وحتى القائم بالاعمال الفرنسى فى استانبول « بيير روفان » Pierre Ruffin لم يكن يعلم بأمر الحملة الفرنسية على مصر ، الا بعد أن أخبره « تاليران » فى ١١ مايو ١٧٩٨ ، قبيل اقلاع الاسطول الفرنسى مباشرة ، وطلب اليه أن يقنع البابالعالى بأن الحكومة الفرنسية لا تنوى القيام بأى عمل عدائى ضده ، وأن يعلن قرب وصول مفاوض فرنسى تخول له كامل السلطات . ولم يصل الخطاب الى « روفان » الا فى ٢٨ من شهر يونيه ، عشية نزول الفرنسيين الاسكندرية . وعلى حين ظل « روفان » طوال هذه المدة يجهل مشروع الحملة تماما ، كانت الحكومة العثمانية على علم بالاستعدادات الفرنسية منذ شهر مايو ، بفضل سفيرها فى باريس . وفى ١٩ يونيو ، علم « روفان » لأول مرة بنبأ الحملة من خلال مقابلة تمت بينه وبين « الريس أفندى » ، وزير خارجية الدولة العثمانية . وثارت شكوى الباب العالى حول أهداف فرنسا ، لاسيما أن فرنسا لم ترسل سفيرا لها الى اسطنبول ، ليفسر لها نواياها[١١] وقد تأكدت هذه الشكوك بوصول تقرير عن الحالة فى مصر ، بعث به « محصل قبرص » — الذى يبدو أنه كان فى الاسكندرية عند وقوع الغزو الفرنسى ، وفر منها الى رشيد مع بعض زملائه[١٢] ، ومنها الى دمياط ، قبل أن يتوجه

---

(١١) دكتور عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١١١

(١٢) ذكر أسماءهم فى التقرير ، وهم : اسماعيل اغا ، والحاج عثمان ، وقونا التركى .

عائدا الى قبرص • ونص ذلك التقــرير على أنه « فى ٢٩ حزيران (يونيو) ، جاء الفرنسيون ، واستولوا على الاسكندرية ، وبعدها استولوا على رشيد وخرجوا الى قرية الرحمانية القريبة من رشيد ، وحفروا الخنادق — وجاء المماليك الى قرية تبعد عن الرحمانية بحوالى نصف ساعة ، واحتشدوا فيها ، ولكنهم لم يباشروا الحرب • هــدم الفرنسيون منازل (الروم) وقتلوا الرهبان • ليجعل الله العلى القدير النتائج على خير ، ويخلص كل النصارى من هذا البلاء • فى هــذه الايام ، احترسوا ولا ترسلوا شيئا »[١٣] •

وفى ملحق لذلك التقرير ، أشار كاتبه الى : « أنه قد مر على احتلال الاسكندرية ١٨ يوما ، وعلى احتلال رشيد ١٤ يوما — وقيل أن لهم من السفن الكبيرة والصغيرة حوالى ٣٨٠ قطعة بحرية — وأنهم استولوا على الاسكندرية خلال ساعتين • وفى القتال مات من مات ، وأصيب من أصيب — وبعد دخولهم المدينة ، لم يتعرضوا لاموال أحد ولم يسمحوا بنهب الممتلكات • وقيل أن الذى كان يتعرض لأحد من المواطنين ، يقتل فى الحال • على أنهم استمروا فى هدم بعض الكنائس فى الاسكندرية ورشيد ، وأهلكوا كثيرا من الرهبان ، ولم يجرؤ أحد من النصارى على التصدى لسلوكهم »[١٤] •

وأهم ما يثير الدهشة فى ذلك التقرير ، موقف الفرنسيين فى بداية الحملة من النصارى ، خاصة فيما يتعلق بهدم الكنائس وقتل الرهبان — وهم المسيحيون ، على نفس الديانة ، وان اختلفوا فى المذهب • على أن هذه الدهشة لا تلبث أن تخبو ، اذا علمنا أن نابليون نفسه — قائد الحملة — لم يولى مثل هذه الامور أهمية كبيرة بل انه لم يكن يؤمن

---

(١٣) مجموعة الوثائق التركية — الوثيقة رقم ٦٥٨٩ — (٥/٤ —) — مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، (ب.ت) .

(١٤) نفس المصدر السابق — انظر صورة الوثيقة على الصفحة التاليــة .

التاريخ

الرقم

بدين من الاديان ، ولم يبلغ فى يوم من الايام تغلغل العقيدة الدينية فى نفسه ، مهما كان نوع هذه العقيدة درجة قد تحدث تأثيرا ظاهرا فى سياسته • على أن هذه الدهشة تتبدد تماما اذا رجعنا الى المنشور الذى كان قد أعده وهو ما زال على ظهر البارجة « أورليان » ، وطبعه « مارسيل » ، وأذاعه عند دخوله الاسكندرية فى ٢ يوليو ١٧٩٨ ، وذكر فيه : « أن الفرنسيين قد نزلوا فى روما ، وخربوا فيها كرسى البابا ، الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الاورشليمى ، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » • وقد اتخذ معظم المؤرخين من هذا النهج الذى سلكه نابليون دليلا على محاولة نابليون فى التقرب من المصريين عن طريق الدين • وهذا الاسلوب يدل من ناحية أخرى — على مبلغ ما بذله بونابرت من عناية وجهد فى محاولة لتفهم نفسية تلك الشعوب التى جاء لغزو بلادها وعقليتها ، ووصل به الاجتهاد الى حرصه على اظهار اسلامه ، وحثه لقواده وضباطه على أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائر دينهم وتقاليدهم ، وعدم الاعتداء على ممتلكات الغير ، وهو ما أكدته هذه الوثيقة • على أنه من الثابت قطعا ، أن نابليون لم يشهر اسلامه على نحو ما فعل « مينو » مثلا — لهذا ، فان سياسته ، فى بداية الغزو تجاه النصارى لا تعدو أن تكون مرحلة ، قصد من ورائها اكتساب تأييد المسلمين للتواجد الفرنسى فى مصر ، ثم لم يلبث أن انقلب الحال بعد رحيل نلبليون من مصر واسناد قيادة الحملة الى كليبر ، ومن بعده مينو •

وفى وثيقة تركية أخرى ، موجهة الى السلطان ، عرض الصدر الاعظم بيانات أوفى عن جنود الغزو الفرنسى[١٥] من واقع رسالة بعث

---

(١٥) مجموعة الوثائق التركية — الوثيقة رقم ٦٦٠٢ — (٢/١ — ٤) مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز — الرياض ، مؤرخة فى (١٢١٣ هـ) — (١٧٩٨ م) •

بها أحد قادة الاسطول الفرنسى يدعى « زوبر » الى ناظر البحرية فى فرنسا واســتطاع أعوانه من الاتراك الموجودين فى الاسكندرية الحصول عليها يقول فيها : « وصل الاسطول الى الاسكندرية ، وفى اليوم التالى احتل الجنود أبو قير ، وتمكنوا بعد ذلك من دخــول رشيد — وهم الآن فى طريقهم الى القاهرة تحت قيادة بونابرت عن طريق النهر • وقد اتفق عرب الصحراء (البدو) الذين تقابلوا مع نابليون ، على أن المماليك ليست لديهم قوات كافية على صد الجنود الفرنسيين ، وقد وعدهم بونابرت أن غايته تخليص القبائل والعشائر من تسلط المماليك على مقدرات البلاد ، فانه من المرتقب — قبل وصول عساكرنا ، أن يهجم هؤلاء (البدو) على القاهرة ، وفى هذه الحالة نستفيد من أحداث الوقيعة بينهم وبين المماليك » • ويستطرد كاتب هذه الرسالة قائلا : « كانت عدد السفن التى نقلت الذخائر للعسكر من طولون ومارسيليا وجنوده وأباجو وجونياركا •• وغيرها ٢٩٣ ســفينة ، وعليهــا ٤٥٠٠ ملاحا — وهى تحمل ٢٢ ألف عســكرى و ١٢٠٠ بغل » •

ثم أشارت الرسالة فى موقع آخر ، الى أنه عندما بلغ الاسطول الفرنسى الاسكندرية » •• علمنا أن الاسطول الانجليزى قد سبقنا اليها بثلاثة أيام ، وأنه كان مؤلفا من ١٤ قطعة بحرية ، ثلاث منها ذات مستودعات •• ونعتقد أن الاســطول الانجليزى قد توجه الآن الى الاسكندرونة وربما يعود الينا هنا مرة أخــرى — ولذلك خففنا عن أسطولنا حمولته من عساكر البر ، بعد أن أصدر نابليون تعليماته الينا بسرعة اخلاء السفن من العسكر »(١٦) •

كان مما ضايق الحكومة العثمانية ، أن ترى دولة صديقة تحتل ولاية من أهم ولاياتها دون انذار أو ايضاح — ولكن الباب العالى لم

---

(١٦) المصدر السابق نفســه — انظر صورة الوثيقة على الصفحة التاليــة •

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يكن من القوة بحيث يعلن الاحتجاج ، ويندفـــع ويتهور ــ وكان على الدولة العثمانية أن تختار بين ثلاثة أمور ، الامر الاول ، أن تقاوم الحملة الفرنسية علانية وبقوة السلاح • والامر الثانى أن تتحالف مع الجمهورية الفرنسية • والامر الثالث ، أن تتظاهر بموافقتها على بقاء مصر فى أيدى الفرنسيين ، ولكن تعمـل سرا على اقامة العراقيل فى طريقهم • وبالنسبة للامر الاول ، فقد كان لدى العثمانيين أكثر من سبب يمنعهم من اتخاذ هذا الاجراء ــ فلكى يحققوا ذلك ، كان عليهم أن يعقــدوا معاهدات مع أعــدائها التقليديين ، وهــذا يعرض أمن الامبراطورية لتهديد القوات الروسية والنمسوية ، التى ستهرع عندئذ لنجدتها • وبالاضافة الى ذلك ، فان الجنود الفرنسيين الذين يرابطون فى جزر الايونيان يستطيعون بسهولة السير الى الاستانة ومعاقبة الباب العالى قبل وصول حلفائه • ولم تستطع الامبراطورية العثمانية ــ بدافع الكرامة ــ أن تختار الطريق الثانى • أما الامر الثالث ، فقد كان مطابقا لأسلوب وطريقة الحكومة العثمانية • ففى حين نرى السلطان العثمانى يصرح بأنه لن يفرط فى حفنة من رمال مصر ، ويطالب المماليك بألا يثقوا فى مناورات الكفرة ويعدهم باعطائهم كل مدد ونجدة ، يرسل الى الولايات منشورات توضح أن الفرنســيين ما يزالون أصــدقاء الامبراطورية العثمانية ، ولابد أن يعاملوا معاملة حسنة ، بالرغم من أن « شريرا يدعى نابليون قد غزا مصر » ــ وهو خارج على سلطة الحكومة الفرنسية ، التى لا يد لها فى ذلك[١٧] •

وهكذا ، لم تقطع الدولة العثمانية علاقاتها الرسمية بفرنسا واكتفى العثمانيون بالتضييق على « روفان » ــ وظل الامر كذلك حتى ٢٢ أغسطس ، عندما وصلت أخبار انتصار « نلسون » الى الاستانة ، فغيرت موقف السلطان ، وقضت على تردده فيما يتبعه ازاء الحملة •

---

(١٧) الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، المصدر السابق ، ص ١١٢ •

ففى ٢ سبتمبر ، استدعى « روفان » لمقابلة « الريس أفندى » — الذى ألقى كلمة قصيرة ، قال فيها أن الباب العالى يؤلمه أن يرى دولة صديقة تستولى ، دون انذار ، على أثمن ولاية ، تعتبر صرة الاسلام لقربها من مكة والمدينة المنورة • وقد ظل الباب العالى طويلا لا يستطيع تصديق أى أنباء عن هذا الاستيلاء ، ولكن لسوء الحظ ، وبعد أن تحقق الديوان من صدق هذه الواقعة ، قرر — عملا بالقاعدة المتبعة فى حالة انفصام العلاقات الدبلوماسية ، وبناء على أمر مكتوب بيد السلطان نفسه — أن تؤخذ فورا الى قلعة الابراج السبعة ، وأن يقبض على جميع القناصـــل والتجار الفرنســـيين المقيمين فى أملاك جلالته المحروسة ، وأن تصادر تجارتهم ، وأن تحبس أنت وموظفو مفوضيتك ، حتى ترد مصر بعون الله الى سلطة ملكنا ومولانا الذى لا يقهر » • وفى ١١ سبتمبر عام ١٧٩٨ ، أعلن السلطان سليم الثالث الحرب على فرنســا •

وعندما علم نابليون بعزم الحكومة العثمانية على ارسال حملة الى مصر لاخراجه منها ، بمساعدة الاسطول البريطانى ، المحاصر للشواطىء المصرية ، غادر القاهرة فى فبراير ١٧٩٩ ، على رأس قوة تقرب من ١٣٫٠٠٠ جندى متجهة الى الشام بمحاذاة الساحل الشرقى للبحــر المتوسط ، واسترد قلعة العريش ، التى كان أحمــد باشا الجزار قد احتلها فى ٢ يناير ١٧٩٩ — واحتل فى طريقه خان يونس •

ومن خان يونس ، بعث نابليون بخطاب الى قاضى غزة ، موضحا له سبب مجيئه • وتضم الوثائق التركية نص ذلك الخطاب ، وهو باللغة العربية الركيكة — وفى أعلى الخطاب صورة تعبر عن فرنسا الثورة ، يقول نص الخطاب : « من حضرة سارى عسكر الكبير برنابرته ، أمير الجيوش الفرنساوية ، دام محفوظ ومنصور ، الى حضرة جناب قاضى الاسلام والشرفا (أى الاشراف) ، وعلماء العلم (أى رجال الدين) الموجودين فى بلدة غزة • احنا وصلنا بالســـلامة الى خان يونس مع عسكرنا — وبلغنا أن البعض من سكان غزة حصل عندهم زعل (هكذا) ،

وانهزموا من البلدة ــ فلزم أنى أحرر هذى (هكذا) السطور ، لأجل ما يخدم بأمان ، حتى يتحقق عندكم أنى محب الى كامل الشعب ، وحامى أهل العلم ، ومباشر الاشراف ، وكامل المؤمنين • وسبب حضورى الى بلاد غزة مع عساكرى ، لأجل نطرد الجزار باشا ونقاطعه بسبب مجيئه الى الاراضى المصرية • فلازم ترسلوا لنا أحـــد مباشرين من طرفكم ، لأجل مقابلتى ، ولا تخشوا بأس من قبل الديانة ولا بأنفسكم ، ولا بأملاككم ، ولا بأعيالكم •• جميعه ، والسلام • ليلة الاحد ، ١٨ رمضان ١٢١٣ »[١٨] •

ويبدو من « ركاكة » أسلوب الخطاب ، ومن الخط الذى كتب به أن الذى قام بتدوينه أحد أفراد الحملة ، ممن كانوا على دراية قليلة باللغة العربية ، أو ممن رافقوا الحملة من رجال البدو الذين استخدموا كأدلاء للفرنسيين • وقد قصد به تهدئة النفوس التى بدأ يثيرها أنباء الغزو الفرنسى لمصر ، خاصة وقد هاجر العديد من سكان القاهرة ، من مماليك وأشراف وغيرهم الى الشام بعد وقوع الغزو •

وفى تقرير كامل ، بعث نابليـــون الى حكومة الادارة فى باريس بتفاصيل تطور المعارك ، منذ أن وطئت الحملة الفرنسية الاسكندرية واستطاعت السلطات التركية الحصول عليه ــ وقام رئيس الكتاب فى الديوان السلطانى ــ عن طريق أحد التراجمة ــ بترجمته الى اللغة التركية ، وعرضه على السلطان العثمانى ، جاء فيه : « تحرك جيشنا من مالطة ، ووصلنا الى مواجهة الاسكندرية ــ وقبل وصولنا بثلاثة أيام ، علمنا أن أسطولا بريطانيا قويا جدا ، جاء الى هذا الطرف ، حاملا طردا من الرسائل الى الهند • ورفق تقريرى هذا نسخا من الرسائل التى بعثت بها الى ريالة قبودان (قائد البحرية العثمانية)

---

(١٨) مجموعة الوثائق التركية : الوثيقة رقم ٦٧٤١ (٥/١ ــ ١٧٨) ــ مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز بالرياض ، مؤرخة فى : ١٨ رمضان ١٢١٣ هـ ــ انظر صورة الوثيقة على الصفحة التالية .

474

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ووالى مصر) والبيان الموجه الى أهالى البلاد ، والبيان الآخر الموجه الى جنودى •

فى اليوم الذى وصلنا فيه ، كانت الرياح شديدة ، والبحر هائج الامواج — ولما كان لا يجوز تأخير انزال جنود البر ، فقد تهيأنا لهذه العملية • وفى البداية ، قام الجنرال مينو وجنوده بوضع أقدامهم على اليابسة ، بالقرب من خليج على بعد ساعة ونصف من الاسكندرية • وقبل منتصف الليل بساعة ، كنت مع الجنرال كليبر وجنودنا على بر الاسكندرية ، متجهين اليها فى الحال • ومع انبلاج الفجر ، شاهدنا العمود الذى ذكره بومبى فى ذلك المكان (عمود السوارى) •

وفى خلال الطـريق ، تعرض لنا خيـالة من المماليـك والعربان واصطدموا بمخفر من مخافرنا • وكان الجنرال (بون) وجنـده فى الجانب الأيسر — أما الجانب الايمن ، فكان بقيادة الجنرال كليبر ، على حين كان الجنرال مينو فى القلب • وكان يحتمى خلف أسوار المدينة المدافعون عنها من أهالى وجنود • وقد سعى (الجنرال بون) بعد ذلك لفتح رشيد • أما الجنرال مينو ، فكان أول الداخلين للقلعة لذا فقد أصيب بسبعة جروح ، ولكنها لم تكن مهلكة ، كما جـرح كليبر بالرصاص وهو يدل جنوده على المكان المناسب لاتجاههم ، ولم تكن جروحه مهلكة أيضا — وقد أثار جنوده ، فاندفعوا نحو القلعة واحتلوها• وقد تمكن (الجنرال مارمون) ، قائد الفرقة الرابعة من كسر باب رشيد بالفؤوس ، على حين هاجمها الجنرال بون ، فدخلوها ، وقتل (العميد ماس) — كما جرح (الجنرال واسقال) جرحا بليغا لا يلتئم •

ولما حطمنا سور المدينة ، لجأ الاعداء الى حصـن الفنار ، ثم اتجهوا الى المدينة الجديدة — وكل بيت فيها كان لهم قلعة ••• وقبل غروب الشمس كنا قد استولينا على المدينة وهدأت الاحوال •

على أن خيالة العرب الصحراوية كانوا يهاجموننا بمفارزهم التى تتكون فى الغالب من ٣٠ الى ٥٠ رجلا ، الامر الذى جعلنا فى حالة تأهب

مستمر لمدة يومين على الاقل • وقد تمكنا من عقد صلح معهم ، بعد أن جاءنى ثلاثة عشر من أفرادهم ، تحدثت معهم طويلا ثم أعددنا شروطنا ، التى وافقوا عليها • ومن بين هذه الشروط ، ألا يتعرضوا بضرر أو ايذاء لجنودنا ، وأن يعاونوننا على قدر الاستطاعة بالرجال والأدلاء لمهاجمة المماليك — وتعهدت لهم من جانبى أن أرد لهم الاراضى التى كانت لهم من قبل ، بعد الاستيلاء على مقاليد الامور •

وفى كل يوم ، كان يجتمع فى منزلى ، المفتى ، والأئمة ، والمشايخ والاشراف والاعيان — ومرفق طيه تقرير عن المداولات التى كانت تجرى فى هذا المجلس ، وكذلك البيان الذى ألقيته ، وجذبتهم الى به •

المرفأ القديم للاسكندرية واسع جدا ، لدرجة أنه يسع الاسطول مهما كان عظيما ، ولكن فى مدخله مكان ضحل ، لا يزيد عمقه عن خمسة فراسخ — ولذلك ، فان السفن (ذات آل ٦٤ مدفعا) لا يمكن أن تمر منه — وقد كان عدم دخول السفن للميناء ضارا ، لكن السفن المعدة فى البندقية يمكنها أن تمر ، ومنها اثنتان فى المرفأ (الآن) — أرسلوا القطع الثلاث الموجودة (حاليـــا) فى طولون ، وسأرسل من جانبى رجالا لاحضار الثلاثة الاخرى الموجودة فى ايطاليا • الجنرال (وزه) فى دمنهور (الآن) — وقد اجتاز بجنوده الصحراء ، وأمضى ١٤ ساعة سيرا على الاقدام ولذا فان جنوده فى غاية التعب والارهاق ، وسيصل بعده الجنرال (دغينة) فى المساء • قائد الاسطول الخفيف ما زال خارج الميناء ، على حين دخلت بعض السفن فى النيل ، وهو الآن فى طريقه باتجاه القاهرة • هلك من جنودنا حتى الآن ٣٠ — ٤٠ فردا ، وجرح ٨٠ — ١٠٠ آخرين •

التوقيع : بونابرت[١٩]

---

(١٩) مجموعة الوثائق التركية : الوثيقة رقم ٦٧٦٧ (٢/١ — ١٤٩) — مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز بالرياض (٢٠ محرم ١٢١٣) — يوليـــو ١٧٩٨ •

وقد حرص رئيس كتاب الديوان السلطانى ، على أن يرفق بترجمة ذلك التقرير ، ترجمة أخرى باللغة التركية للاتفاق الذى تم التوصل اليه بين مفتى الاسكندرية ومشايخها ، وبين الجنرال بونابرت ، كان نصه كالتالى :

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين . الاتفــاق الذى تم بين الموقعــين أدناه من وجوه الاسكندرية والقائد الاعلى للجنود الفرنسيين . أن يتمتع الاسكندريون بما درجوا عليه من ممارسة الشرع الشريف والفرائض الدينية ، وأن يفصلوا فى الدعاوى وفى العدالة والحق ، وأن يتجنبوا الظلم ، وأن يكون حاكم الشرع الذى سينصب ذو أخلاق حسنة وأطوار مستحبة ، وأن لا يحكم الا اذا انضم الى رأيه باقى المشايخ ــ وأن يبذلوا جميعا كل ما فى مقدورهم للوصول الى العدل مهما كان ، بما يهدف مصلحة البلاد والعباد وأن يسعوا جميعا الى استئصال غير الصالحين ، ليكونوا عبرة لغيرهم وأن لا يخونوا العساكر الفرنسية فى أى وقت من الاوقات ، ويبتعدوا عن الدسائس المحتملة فى حق أولئك العساكر .

وقد أقسم المشايخ على العمل بهذا الاتفاق ، كما تعهد القــائد الاعلى للفرنسيين بأن لا يقدم جنوده على الظلم والتعدى والنهــب والغارة ، واذا حدث أن أقدم أحدهم على ذلك ، فانه سيتولى تأديبه بأشد العقوبات . وعدا ذلك . لا تبدر من الاهالى نحو شخص القائد ومن فى معيته من العساكر أية اهانة ، وأن لا يتعرض الجنرال الى الدين ، وألا يطلب منهم الالتزام بأية بدعة مستحدثة فى مراسمهم الدينية كلية أو جزئية .

حرر هذا السند يوم الاربعاء ٢٠ محرم ١٢١٣ هـ

توقيعات المفتى والمشــايخ :

الفقــير	الفقــير	الفقــير	الفقــير
ابراهيــم	ســليمان	محمد المصرى	أحمــد
مفتى الحنفية	مفتى المالكية		

الجــنرال

بونـــــــابرت

القائد الاعلى الفرنسى[٣٠]

أما نص الخطاب الذى أرسله نابليون الى ريالة قبودان (قائد البحرية العثمانية) الذى كان راسيا بقطع بحريته فى ميناء الاسكندرية عند وصول الفرنسيين ــ فقد كان نصه كالتالى : « لقد دأب المماليك فى مصر على معاداة الفرنسيين ، وقد أتيت لأنتقم منهم . غدا سأدخل الى الاسكندرية ، ولا يوجد أى شىء يمسكم . ومن المعلوم أنكم من تبعة صديقنا السلطان العظيم ــ وعلى هذا الوجه يجب أن تتحركوا ، وتتركوا هذا المكان ــ أما اذا أقدمتم على أدنى تعرض للجيش الفرنسى ، فانه حينئذ سنعاملكم معاملة الاعداء ، وتكونون السبب فى ذلك ، اذ ليس فى نيتى افتعال هذه الخصومة . توقيع : بونابرت »[٣١] .

كما أرفق رئيس كتاب الديوان السلطان ترجمة تركية لمرسومين (اعلانين) ، أصدرهما بونابرت بعد استيلائه على الاسكندية لأهالى المدينة ــ هذا نصها :

(أ) ينبه الجنرال الاعلى بونابرت ، ويأمر :

---

(٣٠) المصدر السابق نفسه ــ انظر صورة الوثيقة على الصفحة التاليــة .

(٣١) المصــدر السابق نفسه .



١ — أن يخلى سبيل الاسرى المسلمين من أهالى بر الشـــام والبحر الابيض ومصر وطرابلس ، الذين تم تحريرهم من جزيرة مالطة .

٢ — سيطلق قائد الاسطول (الادميرال) سراح أولئك الاسرى الى البر ، ليعطى كل واحد منهم أوراق المرور اللازمة (بطاقة شخصية) — مع نسخة من هذا البيان باللغــة العربيـــة .

(ب) ينبه الجنرال الاعلى بونابرت ، ويأمر :

١ — فيما عدا المفتى والأئمة والمشايخ ، على سكان الاسكندرية كافة من أية ملة كانوا ، بعد مرور ٢٤ ساعة من اعلان هذا التنبيه ، أن يسلموا أسلحتهم الى قائد الميدان .

٢ — على جميع أهالى الاسكندرية أن يضعوا الشارة ذات الالوان الثلاثة — أما المفتين ، فيتشحون « بشال » ذو ثلاثة ألوان وسيصير منح امتيازات خاصة للائمة والمشايخ من ذوى العلم والعمل الذين يفوقون أقرانهم ، تبعا لارادة الجنرال الاعــلى .

٣ — على العسكر أن يؤدوا مراســم التعظيم للذين يضعون « الشال » ذوى الالوان الثلاثة على الوجه المعروف — وعندما يصلون الى مراتب القادة والضباط ، تجرى لهم مراسم التكريم .

٤ — يتم رفع الاعلام — بلا استثناء — على منازل قناصل كل الدول الاجنبية ، على أن يوضح على أبواب منازلهم صفتهم القنصلية والدولة التى ينتسبون اليها .

٥ — ينقل ، ويترجم هذا التنبيه للغة العربية بصورة مستعجلة ويعطى لأعيان البلاد ونقيب الاشراف ، لاعلانه والعمل بموجبه .

هذا — وقد أشار بونابرت فى ذيل هـذا « التنبيه » الى أن الفرنسيين الذين قتلوا أثناء معارك الاسكندرية ، سيتم دفنهم أسفل عمود بومبى (السوارى) — على أن تنقش أسماؤهم ورتبهم على العمود نفسه[٢٢] .

على أية حال — فقد واصل نابليون زحفه من خان يونس ، وتمكن من الاستيلاء على غزة ، والرملة ، واللد ، ووصل الى يافا فى ٢ مارس ١٧٩٩ ، التى سلمت بعد دفاع مجيد استمر أربعة أيام — ثم وصل بعد ذلك الى أسوار عكا ، التى تعتبر مفتاح سوريا الشمالية ولبنان . وكانت عكا من القوة والمنعة ، بحيث عاود بونابرت الهجوم تلو الهجوم ، ولكنه فشل . وقد استبسل الاهالى فى الوقوف أمام القوات الفرنسية ، ودافع الجزار عن المدينة دفاعا قويا ، ذلك لأن عكا مفتوحة من ناحية البحر ، ويشد أزرها الاسطول البريطانى بقيادة « السير سدنى سميث » — وبذلك لم تعان المدينة شيئا كثيرا نتيجة للحصار الفرنسى ، بل وقعت فى أيدى « سميث » أكثر المؤن والذخائر التى أرسـلت الى الجيش لفرنسى من مصر . كما تفشى الطاعون فى جنود نابليون ، بسبب هذا الحصار . وفى نفس الوقت أرسلت الدولة العثمانية — تلبية لاستغاثة أحمد الجزار — جيشا بريا لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا ، ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش ، والقضاء عليه فى موقعة « تل طابور » فى ١٦ أبريل ١٧٩٩ — غير أن بونابرت وجد أن استيلاءه على عكا عنوة سيكلفه كثيرا ، فاضطر الى رفع الحصار عن المدينة ، والاسراع بالعودة الى مصر ، لأنه علم بأنباء ارسال حملة بحرية وبرية الى مصر .

وتحتفظ الوثائق التركية بخطاب أحمد الجزار ، الذى استنجد فيه بالباب العالى أثناء زحف الجيش الفرنسى وحصاره لعكا ، وهو

---

(٢٢) انظر اصل هذه الترجمات فى تقرير رئيس الكتاب — الوثيقة السابق ذكرها .

منسوخ باللغة التركية ، وعليه خاتم وتوقيع (الحاج أحمد الجزار والى الشام ومصر وطرابلس وصيدا)[٣٣] .

يقول الجزار فى خطابه للسلطان العثمانى (بعد مقدمة من الدعاء) — أنه بفضل التوجيهات العلية ، وكمال الوثوق والاعتماد السلطانى بحقه لقهر وتدمير وادبار الكفار عن مصر ، وتصفيتها وتطهيرها من شركهم وكفرهم ، ونزعها من يدهم ، فقد تفضلتم بالعهدة الى بهذا الشرف العظيم ، والذى سأبذل من أجل تنفيذه الروح والمال . ثم أشار الجزار ، الى أنه كان قد كتب الى الاعتاب السلطانية اشعارا بأن المدعو بنابرت الخائن قد ساق ٢٥ ألفا من عساكره المنحوسة (كذا) نحو العريش وغزة ، واستولى عليهما ، وأن عربان مصر أتبعوا الكفار ، وهم فى كثرة ووفرة . وأنه يرفق بخطابه هذا رسالتين بالعربية ، أرسلهما أهالى غزة ، الذين اتبعوا بونابرت الى العساكر المنصورة الموجودة فى قلعة يافا . وأنه لما كان الكفار (كذا) فى كثرة ، فانه بحاجة الى العساكر المشاة ، وأنه عرض قبل الآن التماسه لارسال جنود من الالبان .

ثم قال ، انه لما كان مجموع العساكر الموجودة لديه لا تتعدى ثمانية آلاف ، وضع بعضها مع معداتها فى قلاع القدس ويافا فانه عند وصول المدد من السلطان ، سيقوم بتدعيم هذه الوحدات . ثم ذكر ، أنه قد وصل اليه (حتى الآن) ألفا جندى ، وأن العساكر التى أعدها والى برقة ، ومقدارها ألف ، وصل منها فى أول شوال ١٢١٣ هـ قائدها وكتخداها (وكيلها) ، و ١٥ نفر من الادلاء و ١٠ من البنادقة ، و ١٧٠ نفر من الانكشارية — أى بمجموع ١٩٥ جندى فقط . وقد صرح له الكتخدا ، أنه تسلم « ألفا قرش فقط » قبيل رحيله وأن ما تبقى معه قليل . ثم أضاف الجزار فى خطابه ، أنه (الآن) بحاجة شديدة الى

(٣٣) مجموعة الوثائق التركية : الوثيقة ٦٧٦٩ (١/٢ — ١٢٣) — مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز ، الرياض (١٢١٣ هـ) — انظر صورة الوثيقة على الصفحة التالية .

١/٢/١٣٢٣

دولتلو ... افندم سلطانم حضرتلری

[illegible]

كميات من البارود والخرطوش وقنابل للمدافع ويأمل ارسالها بسرعة مع الجنود الالبان » .

واضح من كل ذلك — أن صوت الاستغاثة الذى أطلقه الجزار الى الباب العالى ، قد تمخض فى النهاية عن ارسال الجيش البرى الذى اشتبك مع الفرنسيين فى تل طابور ، وتمكن نابليون من الانتصار عليه فى هذه المعركة ، ورغم ذلك لم يتمكن من اقتحام المدينة المحاصرة .

ذكرنا — فيما سبق — أن الباب العالى وقف مترددا ازاء الانباء التى وردت اليه عن الغزو الفرنسى لمصر ، لدرجة أنه لم يقطع علاقاته الرسمية بفرنسا عندما تأكدت لديه هذه الانباء — وقد ظل الامر كذلك ، حتى بلغه نبأ انتصار الاسطول الانجليزى ، وتحطيمه لسفن الاسطول الفرنسى فى أبى قير . أما كيف بلغته معركة أبى قير البحـرية فذلك ما توضحه لنا وثيقة تركية ، هى عبارة عن تقرير بعث به أحد رجاله العثمانيين ، يدعى (خاكيلى فخر غانم مصطفى باشا ، والى المورة) مؤرخة فى ٩ جمادى الاولى ١٢١٣ هـ(٢٤) — يصف فيه كيف تمكن رجاله من القبض على قارب نجاة ، وعلى متنه أربعون جنديا فرنسيا يرأسهم ضابط فرنسى برتبة مقدم يدعى (كوليتيلو) استطاعوا الافلات من جحيم المعركة ، ومكثوا على ظهر ذلك القارب اثنى عشر يوما حتى بلغوا اليابسة ، والتقطهم رجال الوالى . وعلى الفور أجرى الوالى تحقيقا مع رئيس هذه الجماعة ، الذى أبلغه « .. أن بونابرت خرج الى بر الاسكندرية واستولى عليها ، وعندما عزم الزحف الى القاهرة ، باغت الاسـطول البريطانى الفرنسـيين ، ووقعت معركة هائلة بين الجانبين ، أبيد فيها اسطول الفرنسى ابادة كاملة وأحرقت جميع السفن التى استولوا عليها ، بما فيها من أفراد ومهمات . وكان يوجد فى ميناء

---

(٢٤) مجموعة الوثائق التركية : الوثيقة رقم ٦٨٠٢ (٥/٥ — ٢) ، مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز بالرياض (٩ جمادى الاولى ١٢١٣) انظر صورة الوثيقة على الصفحة التالية .

الاسكندرية حينئذ ما يزيد على ثلاثمائة سفينة ، سواء كانت مملوكة للتجار ، أو تتبع دولا أخرى فأغلق مدخل الميناء ، ومنعت السفن ، ولم يسمح لها بالعودة الى بلادها . أما السـفن التى كانت تحاول الافلات من الحصار فقد تم حرقها بمن فيها من رجال وأمتعة — على حين أن السفن التى كانت للاهالى داخل الميناء تم اتلافها » . ثم ذكر رئيس هذه الجماعة الفرنسية الهاربة للوالى العثمانى — أن الهاربين من المعركة كانوا على ثلاث قوارب ، استولى الاسطول الانجليزى على أحدها فور خروجها من ميناء الاسكندرية ، كما استولى الاسـطول العثمانى الهمايونى على ثانيها عنـدما وصل الى قرب جزيرة جوقة (تشوكا) — حتى وقع قاربهم الثالث فى أيدى رجال الوالى » .

ثم ذكر (خاكيلى باشا) فى تقريره أن (المقدم كوليتيلو) — بين له أن نابليون كان يقود جيشا مؤلفا من خمس وثلاثون ألف جندى من القوات البرية ، ترك منها ثمانمائة جندى يرابطون فى الاسكندرية وبعد استيلائه على مدينة رشيد ، ترك فيها ألفى جندى ، قبل أن يواصل زحفه الى القاهرة . ورغم أن المماليك المصريين تصدوا لقوات الغزو مرتين دفاعا عن البلاد ، الا أنهم لم يتمكنوا من صد العدو وايقافهم ، لكثرة عتاده ، فاتجهوا منسحبين لجهات الصـعيد . وذكر القـائد الفرنسى للوالى ، أن المماليك تصدوا للفرنسيين بخمسة عشر ألف جندى قبل أن تلحق الهزيمة بهم . وأضاف القائد الفرنسى الهارب لمحدثه ، أن الجنرال نابليون لم يجرؤ على دخول القاهرة مباشرة ، فرابط بقواته خارجها ، وبعث من جانبه مناديا ينادى : ليكن كل شخص فى مأمن على نفسه وماله ، أنا صديق السـلطان — أتيت الى مصر لتخليص المصريين من المماليك وظلمهم . وحاولوا بذلك أن يخطئوا الناس فى تفكيرهم ، وطلبوا أموال البكوات المماليك وصادورها — حيث حملوها على نحو ثلاثمائة جمل ، ثم توجهت الى مقر الجنرال » .

ثم ختم الوالى تقريره ببعض العبارات التقليدية ، قائلا : « لقد

وجدت فى نفسى الشجاعة ، برفع الامر للاعتاب السلطانية ، والتصرف لحضرة السلطان صاحب الدولة ، ولى النعم ، الذى له الامر » •

ومهما يكن من أمر — فقد كانت هذه التطورات المتلاحقة مدعاة لارتياب روسيا فى الامر — فاهتم « تمارا » سفيرها فى الاستانة بمراقبة نشاط الفرنسيين • وكان أعظم ما تخشاه روسيا • هو أن ينتشر نفوذ فرنسا فى شرق البحر المتوسط ، لاسيما بعد استيلاء الفرنسيين على جــزر الأيونيان — ثم زادت مخاوف القيصر الروسى عنــدما احتل بونابرت مالطه • وكانت هذه المخاوف سببا فى أن يعمل القيصر من أجل الاتفاق مع الدولة العثمانية ، على الرغم من رغبته فى السلام مع الجمهورية الفرنسية — فاجتمع المندوب الروسى فى الاستانة بالريس أفندى فى يوليو ١٧٩٨ — ومنــذ ذلك الحين ، سارت المفاوضات بين الدولة العثمانية وروسيا فى جانب ، وروسيا وانجلترا فى جانب آخر — وكان الغرض منها اقناع الدولة العثمانية بالدخول فى محالفة ضد فرنسا واعلان الحرب عليها[٢٥] — وأسفرت هذه المفاوضات عن عقد محالفة دفاعية هجومية لمدة ثمانى سنوات ، بين روسيا والدولة العثمانية فى ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ ، دعت فيها الدولتان ، الدول الاوربية الاخــرى للانضمام اليهما لحفظ التوازن الدولى • وفى ٥ يناير ١٧٩٩ انضمت انجلترا الى الدولتين ، وأعلنت « أن جلالة ملك بريطانيا ، الذى تربطه بامبراطور روسيا أواصر المحالفة الوثيقة ، قد انضم الآن الى المحالفة المبرمة بين روسيا والدولة العثمانية • وقد أدى ذلك الى تكوين التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا ، فانضمت مملكة نابولى الى الحلفاء بمقتضى معاهدة القسطنطينية فى ٢٤ يناير ، بسبب الهزائم الثقيلة التى ذاقتها

---

(٢٥) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، مصدر سابق ، ص ١٢١ . وانظر ايضا : الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مصدر سابق ، ص ١١٣ .

على أيدى فرنسا فى الولايات الايطالية • أما بروسيا ، فلم تشترك فى هذا الحلف •

اقتضى توقيع هذه الاتفاقية بين الحلفاء فى مواجهة الغزو الفرنسى لمصر ، العمل على التنسيق بين القوات المتحالفة — فدفعت روسيا ببعض قطع أسـطولها للانضمام الى الاسـطول العثمانى ، ليلحقا بالاسطول الرابض بالقرب من الاسكندرية — وبدلا من الاتجاه نحو الشواطىء المصرية ، توجها الى مضيق مسينا ، بمملكة نابولى ، التى انضمت مؤخرا الى المحالفة ، مما كان مدعاة لأن يرفع القبودان حسين باشا تقريرا الى السلطان العثمانى ، يعجب فيه من ذهاب الاسطول التركى — بالذات — الى مسينا ، رغم وجود العدو على أرض مصر •

يقـول التقـرير[٣٦] :

« كان قد صدر أمر عال ، حمله المراسلون ، بأن يقوم اسطولنا من (قورفه) بعد انضمام الاسطول الروسى اليه ، ليلحقا بأسطول الاسكندرية • وقد تبين من تقرير أحد رجالى — ابراهيم أفندى — الذى جاء من الجزائر ، أنه علم بأن اسطولنا فى (قورفه) ، والسفن الروسية قد اتجها الى مسينا •• فما هو المقصود من اعانة اسطولنا دولة أخرى ، مع وجود العدو فى بلادنا ، وقبل ابعاده عنها ؟ — ان الاميرال الانجليزى نلسون ليس فى حاجة الى أسطولنا وعلى هـذا فاننى أرى ألا يبتعد الاسطول عن البلاد الاسلامية ، مع وجـود مشكلة مصر قائمة • أما اذا أبعد العدو عن مصر بمشيئة الله تعالى فلا ضير حينئذ من أن يتجول الاسطول فى بلاد الافرنج • ان ارسال أربع قطع من الاسطول العثمانى لبـلاد الافرنج يوحى بالمهانة ، وأحسب أن الحاق هذه القطع بأسطول الاسكندرية هو من موجبات الوقت الرهن •

---

(٣٦) مجموعة الوثائق التركية : الوثيقة رقم ٢٤١ (١/٤ — ٣) — مكتبة الوثائق بدارة الملك عبد العزيز بالرياض (١٢١٤ هـ) — انظر الوثيقة على الصفحة التالية •

الوثيقة

٤٨

سعادتلو همتلو عطوفتلو دولتلو [illegible] سلطانم حضرتلری

قورقه ده اولان دونغالرك دروكسيه دونغا [illegible] فائقيت كسب ايتمكده در، دونغاسنه التحاق ايدلديكنه جهته قابلاو

ايله فرع عالی [illegible] [illegible] كلدی، تفوری اراسی اولنان اوده [illegible] اقبالك تفوريه كوره [illegible]

دونغا دردونيه سقاتی [illegible] كندی جو [illegible] اولمقده كندو [illegible] دشمن غايه [illegible]

دونغالرك [illegible] معنادر اما روسيه لويه موافقت [illegible] كمنلردر، روسيه بولوردده

[illegible] كسير [illegible] كوجمد [illegible] اراى [illegible] دونغالرك احتياجی يوقدر [illegible]

بويله ايكی دونغالرك [illegible] [illegible] هيچ جواب كورده دم اولسته [illegible] معرديت دشمن غايه سی

[illegible] دونغالرك [illegible] يوقدر شمدی [illegible] دونغا جو [illegible]

موجب دلدر دونغانك [illegible] اراده بوردوغی اوزره [illegible] دونغاسنه [illegible] موجبات [illegible]

ظن ايدرم

[illegible] بوجه [illegible] بولنه دك كبرده اسپانيه دونغالرك [illegible] نظر [illegible] [illegible] برى [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] اعانات جاده [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] انكلتره [illegible] [illegible] اسپانيه [illegible]

دونغالرك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ديكر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] سعادتلو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ان بونابرت الملعون (هكذا) — يتعثر أمام أسوار عكا ، وقد فتشت باريس عن وسيلة لمعاونته ، فلم تجد الا أن تستولى على بعض قطع الاسطول الاسبانى ، أضافته الى اسطول (برست)[٣٧] — فتجمع لديهم حوالى ٥٠ — ٦٠ سفينة من النوع الضخم ، وحوالى ثلاثة من المراكب ذات المستودعات ، اتجهوا بها جميعا من سبته[٣٨] ، ربما الى بلاد العرب للاستيلاء عليها — لذلك أرى أن يبلغ الجيش السلطانى هذا بصورة خفية ، وأن يوفد (نجابا) ليقصد محافظ المدينة المنورة يوسف باشا ، وشريف مكة ، ومعــه (تحريرات) ، توصى بالحيطة والالتفات لتحصين قلاع جده وينبع » .

هكذا — كان الغزو الفرنسى لمصر سببا فى نشاط الاجهزة الادارية العثمانية بمختلف مستوياتها ، فتبادلت المكاتبات والتقارير بما من شأنه أن يلقى مزيدا من الاضواء على مرحلة هامة من التاريخ المصرى ، تعبر بشكل رئيسى عن وجهة النظر العثمانية ، صاحبة السيادة على مصر آنئذ — ومما لاشك فيه أن الاعتماد على ذلك المصدر يخدم البحث التاريخى ، بجانب المصادر الفرنسية والانجليزية والمصرية ، خاصة وأن دار المحفوظات التركية بأنقرة قد أوشكت على تصنيف ما لديها من وثائق — وهى عديدة للغاية — بما يسمح للباحثين بالاطلاع عليها ، والاستفادة منها .

---

(٣٧) ميناء فرنسى يطل على بحر المانش والمحيط الاطلنطى .
(٣٨) ميناء يوازى طنجة ، ويطل على مضيق جبل طارق .

مصـــادر الدراســـة

أولا ـ الـــوثائق :

الوثائق التركية المحفوظة بمكتبــة الوثائق ، فى دارة المـــلك عبد العزيز بالرياض ، نقلا عن وثائق دار المحفوظات بأنقرة ، بتركيا ـ وتشمل :

ـ الوثيقة رقم ٦٥٧٨ ـ (٥/٤ ـ ٤) ـ ب•ت •

وتتضمن تقرير من محصل قبرص عن وقوع الغزو الفرنسى لمصر •

ـ الوثيقة رقم ٦٦٠٢ ـ (١/٢ ـ ٤) عام ١٢١٣ هـ

عبارة عن تقرير لأحد قادة الاسطول الفرنسى بعثه الى حكومته فى باريس ، وحصلت عليه السلطات التركية ، ثم قامت بترجمته الى اللغة التركية قبل عرضه على السلطان العثمانى •

ـ الوثيقة رقم ٦٧٤١ ـ (٥/١ ـ ١٧٨) فى ١٨ رمضان ١٢١٣ هـ
عبارة عن نص الخطاب الذى بعث به نابليون الى قاضى غزة •

ـ الوثيقة رقم ٦٧٦٧ ـ (١/٢ ـ ١٤٩) ـ ٢٠ محرم ١٢١٣ هـ
وهو عبارة عن ترجمة لنص التقرير الذى بعث به نابليون الى حكومة الادارة فى باريس يصف فيه تطور المعارك منذ وصوله الى ميناء الاسكندرية مرفقا به نصوص المكاتبات التى بعثها الى مختلف الجهات •

ـ الوثيقة رقم ٦٧٦٩ ـ (١/٢ ـ ١٣٣) ـ (١٢١٣ هـ)
عبارة عن رسالة أحمد باشا الجزار ـ حاكم عكا ـ الى السلطان العثمانى ، يطلب منه امداده بالعون والمساعدة •

- الوثيقة رقم ٦٨٠٢ (٥/٥ - ٢) - ٩ جمادى الاولى ١٢١٣ ﻫ عبارة عن تقرير لمعركة أبى قير البحرية ، بعثه والى المورة الى السلطان العثمانى ، بعد أن وقع فى يده بعض الاسرى من الفرنسيين .

- الوثيقة رقم ٢٤١ (١/٤ - ٣) - ١٢١٤ ﻫ .

رسالة بعث بها القبودان حسين باشا الى السلطان العثمانى يطلب منه فيها ضم الاسطول العثمانى الى أسطول الاسكندرية فى مواجهة الاحتلال الفرنسى .

ثانيا - المراجع :

- ج. كريستوفر هيرولد (ترجمة : فؤاد أندراوس)
بونابرت فى مصر - دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٧

- دكتور / محمد فؤاد شكرى
الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر
دار الفكر العربى ، القاهرة ، ب.ت.

- دكتور / عمر عبد العزيز عمر
دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بيروت ١٩٨٠

- دكتور / عمر عبد العزيز عمر
دراسات فى تاريخ مصر الحديث - القاهرة ١٩٨٣

- محمود الشرقاوى
دراسات فى تاريخ الجبرتى (مصر فى القرن الثامن عشر)
الطبعة اثانية ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٧ .

بنو خـــالد فى الاحســـاء

والــدولة الســـعودية الأولى

دكتور / عبد العليم على عبد الوهاب ابو هيكل

كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

ما تزال الاوضاع التاريخية المتعلقة بموقف القوى المحلية فى شبه الجزيرة العربية تحتاج الى مزيد من الدراسة لتضاف الى الجهود التى بذلها الرواد الأوائل فى هذا السبيل ، سواء منهم القادم من أوربا لكشف غموض هذه المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، أو ممن اقتحموا مجالها دراسيا من العرب والاجانب على حد سواء[1] للخوض فى مكنونات هذا العالم الذى أضحى خلال العصر الحديث بؤرة للاهتمام الاوربى ، باعتباره محطة رئيسية للتجارة مع آسيا وكنقطة انطلاق للتغلغل فى أعماق المشرق العربى ، ثم التقاء هذا الزحف الغربى مع بداية الحركة السلفية فى وسط شبه الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ليتأجج الاهتمام وتتبلور نوعية العلاقات بين الاطراف المعنية كل تبعا لمصالحه الخاصة .

---

(١) على سبيل المثال من الاجانب (بلجريف Palgrave)
(Ayear journey and Eastern Arabia).
ود (Daughty) فى Travels in Arabia Pirate Coast
و (بوركهارت) (Burchardt) فى Notes on the Bedouins and Wahabys
ومن العرب الدكتور جمال زكريا قاسم فى :
١ ــ الخليج العربى (دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى ١٥٠٧/١٨٤٠) .
٢ ــ الخليج العربى ــ دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ / ١٩٤٥ م .
٣ ــ الخليج العربى ــ دراسة لتاريخه المعاصر ــ ١٩٤٥/١٩٧١ م.

ومما يرسخ من صعوبة هذه الدراسات ارتباطها بالأنماط القبلية المتعددة الاشكال والمفاهيم ، خاصة تلك القبائل التى استطاعت خلال فترات التاريخ أن تلعب دورا مؤثرا فى الاحداث كآل خالد فى الاحساء منذ القرن السابع عشر ١٠٨٠ هـ / ١٦٧٠ م ، وآل سعود فى الدرعية بوسط نجد منذ قدومهم اليها عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م ، وحتى وضع حجر الأساس لفرض سيطرتهم على المناطق المجاورة عقب اتفـاق الدرعية عام ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م .

وبالرغم من أن النفوذ (السياسى) لهذه القبيلة — بنى خالد — لم يكتب له الظهور الا فى أعقاب التخلص من السيادة العثمانية فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، الا أنهم من الناحية التاريخية لعبوا دورا مؤثرا فى مقدرات الاحســاء وساحل الخليج منذ بداية القرن السادس عشر بما استثمروه من مميزات موطنهم الجغرافى[٢] ، وما جمعوه من ثروة لا بأس بها وتحكم فى طرق الموانىء على ساحل الخليج المؤدية اليه من داخل شبه الجزيرة واستقبال البضائع القادمة من الهند والمتجهة الى الداخل[٣] الى نجد ، ولما كانت هذه القبيلة من أقدم القبائل العربية المعروفة فى الاحساء ومعها العجمان ، وآل مرة وبنو هاجر والعوازم والرواشد[٤] ، الا أن تآزر العوامل الجغرافية والاقتصادية مع هـذا العمق التاريخى ، ثم الوهن السياسى الذى أضحت عليه السيادة العثمانية ، فتح المجال أمامها للسـيطرة على الاقليـم .

---

(٢) Neibuer (C.), Travels Through Arabia and other Countries in East, vol. II, London 1792, pp. 125/127.

(٣) د. مجال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى الاول ١٥٠٧/١٨٤٠ م — القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٦١ .

(٤) أيوب صبرى : مرآة جزيرة العرب ، ج ٢ ، ترجمة د. أحمد فؤاد متولى و د. الصفصافى احمد مرسى ، الرياض ١٩٨٣ ، ص ٣١٧ .

تمتد سكنى بنى خالد بامتداد ساحل الخليج العربى الشمالى ، ما بين وادى المقطع فى الشمال ومقاطعة البياض فى الجنوب وتتوغل غربا داخل شبه الجزيرة حتى منطقة الصمان وتعرف هذه المنطقة باسم الاحساء[٥] ، واشتهرت قديما باسم (هجر) وهى بلدة تقع الى الغرب من ميناء (العقير) اتخذت كمسمى لها بصفة عامة[٦] ، ونتيجة لهذا الامتداد الشاسع ، فان قسما منها قد تحضر وسكن القرى حتى وصلت بعض عشائرهم الى نجد والقصيم فى منطقة (وادى البير) بين ثادق والحصافة والافلاج جنوب الرياض وسدير فى شمالها[٧] . وامتدت بعض الأفرع الاخرى لها حتى وصلت الى حدود الكويت (كالمهاشير) وبعض الجزر المواجهة للساحل فى (المسلمية) و (جنة) ، والى قطر كآل صبيح وآل حميدات الذين كان لهم فرع آخر فى البحرين هو (الداووده)[٨] .

ومع هذا الانتشار فللقبيلة أفرع ثلاثة رئيسية هى :

١ — (آل حميد) عقدت لهم الزعامة ، وبلغ عددهم فى بداية القرن ١٧ ألفى رجل ، ومنهم (آل صبيح) وهم أكثر عددا حيث بلغوا ستة آلاف ، واتخذوا من مجاورة (المنتفق) شمالا موطنا لاقامتهم استثمروه كظهير لهم وواجهة أمامية للدفاع عن أرض القبيلة[٩] .

---

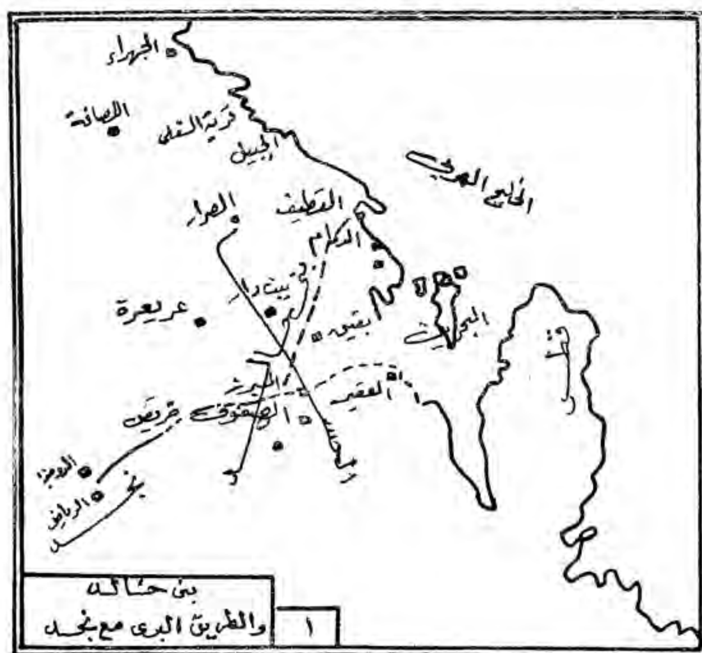
(٥) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ ١ ، ط ٢ ، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ ، ص ٣٢٧ .

(٦) د. عبد الله يوسف الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لابى عبيد البكرى ، تحقيق ودراسة ، الكويت ١٩٧٧ ، ص ١٤١ .

(٧) عبد الله بن خميس : معجم اليمامة ، جـ ١ الرياض ١٩٧٨ ، ص ٣٢٤ و ٣٢٧ و ٤٧٠ ، ولمزيد من الايضاح انظر الخريطة المرفقة رقم (١) .

(٨) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٥٥ .

(٩) مؤلف مجهول : لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢) ، الرياض ١٣٩٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .



بنى خالد
والطريق البرى مع نجد
١

٢ — (المهاشير) وبلغ عددهم فى ذات الفترة سبعة آلاف رجل ، وجميعهم أغنياء بما استحوزوه من امكانيات زراعية لاشتغالهم بفلاحة الارض بالقطيف والعقير وما حولها(١٠) .

٣ — (العماير) ، وامتدت سكناهم أيضا الى حدود الكويت الى أرض (العدان) وفى (جبة) و (أبو على) واعتمدوا بصفة أساسية على صيد اللؤلؤ والاتجار به مما زاد من ثراءهم(١١) .

ويبدو أن تلك القبيلة قد أضحت عند بداية (سيادتها السياسية) قوة (برية) أكثر من كونها قوة (بحرية) لاشتغال قسم كبير منها بالرعى ، ولم يتمرس بأعمال البحر الا فئة قليلة ، أضف الى ذلك أسبقية القوى المحلية الاخرى كالقواسم وآل جبــور والفرس من الجانب الشرقى للخليج ، ثم القوى الاوربية بعد ذلك فى استغلال مياه الخليج لمصالحهم(١٢) .

---

(١٠) لمع الشهاب — المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(١١) Neibuer, op. cit. pp. 122/125.

(١٢) استطاعت مملكة هرمز بتحكمها فى منفذ الخليج ان تتمتع بثراء ملحوظ طيلة العصور الوسطى ، مما منحها قوة تنظيمية سياسية منذ أواخر القرن ١٣ م وبالرغم من الآثار السلبية التى انعكست على « هرمز » نتيجة لاستيلاء المغول لعى بغداد ، الا أن العامل الاقتصادى المتمثل فى التجارة ساعدها على الاحتفاظ بأسباب قوتها من خلال ممارسة هذا النشاط عبر جزيرتى « قيس » و « جرون » فمدت سيطرتها على ساحل الخليج حتى البصرة ، فبلغت قوتها فى عهد (قطب الدين فيروزشاه) الذى لقب بــ « ملك هرمز والبحرين والاحساء والقطيف » ، وحكم حتى عام ١٤١٧ م ، مع تباين مدى قوة وسيطرة تلك المملكة على هذه البقاع ، الا ان التفــكك الاسرى بين أفراد البيت المالك فتح المجال أمام القبائل المحلية خلال النصف الاول من ق ١٥ للاطاحة بتبعيتهم لهرمز كــ (بنى جبر) الذين تمكنوا من انتزاع الاحساء والقطيف ولقب شيخهم باسم (سلطان البحرين والقطيف والاحساء ، ودخلوا فى صراع بينهم وبين حكام هرمز فى نفس الوقت الذى بدأت فيه طلائع الزحف البرتغالى بالوصول الى مشارف الخليج ، الذى =

وبالرغم من العائد الايجابى الذى دفعتــه مميزات الاحســاء جغرافيا واقتصاديا لبنى خالد ، واتجاه أفرعها الثلاث الى الاهتمام بتلك النواحى واستثمارها الا أنهم تأرجحوا — أيضا من خلال هذه السمة بين الطابع البرى خلفهم داخل شبه الجزيرة العربية عند الارتباط به تجاريا وقبليا ، وبين مؤثرات الاطلالة والصلات الخارجية من خلال الموانىء التى ارتمت فى أحضان موطنهم ، باتجاه الهند وفارس والقوى الاخرى وبظلال النشاط البحرى[١٣] ، مما جعلهم أشــبه ما يكون بالحلقة الوسطى بين هذا وذاك ، والتى لا تستطيع أن تنسجم بصورة معقولة بين البر والبحر ، من ناحية وأضحت كما نرى — سبيلا ومطمعا لعديد من القوى — الطامعة فى استثمار هذا الموقع ، فأصابها ما أصاب أكثرية الكيانات التى قامت فى هذا الموطن من ظهور ثم اختفاء سريع ، وكان وجود المذهب الشيعى والحفاظ على حيويته واحد من تلك السمات ، بين أفراد هذه القبيلة ، خاصة فى (القطيف) و (الهفوف) وأحصاهم

= استفاد من الصراع القائم بين « مملكة هرمز » و « مشيخة الجبور » مما سهل من مهمة (البوكيرك) فى تحطيمهم جميعا ، وبدا خليفة « سواريز Soarez » الاهتمام بالتجارة أكثر من اهتمامه بالعمليات العسكرية ، مما اوقع ضررا بالغا بعرب الخليج ، وتفاديا لسيئات النتائج التى لحقت بهم من جراء التعسف فى جمع الضرائب اضطر « سيف الدين » ملك هرمز الذى خلف « طورنشاه » فى الحكم لربط مصالحه بالبرتغاليين والتعاون معهم ضد « الجبور » الذين كانت سيطرتهم حينئذ تشمل (البحــــرين والاحساء) وتمكن البرتغاليون من قتل زعيمهم « مقرن بن زامل » عــام ١٥٢١ م ، الا ان شيخ « المنتفق » (راشد بن مغامس ، استثمر هذا الاضطراب لصالحه واعلن بسط سيادته على الاحساء فى العام التــالى ١٥٢٢ واستمر فى حكمها قرابة ربع قرن .

انظر لمزيد من التفاصيل : د. جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٧٤ — ٧٥ وكذلك نوال حمزة الصيرفى ، النفوذ البرتغالى فى الخليج ، الرياض ١٩٨٣ ، ص ١٤٥ —١٥٢ .

(١٣) احمد ابو حاكمة : تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الاول ، الكويت ١٩٦٧ ، ص ٧٧ .

لوريمر) فى الاولى بـ (٣٠،٠٠٠) وفى الثانية بـ (٢٨،٠٠٠) وذكر أن أكثريتهم خليط من الاثنى عشر والقرامطة[١٤] ، وعدهم فؤاد حمزة فى الاحساء عامة فاقتربوا من الخمسة والعشرين ألفا من بينهم قسم كبير من بنى خالد ، يقيمون فيما يزيد على الاربعين قـرية ، بالاضافة الى بعض الجزر المواجهة للساحل ولموطن سكنى القبيلة فى (تاروت) و (دارين) و (المسلمية) و (جنة) و (أبو على)[١٥] .

ويؤكد حافظ وهبه أن المميز الرئيسى بين سكان الاحساء ، هو انتشار المذهب الشيعى ، بين ما يزيد على نصف سكانه ، ويكرر أيضا أن الاكثرية الساحقة منهم تعيش فى واحة القطيف وفى (تاروت) و (النعائل)[١٦] .

وبصرف النظر عن مدى دقة الارقام التى أوردها هؤلاء نظرا لانعدام السبل للوصول الى حقيقتها فى هذه الفترة وداخل مثل هذه البيئة ، فان المدلول العام ، يعطى أهمية خاصة لفهم توجهات السكان عند التعرض لدراستهم .

استطاع (بنو خالد) الوصول الى حكم الاحساء ، عندما تحالف (براك بن غرير) آل حميد الخالدى ، ومعه (محمد بن حسين بن عثمان) و (مهنا آل جبر) الهجوم على القلعة التركية فى الكوت[١٧] ، انتقاما

---

(١٤) Lorimer (j. j.), Gazetter of Persian Gulf, Vol II pp. 99/1010.

(١٥) فؤاد حمزة : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(١٦) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٨٠ — ٨٢ .

(١٧) بالرغم من أن شبه الجزيرة العربية ، ظلت تمثل أمام الدولة العثمانية عقبة لم يخاطروا باقتحام حافتها الصحراوية ، الا أن الضغوط المتلاحقة للقبائل على أطراف الدولة باتجاه هذه الصحراء مع التواجد الغربى الزاحف داخل الخليج ، شجعت السلطان « سليمان القانونى » لدفع حملة =

لمقتل (راشد بن مغامس) رئيس آل شبيب والتى كانت تحكم حينئذ هناك ، والقضاء على حكم (آل فراسياب) عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٧٠ م ، واستغلالا للاهتمامات البعيدة للدولة العثمانية عن ساحل الخليج للعقبات التى جوبهت بها عنده[١٨] ، فاستطاع (براك) الاستيلاء على (المبرز) ، ومنها اندفع باتجاه الداخل مواصلا انتصاراته فاستولى على (سدوس) فى نجد ، ثم قرية (الزلال) بالقرب من الدرعية .

ولما توفى عام ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م ، خلفه نجله (محمد بن براك) الذى واصل اندفاعه لاخضاع القبائل النجدية ، مركزا على جنــوب الرياض وشمالها فى (المجمعــة) ، فهاجم قبــائل (آل المغيرة)

=

بقيادة « محمد باشا فروخ » عام ١٥٥٥ م ، استولت بواسطتها على « الهفوف » وبنى مسجد بها ، وتطبيقا لسياسة الدولة بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للولايات وللحساسية الخاصة ازاء انتشار المذهب الشيعى، فقد شهد الاحساء هدوءا لفترة طويلة ، ظلت الاحساء خلالها ، تتقلب — باعتبارها ايالة — بين التبعية للبصرة حينا ولنجد أحيانا اخرى ، مع تعيين (ميرميران) لها يتقاضى (سالياته — مرتبا) قدره ...ر٨٨٠ آقجة ، الا أن تلك السيطرة الهشة على الاقليم من قبل العثمانيين ، ثم دخولهم فى الصراع مع البرتغال على ضفاف الخيج خاصة فى جنوبه ، وانشغال الدولة أيضا بصراعها مع الدولة الصفوية فى شماله وبين هذا وذاك ظهرت داخل الدولة حركات مضادة كحركة (ذو الفقار) ، حتى وصلت الدولة العثمانية الى قمة الفوضى فى عهد السلطان (محمد خان الرابع — ١٦٤٨ — ١٦٨٧ م) ولقيت هزائم متعددة على يد البنادقة عام ١٦٥٠ م والحرب مع النمسا فى بداية الستينات .

لمزيد من التفاصيل عن الحكم التركى فى الاحساء انظر :

محمد عبد الله الانصارى : تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء فى القديم والجديد ، الرياض ١٩٦٠ ، ص ١٢٠ — ١٢٢ ، وأيوب صبرى فى المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣ . وعن الصراع فى جنوب الخليج أنظر : فيلبس (وندل) — تاريخ عمان — ترجمة محمد أمين عبد الله ، ط ٢ ، عمــان ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م ، ص ٥٠ — ٥١ .

(١٨) الانصارى ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

و (آل عايذ)[١٩] ، وبعد (محمــد) تولى زعامة بنى خـــالد ابنه سعدون بن محمد) عام ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م ، فتابع غزواته ، واستولى على (الفضول) قرب (نفود السر) ، وأخضع (الظفير) ، وفى عهده بدأت دعوة (محمد بن عبد الوهاب) فى الظهور[٢٠] ، واستطاع بنى خالد من خلال هذا الاندفاع واختراق وسط شبه الجزيرة الوصول الى حكم (الدرعية) نفسها ، بعد أن تمكنوا من ازاحة (ادريس بن وطبان) أحد المنافسين لآل سعود عنها عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م وتولى الحكم فيها رجل من بنى خالد هو (سلطان بن حمد القبس) ، الذى استمر فى رئاستها حتى مقتله عام ١١٢٠ هـ /١٧٠٨ م ، فتولى ابنه (عبد الله) الا أنه قتل هو الآخر فى العام التالى ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م ، عندما ثار عليه أهل الدرعية بقيادة (سعود بن محمد)[٢١] .

على أن (آل خالد) بزعامة (سعدون بن محمد) لم يستكينوا لهذا فدفعوا ببعض رجالهم لمهاجمة موطن (آل سعود) عام ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م وعندما لحقت بهم الهزيمة ، ولم يحققوا شيئا استعاضوا عن ذلك بتدعيم وامداد (دهام بن دواس) شيخ الرياض لاثارة المتاعب ضد زعيم الدرعية الجديد[٢٢] ، عندما استقبل شيوخ بنى خالد — ابن دواس ومعة زيد بن زامل ، صاحب منطقة الخرج[٢٣] ، لدى فشلهما فى مواجهة ابن سعود ، تدعيما (للتحالفات القبلية) التى بدأت تأخذ مجرى جديدا ، باستقبال وتأييد (عثمان بن معمر) شـــيخ العينية

---

(١٩) نفس المصدر .

(٢٠) مؤلف مجهول ، لمع الشهاب ، ص ١٦٧ .

(٢١) عبد الله بن خميس ، الدرعية ، الرياض ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م ، ص ٨٩ .

(٢٢) مؤلف مجهول ، كيف كان ظهـــور شيخ الاســـلام محمد بن عبد الوهاب ، دراســة وتحقيق الدكتور عبد الله الصالح العثيمين ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٣٠) ، الرياض ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ ، ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢٣) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

لمحمد بن عبد الوهاب[٢٤] ، والتى كانت تعنى بالنسبة لبنى خالد ، دلالة خاصة ، فى خضم الصراع بين القبائل بالدرجة الهامة ، باعتباره اخلالا بموازين العلاقات المستمرة بينهم — أى (زعماء الاحساء) وبين قبائل نجد منذ أمد طويل ، عندما رأت هذه القبائل القابعة وسط

شبه الجزيرة العربية فى هذا (المثير) — محمد بن عبد الوهاب — لطبائعهم ، ضياع لأعرافهم وتقاليدهم وعليهم البحث عن قوة أخرى من بينهم ، أو من غيرهم يستطيعون بها مقارعة هذا (التحالف الجديد) .

ويفسر صاحب كتاب (لمع الشهاب) هذا التوجه بقوله :

(وكان الحضر أهل المدر من نجد دائما بعضهم يحارب بعض ، على حسب مقتضى الحال وصلاحية .... من أن كل حاكم له حوزية خاصة — أى مجموعة — فاذا أراد ملك غيره تسخيرا حورب من جميع البلدان) ويستطرد (وحين رأى أكابر نجد ما صدر من محمد بن عبد الوهاب ، وما يخشون من عاقبة صنعه شكوا ذلك الى (سليمان آل محمد الحميدى) الخالدى حاكم بنى خالد والاحساء والقطيف وقطر كلها . فالتمسوا منه أن يمشى على (والى العينية) ويجليه من بلده ، وانما استمدوا من سليمان هذا لأن أهل نجد قاطبة لم يدركوا (عثمان بن محمد) ذلك الوقت اذ هو غاية المنعة والنصرة وكثرة الجنود والمال الكثير لأن بلاده أكبر مدن نجد وأكثرها محصولا)[٢٥] .

لقد كانت أسباب الصدام الحقيقية كامنة فى ميزان المصالح القبلية الى جانب المسألة الدينية ، بالرغم من أن هناك بعض الآراء التى تركز على هذا الجانب الاخير كسبب للصراع[٣٦] ، وعند فشله كان اللجوء الى قوة الاحساء ، ونعتقد أن هذا العامل الدينى لم يتفرد

---

(٢٤) نفس المصدر .
(٢٥) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
(٢٦) د. جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٤ .

بأسباب الصدام ، بل سارت معه فى خط متواز معطيات الاوضاع القبلةي بكل سماتها من تحالفات وصراع وغزو دائم .

لقد تآزرت الاسباب الجغرافية والاقتصادية والمذهبية[٢٧] ثم التاريخية والقبلية أيضا ، ليميل ميزان القوة كل الميل لرجال الساحل على قوة الداخل المتمثلة فى قبائل نجد والتى لم يكن لها من رصيد كاف تستطيع به مواجهة قوة بنى خالد فى الاحساء — الذين ينظرون الى تلك القبائل القابعة فى داخل شبه الجزيرة العربية نظرة (التابع) وتحكموا فى رقاب هذا الاخير بما امتلكوه من أسباب الثروة والتجارة (فقد كان العرب يطؤون أرض بنى خالد على عهد سعدون بن محمد ، الذى زادت فترة حكمه على الاربعين عاما يقودون له الخيل النجاب والهدايا من الابل والدنانير والدراهم)[٢٨] زلفى له .

ومع هذه الاسباب الكامنة داخل شبه الجزيرة ، فقد أتاحت الاوضاع المحيطة بالخليج فى ذلك الوقت فى منتصف القرن ١٨ فرصة سانحة لبنى خالد للتوجه الداخلى ، عندما ضعفت الدولة الصفوية بانهيار حكم (السلطان حسين) ثم الفوضى التى شهدتها فارس خلال هذه الفترة[٢٩] ثم القضاء على النفوذ الهولندى بالخليج بعد اخراجهم من (خرج) عام ١٧٦٥ م على يد (الشيخ مهنا بن نصر) لتفتح هذه الاحداث سبيلا جديدا أمام ذوى الطموح الانجليز خارجيا[٣٠] ، وليؤمن بنى خالد ظهرهم باتجاه الداخل .

---

(٢٧) الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الدولة السعودية الاولى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢٨) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٢٩) Gurzon (G. W) Persia and Persian Question, vol II, London 1897, pp. 422/424.

(٣٠) Bombay Selections : Selections from the Records of the Bombay Government vol. XXIV, Historical sketch about the Uttoobee Arabs, pp. 360/372.

=

ومن خلال هذه المقدرات التى حتمت الصراع بين بنى خالد وآل سعود نستطيع استجلاء وتتبع مراحله بينهما ، عندما بدأ التحفز مع رسالة التهديد الذى بعث بها (سليمان بن محمد) الى (عثمان بن محمد) يطلب اليه فيها اخراج (محمد بن عبد الوهاب) من العيينة[٣١] ، ملوحا له بتدمير مصالحه بالاحساء و (منع جباتك من تحصيل مالك من النخيل) ، والتهديد بقطع سبل المواصلات والتجارة عبر القطيف وبقية موانىء الاحساء ، ثم منع دخول أتباع ابن معمر من كافة المواقع التى له صلة أو سيادة عليها و (أنى أمنع تجار بلدك عن التردد الى أطرافنا من الاحساء والقطيف وسواحل قطر والزبارة وغيرها[٣٢] .

وأمام هذا التهديد بسيف المصالح الاقتصادية بالدرجة الاولى اضطر محمد بن عبد الوهاب للتوجه الى الدرعية واستقبله بها محمد ابن سعود وبدا واضحا أن مؤشر العداء قد انتقل من العيينة الى الدرعية ، وكتب على هذا التحالف الجديد (اتفاق الدرعية) أن يواجه تحديا حقيقيا مع القوة الرئيسية الموجودة بالاحساء .

وهناك آراء قيمة تعرضت لمراحل الصراع والتنافس بين بنى خالد والدولة السعودية ، منها ما أعتمد على عامل الزمن بتقسيمه الى فترتين الاولى خلال حكم محمد بن سعود وفيها تتابعت هجمات بنى خالد على آل سعود ، والثانية فى عهد الامام عبد العزيز بن محمد بن سعود

=

استطاع الانجليز تدعيم نفوذهم بالخليج فى هذه الفترة عندما تمكنوا فى عام ١٧٦٣ م من انشاء (مقيمية) لهم فى ميناء بوشهر والتى بدأت معها هذه المنطقة وانجلترا بالدخول الى مرحلة جديدة .

انظر : د. جمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٣١) حسين بن غنام ، روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، تحقيق د. ناصر الدين الاسد ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص ٧٩ .

الذى استغل اسقاط الرياض فى يده عام ١١٨٧ ﻫ / ١٧٧٣ م ليواجه ضغوط صاحب الاحساء[٣٣] . بينما اعتمد رأى آخر على التقسيم الموضوعى لمراحل الصراع على النحو التالى : الاولى كان يقوم فيها (الوهابيون) بالمناوشات بهدف ارهاب بنى خالد وأتباعهم ، والثانية ادخال بنى خالد فى صراع داخلى والتدخل فى شؤونهم حتى يسهل تمزيقهم والمرحلة الثالثة كانت القضاء على بنى خالد بفتح آل سعود للاحساء عام ١٧٩٥ م[٣٤] .

على أننا نستطيع — اذا ما آمنا بأن الصراع بين بنى خالد وآل سعود كان فى محوره صراعا قبليا ، غذته الرغبة الجامحة فى اقتناص المنافع ، ووضع المصلحة الذاتية الآنية فوق المصلحة العامة الدائمة ، فاننا نعتقد من خلال سرد الاحداث أن مراحل العلاقات بين بنى خالد وآل سعود كانت كالتالى :

أولا : مرحلة الهجمات المتبادلة بينهما منذ عام ١٧٥٨ م الى عام ١٧٨٤ م ، وما تخللها من سبل لتدعيم المواقف بالاستعانة بقوى محلية أخرى .

ثانيا : استغلال الانقسام الداخلى داخـل بنى خالد ، باتباع أسلوب الاغارات الخاطفة على أملاكهم من قبل آل سعود دون الدخول فى معارك مباشرة .

ثالثا : مع تطور الاوضاع المحلية المحيطة بالكيانين المتصارعين ، تحول آل سعود من الاغارات الخاطفة الى اقتطاع أجزاء من موطن بنى خالد ، قطعة قطعة .

رابعا : محاولات الخروج عن التبعية من قبل بعض رؤساء بنى

---

(٣٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٧١ — ٧٣ .
(٣٤) د. جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

خالد من خلال سطحية الادارة وانصراف آل سعود الى التطلع نحو مزيد من مناطق التوسع .

بدأت المرحلة الاولى ، مع الاحساس بالقلق الذى بدأ يساور (عريعر بن دجين) مع الضغوط التى بدأ بممارستها (محمد بن سعود) على بعض مناطق نجد لاخضاعها له كـ (حريميلاء) ومنطقة (الوشم وسدير)[٣٥] وبدا أن القوة هى الوسيلة التى يستخدمها أصحاب الحركة السلفية تحقيقا لأهدافهم ، فبادر زعيم بنى خالد فى عام ١١٧٢ هـ / ١٧٥٩ م بالزحف صوب نجد ، وحاصر (الجبيلة)[٣٦] عندما وجد ترحيبا به من قبل أهل (مينخ) وسدير والوشم ، الذين حاربهم محمد بن سعود قبل ذلك ، على أن هذا الحصار والمناوشات المستمرة بينهما لم تؤد الى نتيجة حاسمة فضل عريعر على أثرها الانسحاب باتجاه الاحساء[٣٧] ، وانتهزت قوات الحركة السلفية الفرصة للانتقام من مؤيدى بنى خالد ، فدفعوا لهم (نكالا) ، ثم تعقب (محمد بن سعود) قوات بنى خالد فى منتصف عام ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ م حتى وصل الى حدود مناطق نفوذها فى موقع يقال له (المطير) يقاتل بعض البدو هناك واستولى على ما لديهم ، ثم أغار على (المبرز) عاصمة (عريعر) الاولى ، وقتل بعض رجالها وقفل راجعا الى الدرعية ، ومعه بعض الغنائم[٣٨] .

ويبدو أن الهجوم المتبادل بين عريعر وآل سعود ، لم يكن الا مجرد محاولة لجس النبض ، واختبار القوة ، ومن ثم اقتنع الطرفان

---

(٣٥) ابن غنام ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ — ١٠٥ .

(٣٦) الجبيلة قرية تقع على الحافة الشرقية لوادى حنيفة يخترقها طريق (العيينة) ، سدوس والحيسية ، انظر : عبد الله بن مخيس ، معجم اليمامة ، ص ٢٦٦ .

(٣٧) عثمان بن عبد الله بن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، الرياض ١٩٨٣ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٧) ، ص ٢٨ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص ٩٠ .

بأهمية الصلح ، أو كما نرى ــ الحصول على هدنة ــ أملا فى الاستعداد لجولات قادمة .

فبالرغم من هجمات آل سعود ، الا أنهم بادروا بطلب الصلح مع عريعر ، وعبروا عن ذلك بارسال الهدايا كالخيل وبعض الابل[٣٩] .

وكأعراف القبائل لم يكن هذا الصلح مكتوبا ، بل تم شفاهة ، ونعتقد أنه نص ــ كما هو سائد ــ على ايقاف الحملات والاغارات المتبادلة بينهما ، ونص كما أوردت بعض المصادر على أن الصلح يسرى لمدة سبع سنين[٤٠] .

على أنه ــ كما ذكرنا ــ لم يكن هذا الصلح الا خدعة أو هدنة من قبل الأطراف المعنية ، فبعد أربعة أعوام فقط من توقيعه ، تغلبت أسباب العداء على ما عداها من عوامل الاستقرار .

ففى عام ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م ، زحف (عبد العزيز بن محمد بن سعود) باتجاه الحجاز فاصطدم ببعض عشائر من قبيلة العجمان وقتل منهم الكثير[٤١] ، فما كان من هؤلاء الا أن استغاثوا برؤساء نجران ذوى قرباهم وكان يرأسهم حينئذ (حسن بن هبة الله المكرمى) وهو شيعى[٤٢] ، ونعتقد أن عامل المذهب هذا ــ كان من أهم أسباب الاستنجاد ــ لأن العجمان أيضا تنتشر بينهم بعض طوائف الشيعة .

---

(٣٩) مؤلف مجهول ، لمع الشهاب ، ص ٣٩ .
(٤٠) لمع الشهاب ــ المصدر السابق ، ص ٣٩ .
(٤١) ابن بشر ، المصدر السابق جـ ١ ، ص ٩٥ .
(٤٢) شيعى من طائفة (الاسماعيلية) ، يعرف هو وأسرته التى سادت نجران دينياوزمنيا منذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى ، أى مع ظهور « محمد بن اسماعيل » المتوفى عام ١١٢٩ هـ الى « على محسن بن حسن » الذى توفى عام ١٣٣٠ هـ ، يعرفون باسم « المكارمة » نسبة الى « مكرم بن سبأ بن حمير الاصغر بن يعرب بن قحطان » .
انظر : فؤاد حمزة ، فى بلاد عسير ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ص ١٧٢ ــ ١٧٥ .

اغتنم (المكرمى) الفرصة ، وزحف باتجاه الدرعية ونزل فى منطقة (الحاير)[٤٣] موجها ضربات قوية ضد قوات محمد بن سعود كانت من أعنف ما وجه اليه منذ ظهور الدعوة[٤٤] . ووصلت أعداد القتلى الى ما يقرب من (أربعمائة) رجل وما يزيد عليه بكثير وقعوا بالاسر ، ويقول حافظ وهبة (ربما كان عام ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م من أشد السنين على (محمد بن سعود)[٤٥] وبالرغم من تباين المصادر عند ذكر الرغبة فى التحالف بين (عريعر) و (المكرمى) ، الا أننا نعتقد أن عامل المذهب الدينى أيضا ، ثم كون (آل سعود) هم العدو المشترك بينهما من أهم أسباب الالتقاء بينهما لقتال (الدرعية) ، وما أطلقته أيضـا بعض المصادر على هـذا التحالف باسم (حـرب الاحزاب)[٤٦] ليس ببعيد عن هذا التآلف بين أنصار المذهب الواحد .

ثم أعلنت معظم المناطق التى آلت قبل ذلك لآل سعود ، نكوصها وانضمامها الى قوات صاحب نجران ، كأهل منفوحة وعرقة وثادق وحريملا ، وعندما سمع (عريعر بن دجين) بأنباء ما حدث ، زحف هو الآخر برجال بنى خالد حتى وصل (الدهناء)[٤٧] ، فى الوقت الذى رأى فيه (محمد بن سعود) خروجا من المأزق الذى وقعت فيه أملاكه ونفوذه طلب الصلح مع (المكرمى) بارسال الهدايا وتقديم الجوارى

---

(٤٣) الحائر ، منطقة صخرية تقع الى الجنوب من « منفوحة » جنوب غرب الرياض حاليا تبعد عنها مسافة عشرة كيلو مترات ، وتلتقى عنده أودية ثلاث هى « وادى حنيفة » و« وادى لحا » و« وادى البعيجا » ، انظر : عبد الله بن خميس ، معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٤٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٤٥) حافظ وهبه ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(٤٦) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص ٩٥ — ٩٨ ، وانظر أيضا ، أمين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٩) ، الرياض ، ص ٥٢ .

(٤٧) الدهناء باتجاه الجنوب الشرقى من الرياض ، فى بداية وادى « فلج » عند الربع الخالى .

والصبيان اظهارا لحسن النية واشارة الى الضعف والوهن ، وطلب مبادلة الاسرى[٤٨] .

أما (عريعر) فقد استمر فى تقدمه مع ما أعلنته أيضا بعض القبائل من التأييد له ك (آل شمر) خلال زحفه حتى أصبح قريبا من الدرعية ذاتها[٤٩] ، الا أن (حسن بن هبة الله) لم يستجب لنداء (عريعر) باستمرار القتال للقضاء على الدعوة (لو كان هذا الاتفاق قبل أن يجرى الصلح بيننا وبينه لانتظم الامر على وفق خاطرك ، ولكن الآن نحن حصل مرادنا من الانتقام وقد طلب منا العفو ونحن أهل له عند القدرة وأعطيناه ، فلا يمكننا ابدال القول . أما أنت فمختار بحربك معه ، نحن لا نتعرض بشىء)[٥٠] .

استمر عريعر فى مقاتلة أهل الدرعية عند (أعلا الباطن) ما يقرب من الشهر ، دون الوصـــول الى نتيجة حاســـمة فآثر الارتداد الى الاحساء ، ورجع (عبد العزيز) قائد قوات الدعوة الى موطنه أيضـــا[٥١] .

ويبدو أن ما أصاب (عريعر) من فشل خلال هجماته السابقة قد أقنعته الى حد ما بالعدول عن الاستمرار فى هذا الاتجاه الضاغط على آل سعود حتى تأتيه فرصة أخرى ، كما انشغل عبد العزيز بن محمد هو الآخر بأمر اخضاع شمال نجد عقب وفاة والده (محمد) فاستمر الهـــدوء لمدة عشر ســـنوات من ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤ م حتى ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م[٥٢] .

عبد العزيز ابن محمد ، من دخول الرياض والاستيلاء عليها ، وقتل

---

(٤٨) ابن بشر ، نفس المصدر ، ص ٩٦ .
(٤٩) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(٥٠) لمع الشهاب — المصدر السابق ص ٤١/٤٢ .
(٥١) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ص ٩٦/٩٨ .
(٥٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

استأنفت الاشتباكات بين آل سعود وبنى خالد ، عنـدما تمكن رئيسها (دهام بن دواس) الى الجنوب باتجاه منطقة الخرج ووادى الدواسر[٥٣] ، التى شكلت حينئذ مقرا لتكتل القوى المعادية لآل سعود ، عندما تحالف (زيد بن زامل) الديلمى مع قبائل (وادى الدواسر) وموافقة قبائل نجران الانضمام اليهم بعدما بذلوا لهم الاموال والهدايا ، وزحف الجميع بقواتهم تجاه الدرعية فى منتصف عام ١٧٧٤ م ، وبصرف النظـر عن الصـلح ثم النكوص عنه بين (ابن زامل) و آل سعود)[٥٤] ، الا أن (عريعر) قد رأى فى هـذا الضغط المتواصل على الدرعية فرصة ذهبية يمكن أن تحقق أهدافه التى ذهبت سدى قبل ذلك .

زحفت قوات عريعر قبيل نهاية عام ١٧٧٤ م — باتجاه (بريده) حتى يمكن بضغطه على النواحى الشمالية من الدرعية محاصرتها مع الضغط جنوبا من قبل تحالف أهل نجران والديلمى فهاجم البلدة بعدما حاصرها وتمكن من دخولها ، وأقام بها عدة أيام ، اضطر أنصار الحركة السلفية على اثرها الى الفرار (كآل عليان) ، فتتبعهم (عريعر) حتى وصل الى مكان يدعى (الخابية) وأقام فيها يراسل بعض القبائل ، الا أن الموت عاجله ، وهو فى ذاك الموضـع[٥٥] وتولى أكبر أبناءه (بطين) زعامة بنى خالد ، استطاع خلال المائة يوم التى تولاها صد بعض المناصرين لآل سعود من أهل (الوشم) الذين قادهم (محمد ابن جماز) أمير شقرا ، على أن أخويه (سعدون) و (دجين) لم يقبلا بزعامته ، فاغتالوه ، وتولى الاخير مكانه ، الذى لم يستمر هو الآخر طويلا ، حتى توفى وقيل أن أخاه الاكبر دس له السم ، ومن ثم فضل

---

(٥٣) نفس المصدر ، روضة الافهام ، ص ١٣٨/١٤٠ .
(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٣٨/١٤٠ .
(٥٥) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(سعدون بن عريعر) مع هــذه التطورات المتلاحقــة ، العودة الى الاحساء[٥٦] .

وبالرغم من أن بعض المصادر تعتقد ببداية انهيار آل خالد عقب وفاة (عريعر) ثم ما أعقبه من صراع بين أبنائه[٥٧] . الا أننا نرى فى مجريات الاحداث بعد ذلك استمرارا لسمات ذات المرحلة باستمرار الاشتباكات المتبادلة بينهما .

استمرت رئاسة (سعدون بن عريعر) لآل خالد اثنتا عشر سنة ابتداء من عام ١١٩٢ هـ / ١٧٧٧ م ، قضى معظمها فى السير على النهج السابق فى الهجمات المتتالية على المناطق الخاضعة لآل سعود ، أو التى لم تحدد تبعيتها بعد ــ كالخرج والقصيم ، حيث استمرت قبائلها تتأرجح بين هذا وذاك ، وأضحت بالتالى مهوى لأعداء ومنافس الدعوة السلفية وآل سعود ــ كأهل نجران ــ كما ذكرنا سابقا و (آل مرة) من قبائل الحساء والتى أوقعت الهزيمة بآل ســعود فى (مخيريق) عام ١١٩٠ هـ / ١٧٧٥ م[٥٨] ، بالاضافة الى (سعدون) الذى استأنف عهده بالزحف نحو (الخــرج) ، عنــدما وصل الى علمه ، فشــل (عبد العزيز بن محمد) اخضاع قبائلها ، فبدأ من جانبه الزحف باتجاه جنوب الدرعية ، لتحقيق أهدافه بها عن طريق الخديعة ولتنفيذها ، أعلن رغبته فى الصلح مع آل سعود للوصول الى حل وســط بشأن (الخرج) وما أن أجابه عبد العزيز على ذلك بشرط الرحيل عنها ، حتى تظاهر بذلك ورحل باتجاه الشرق ونزل (بنبان) الماء المعروف جنوب العارض ولكنه نكص مرة أخرى واستولى على (مبايض) فى المجزل ، فاعتبر آل سعود ــ ما حدث تراجعا عن الصلح[٥٩] ، وان رحل سعدون

---

(٥٦) نفس المصدر .
(٥٧) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٧٣ ، وكذلك لمع الشهاب ، ص ١٦٨ .
(٥٨) ابن بشر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .
(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

بعدها الى موطنه وما أن كانت بداية العام التالى ١١٩٣ هـ / ١٧٧٨ م حتى أرسل اليه أهل (حرمة) و (الزلفى) فى شمال شرقى الدرعية برغبتهم الاستيلاء على (المجمعة) فلبى دعوتهم احصارها الذى استمر قرابة الشهر ، دون جدوى ، وبالرغم من استغاثة أهل البلدة بعبد العزيز ابن محمد ، ثم الاشتباكات المتقطعة بينهما ، فان البدو من الطرفين أعياهم الحصار وشق عليهما الاستمرار على هذا النمط ، فانسحب الجمع كله الى وجهته(٦٠) .

وفى العام التالى ١١٩٤ هـ / ١٧٧٩ م ، أراد عبد العزيز عقاب أهل الزلفى فدفع بقواته بقيادة عبد الله بن محمد بن سعود لعقابهم ، ولكنه فشل فى اخضاعهم ، وعند عودته أيضا أغار على (الوشم وسدير) وقتل منهم بضع عشرات عقابا لهم ، ولحق بـــ (ضرما) ما لحق بمن قبلها(٦١) .

وهكذا ظلت الخرج و (القصيم) فى شكلهما يمثلان (بؤرة استقطاب) للأطراف المتصارعة ، فصعب على (آل سعود) حتى تلك اللحظة اخضاعهما ، ولم يتمكن بنى خالد من ايجاد قاعدة صلبة لهم فيها بالرغم من كونها حلقة تجارية من حلقات المواصلات التى تخدم مصالحهم بصورة محددة ، وحدثت تلك (الميوعة) فى المواقف نظـــرا لطبيعة الانماط القبلية عديمة الثبات ، والانانية الموغلة بين عناصرها ، فاعتمدت (القصيم) لتأكيد هذا الموقف على ظهيرها الصحراوى الطويل ــ الموصل الى العراق لاستخدامه ملجأ للكر والفر ، خاصة عند وجود البديل التجارى فى البصرة وأهميتها ــ كموقع ــ وسط بين الاخيرة والدرعية ، فتلاعبت به مع ضغوط آل سعود عليها ، وتهديدات بنى خالد (الاقتصادية)(٦٢) .

---

(٦٠) عبد الله بن خميس ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .
(٦١) ابن بشر ، ص ص ١٣٧/١٤٠ .
(٦٢) فؤاد حمزة ، فى قلب جزيرة العرب ، ص ص ٣٣٦/٣٣٨ .

كما ركنت (الخرج ووادى الدواسر) هى الاخرى على عمقها الصحراوى كذلك وخطوط تماسها باعتبارها حلقة وسطى بين قطبى العداء لآل سعود فى نجران وساحل الخليج • ومن هنا نستطيع تفسير استمرارية التذبذب وعدم الحسم لدى كافة الاطراف المتداخلة فى هذا الصراع •

واستمرار لهذه الاوضاع ، سرعان ما نقض أهل القصيم تعهدهم مع آل سعود عدا (بريده والرس والتنومة) عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م بخلـــع التبعية لهم فقتلوا عددا من الرسل الذين أوفدتهم الدرعية لتعليم أبناءهم ، ومعها أعلن (سعدون بن عريعر) استعداده للزحف ، فاستنفر قواته مع اعلان تأييد قبائل (الظفير) و (شمر) و (عنزة) تأييدها لبنى خالد فى زحفه نحو — محاصرة بلدة (بريدة) من كافة الجهات[٦٣] ، واستمر هذا الحصار خمسة أشهر فشل خلالها (ابن عريعر) فى اقتحامها حتى من خلال محاولته تصنيع بعض المدافع اليدوية التى حاول استخدامها لتحقيق هدفه[٦٤] ، دون جدوى ، حتى اذا يأس من ذلك قرر الرحيل من القصيم ، مشـــبعا أهواء أتباعه — كعادة البدو — بنهب بعض البلدان والقرى الواقعة على أطرافه فى طريق عودته كـــ (الروضة) التى أطاح برؤساء قبائلها ، وأقام عليهم (آل ماضى)[٦٥] •

ويبدو أن آل سعود قد خرجوا من خلال أحداث (الخـــرج) و (بريدة) بعدة سمات مفادها :

أولا : عدم امكانية تكوين تحالف قوى بين القبائل ، سواء معهم أو مع أعداءهم بنى خالد ، يستطيع أى منهما خلاله مواجهة الطرف

---

(٦٣) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ص ١٤٦/١٤٧ (انظر الخريطة رقم ٢) .
(٦٤) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ .
(٦٥) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

الآخر ، لأن طبيعة البدو كما ذكرنا لا تستقيم على حال الا بما يحقق لها الغنائم والاسلاب سريعا •

ثانيا : أن أسلوب الدفاع وصد الهجمات مع القيام ببعض حالات التعقب للاعداء ، سوف يجعل من (الدرعية) وأتباعها — مهوى — لكافة القبائل حتى أعلنت الولاء لها •

ثالثا : لقد بدا واضحا أن القدرة القتالية لبنى خالد من خلال الاشـــتباكات المتتالية ليســـت بالقوة التى يخشى بأسها حتى يمكن هزيمتها •

حدث ذلك عندما بدأ آل خــالد يتحولون من كونهم قوة لها أتباعها الى قوة مساعدة تابعة لقوة أخرى ، نتيجة لما تعرضت له زعامة القبيلة من انقسام للتنافس من أجل الوصول الى الرئاسة ، ومن خلال هذا النزاع ، غرست ملامح المرحلة التالية من مراحل العلاقات بين بنى خالد وآل سعود التى تميزت بالاغارات الخاطفة على الاحساء ، دون الدخول فى معارك مباشرة •

ففى العام الثامن من زعامة (سعدون بن عريعر) ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٤ م — ثار قسم من بنى خالد ضم (المهاشير وآل صبيح) ومعهم (دويحس بن عريعر) و (محمــد آل عريعر) يؤازرهم خالهــم (عبد المحسن بن سرداح) من فخذ آل عبد اللــه من آل حميد ، والجميع ضد (سعدون)[٦٦] • ولم يتمكن أيا منهم تحقيق نصر حاسم ضد الآخر ، فلجأ (ابن سرداح) ومعه أنصاره الى (ثوينى ابن عبد الله) زعيم المنتفق فى بداية محرم عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م الذى لبى النداء تحقيقا لطموحه فى البصرة وما حولها ، وبتشجيع من الدولة العثمانية ثم أمام عمان (أحمد بن سعيد) فى محاولة لضرب

---

(٦٦) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٧/١٦٨ .

أنصار الدعوة السلفية[٦٧] الا أن ثوينى اضطر للعودة مرة أخرى الى مقر قبيلته ، نظرا لما كان يمر بالبصرة من أحداث داخلية ، الا أن هذا الموقف من قبل ثوينى كان كفيلا بتشجيع بنى خالد للصدام مع آل سعود بقيادة (سعود بن محمد)[٦٨] عندما تقابلا فى (جضعة) شمال غربى الاحساء ولقى (سعدون) فى المعركة هزيمة منكرة نتيجة لهذا الحماس غير المحسوب ، ولم يجد مع هذا الموقف بدا من الفرار الى منافسيه فاتجه الى (الدرعية) طلبا للحماية ، وتولى زعامة بنى خالد (دويحس آل عريعر) ظاهريا ، وواقعيا كانت مقاليد الامور بيد خاله عبد المحسن ، الذى ما لبث أن أطاح بدويحس فى العام التالى ١٧٨٥ ليستقل هو بالزعامة[٦٩] .

أجمل أحد المهتمين سمات هـذه المرحلة الثانية فى الفـترة من ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م الى ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م بالقول :

(فى كل هذه السنوات كانت الدرعية تتخول الاحساء بغزواتها وكانت تتقفى دولة بنى حميـد ــ بنى خـالد ــ من أطرافها حتى استسلمت) بمعنى اتباع استراتيجية الهجوم خطوة خطوة[٧٠] .

بدأ سعود بن عبد العزيز هذه السياسة الجديدة مع بداية عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م وفى خضم الانقسام الداخلى بين بنى خالد ، فزحف باتجاه موطنهم غربا وقام باغارة خاطفة على بعض الواحات

---

(٦٧) Bombay Government, Historical and Other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and other places in the Persian Gulf vol XXIV, Bombay, 1856, pp. 172/173.

(٦٨) ابن غنام ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٦٩) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٧٠) عبد الله بن خميس ، الدرعية ، ص ١٨٣ .

الصغيرة المتناثرة هناك ، واستولى على بعض الحيوانات وقفل راجعا الى الدرعية[٧١] (كجس للنبض) .

ومع حسم الصراع الداخلى بين آل عريعر لصالح (ابن سرداح) زحف هذا الاخير ومعه ثوينى زعيم المنتفق فى بداية عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م مؤيدا من قبائل (شمر وغالب وأهل الزبير) بحجة تعقب (سعدون) وقصدوا ناحية (القصيم) حتى وصلوا (التنومة) جنوبها ، فدمروها ، وواصلوا تقدمهم حتى (الزلفى) واستولوا عليها أيضا ، ثم جعلوا هدفهم (بريدة) فحاصروها ، الا أن (ثوينى) قفل راجعا الى البصرة[٧٢] ، وتفرق الجمع مرة أخرى وعاد (سرداح) هو الآخر الى بلاده دون تحقيق شىء يذكر[٧٣] .

ومع بداية العام التالى ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م ، تتابعت الهجمات المضادة لآل سعود على مواطن بنى خالد فى الاحساء . واتخذت شكل الاغارات الخاطفة والحصول على الغنائم والعودة الى الدرعية مرة أخرى ، دون الدخول فى معارك مباشرة .

ففى هذا العام ١٧٨٧ م أغار (سليمان بن عفيصان) زعيم جند (سعود) على (العقير) واستولى على بعض الخيول والمواد الغذائية

---

(٧١) مؤلف مجهول ، كيف كان ظهور شيخ الاسلام ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٧٢) مع ولاية سليمان باشا الكبير فى بغداد ، ازدادت الضغوط الفارسية على جنوب العراق ، وكانت اليد التى استطاعت مواجهة هذا الضغط تنحصر فى (القبائل) وكان منها (المنتفق) ، على ان هذا الانتصار لهم ، أدى بتلك العشائر الى الاحساس بتفوقهم ، ومن ثم كانت الفرصة لاعلان الاستقلال . وما كان زحف (ثوينى) باتجاه نجد الا احدى هذه الوسائل ثم عودته فى ذلك العام١٧٨٦ م مع علمه بثورة (حمد الحمود) زعيم الخزاعل، لتحقيق ذات الهدف . انظر : العزاوى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤/٢٤٦ .

(٧٣) ابن بشر ، المصدر السباق ، ص ١٦١ .

التى كانت بالميناء ، وأشــعل النار فى بعض المنــازل ، ثم عاد الى بلاده[٧٤] .

وفى منتصــف عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م زحف (ســـعود بن عبد العزيز) باتجاه قرى منطقة (ألطف) القريبة من الصمان فى غارة خاطفة أيضا ، وحصل من تلك الغزوة التى جرت عند (ويقة) على بعض الغنــائم كالذخائر وبعض المواد الغــذائية وعاد بعــدها الى الدرعية[٧٥] ، وفى أواخر العام نفسه ١٧٨٨ م أغار (سعود) مرة أخرى على (المبرز) العاصمة الاولى لبنى خالد ، وواصل زحفه حتى قرية (الفضول) ولم تكن أهدافه فيها تخالف ما قبلها[٧٦] .

ومع تلك الاغارات المتتالية على عقر دار بنى خالد وضحت بذور مرحلة جديدة من مراحل العلاقات بين هذه الاطراف المتصارعة ، كان على آل سعود اتباع خطوات جديدة أكثر حسما ، بالدخول فى قتال
على آل سعود اتباع خطوات جديدة أكثر حسما ، بالدخول فى قتال
مباشر مع أعدائهم أصحاب الاحساء واقتطاع أجزاء منها وضمها لهم ، مع التدرج المباشر فى حكم المنطقة بتعيين ولاة لآل سعود من (بنى خــالد) أنفسهم .

ولقد دفع آل سعود الى اتباع هذه السياسة الجديدة ، عوامل متعلقة بمنطقة شبه الجزيرة والخليج بالاضافة الى بعض الاحداث داخل بنى خالد أنفسهم وكانت هذه العوامل على النحو التالى :

أولا : بدأت موازين القوى بالاختلال مع استيلاء العتوب على (البحــرين) فى منتصــف عام ١٧٨٣ م ، وتأييد (آل مســلم) أتباع بنى خالد فى قطر لهذه التطورات الجديدة من خلال اشتراكهم

---

(٧٤) ابن بشر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٦٢ .
(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٦٧ .
(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٦٧ .
(٧٦) نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

فى الاستيلاء على البحرين[٧٧] ، وأصبحت الحاجة ملحة لحسم مصير الاحساء ، خشية القفز عليها من قبل (العتوب) أعـداء آل سعود لتكون محطتهم التالية بعد البحرين[٧٨] .

ثانيا : كما انشغل حكام عمان بأمر صراعهم الداخلى لتحديد مصير الزعامة بينهم ، عقب وفاة السلطان (أحمد بن سعيد) فى يناير عام ١٧٨٣ م[٧٩] .

---

(٧٧) كان يحكم بالبحرين (آل مذكور) وهم من العمانيين الذين هاجروا الى « بوشهر » عام ١٦٤٦ م ، ولما دبت الفوضى فى فارس عقب وفاة « نادر شاه » عام ١٧٤٧ م اتفقوا مع « كريم خان » على حكم البحرين مقابل ضريبة سنوية ، وتحقق لهم ذلك عام ١٧٥٣ م ، فى ذات الوقت الذى قويت فيه شوكة (العتوب) وازدهرت (الزبارة) التى اتخذوها مقرا لهم ، فتحولت الى مدينة ، غير انها لم تستطع تلبية متطلبات هذا التوسع العتبى الجديد ، فتطلعوا الى البحرين التى اضحت القوة الأضعف بعد ما ادركوا العجز عن الصدام مع (آل مسلم) فى قطر ، وهم حينئذ اتباع بنى خالد فى الاحســاء .

ومع احساس (العتوب) بخطورة المد السعودى الجديد ، استعد هؤلاء للزحف على (البحرين) فى معركة فاصلة فكان يقف الى جانب شيخ (بوشهر) شيخ بنى كعب وشيخ بندرريق وشيخ هرمز ، وفرع من القواسم وجميعهم من العرب المقيمين على الشاطىء الشرقى للخليج أما العتوب برئاسة « احمد بن محمد » — (الفاتح) شيخ الزبارة فقد انضم اليهم الجلاهمة فى (الرويس) و « آل مسلم » من الحويلة و « آل بو على » من (الفويريط) واستطاعوا دخول البحرين فى٢٨ يوليو ١٧٨٣ م .

انظر : د. فائق حمدى طهبوب ، تاريخ البحرين السياسى ، الكويت ١٩٨١ ، ص ص ٤٨/٥٢ .

Belegravo (J.H.), Welcome to Bahrain London, 7th Edition, 1980, p. 12,

(٧٨) Bombay Seles, Historical sketch obout the Uttoobee Arabs (Bahrain) vol XXIV, pp. 361/372.

(٧٩) نتيجة لسياسة (اللامركزية) التى اتبعها السلطان « احمد بن سعيد » قسمت البلاد الى اقسام ثلاث ، فاختص السلطان الجديد بمسقط والامامة بالداخل وانفصلت مشيخات الساحل العمانى ، د. عبد العزيز
=

ثالثا : انهيار الدعم الرئيسى لبنى خالد ، ونعنى بهم المنتفق جنوب غربى البصرة باقصاء (ثوينى بن عبد الله) عن رئاستها وزعامة البصرة ، مع هزيمته من قبل (سليمان باشا) الملقب بالكبير فى معركة (سوق الشيوخ) جنوب نهر (الفاضلية) وفراره الى (الجهراء) ومنها الى (بنى خالد) فى (الصمان) وتولية (حمود بن ثامر) عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م[٨٠] .

ومع الرغبة الجامحة لدى أصحاب الدعوة السلفية بث دعواهم ونفوذهم داخل الكويت[٨١] ، وعندما أتت الاحداث بجنوب البصرة على هذا الشكل ، أعتقد (سعود) أن الفرصة قد واتته لتحقيق أهدافه بشمال الخليج ، فسارع أواخر عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م متجها الى الاحساء وهاجم (المبرز) مرة أخرى واستولى على ما فيها ، ثم ولى وجهه شطر قرية (الفضول) فاستولى عليها وقتل من أهلها ما يقرب من ثلاثمائة رجل[٨٢] ، حتى اذا كانت بداية العام الهجرى ١٢٠٤ هـ / أواخر الميلادى ١٧٨٨ م أعد (آلسعود) عددا من قبائل (الظفير) و (العارض) ومعهم (زيد بن عريعر) المنافس على زعامة قبيلته ، وزحف بهم لمواجهة قوات بنى خالد برئاسة (عبد المحسن بن سرداح) وابن أخيه (دويحس بن ريعر) عند (غريميل) وهو جبل صغير قرب منطقة الاحساء[٨٣] ، **ليبدأ سعود بن عبد العزيز بهذا الهجوم ضده :**

=

عبد الغنى ابراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، الرياض ١٤٠٢ ، مطبوعات الدارة (٢٥) ، ص ١٣٠ . ولمزيد من التفاصيل انظر : د. جمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٨٠) ابو حاكمة ، المرجع السابق ، تاريخ الكويت ، ص ص ٧٥/٨١ .

(٨١) د. جمال زكريا قاسم ، موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الاحساء ، بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ١٧ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٩٥ .

(٨٢) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٨٣) ابن غنام ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

المرحلة الثالثة من مراحل العلاقات بينه وبين بنى خالد :

تقاتل الفريقان ثلاثة أيام ، الا أن الهزيمة لحقت بـ (عبد المحسن) وأتباعه الذى هرب الى قبيلة المنتفق ، وتولى أمر بنى خالد (زيد بن عريعر) كنائب له • على بنى خالد[٨٤] •

وبالانتصار فى (غريميل) انتهت قوة بنى خالد العسكرية ، وان بقى نفوذهم السياسى والاقتصادى كما هو ، بتعيين أمير منهم — على رئاسة منطقتهم ويبدو — كما نعتقد — أن آل سعود ، قد وضعوا فى حسبانهم مدى حساسية الموقف المذهبى والقوة الاقتصادية وعلاقة بنى خالد المتشابكة مع بقية القوى المحلية ، هذا من ناحية ، وما يأمل فيه آل سعود من طموحات فى المناطق الشمالية للاحساء وفى شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى •

فبالرغم من هذا الانتصار ، فان شرقى موطن بنى خالد خاصة على الشريط الساحلى للخليج ظلت كما هى — خاصة فى القطيف وما حولها — يقول صاحب كتاب لمع الشهاب :

(وبقى شرق الاحساء لم يطع ، وهذا الشرق بلادين كثيرة يبلغ عددها أربعين قرية ، وأهل ذلك شيعة المذهب ، وكبيرهم قاطبة — على بن أحمد)[٨٥] وعلى الرغم من نفى بعض المصادر — لوجود هذا الزعيم[٨٦] ، الا أن عدم اندفاع سعود بن عبد العزيز نحو السيطرة الكاملة لتلك المنطقة ، وتعيين رئيس من بنى خالد عليهم يؤكد ما أبديناه من توجهات لآل سعود قبل مناطق السيادة الجديدة •

---

(٨٤) ابن بشر ، نفس المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٠ •

(٨٥) لمع الشهاب : المصدر السابق ص ٧١/٧٠ •

(٨٦) التعليق على تلك الحادثة ونفيها ، وردت على لسان محقق لمع الشهاب نفسه ، الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ص ٧١ •

كما أن عبد المحسن بن سرداح لم يستسلم لما لحق به من هزيمة وعاد فى العام التالى ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م مهاجما لبادية بنى خالد معتمدا على الرعاة غير المستقرين فى مواطنه ، وانضم اليه الكثير ممن فروا عقب الهزيمة الى الصحراء[٨٧] ، ويبدو أنه أرد الاستعاضة عن فقدان حليفه الأول وهم المنتفق ، بحليف جديد للتكتل أمام (آل سعود) استمرارا لتحول (بنى خالد) الى قوة تابعة ، وكان هذا الحليف هو (الشريف غالب) فى الحجاز ، الذى سارع بتلبية طلبات عبد المحسن ، معاداة لآل سعود ، وأرسل اليه تحقيقا لهذا التحالف بعض الأموال والعبيد (استعن بهذا على حرب عبد العزيز وأغزوه من تلك الاطراف التى تليكم ، لئلا تقوى شوكته فيميل عليكم ميلة واحدة . وهذا أنا أمش عليه من جهة الحجاز ، فأجابه عبد المحسن لما قال)[٨٨] .

ولكن هذا التحالف الجديد لم يكتب له النجاح ، مع فشل الشريف غالب فى تحقيق أهدافه بغزو نجد مع هزيمته عند (قصر بسام) المعروف فى منطقة (السر) وقرية (قصر الشعرا) فى عالية نجد شرقى (جبل ثهلان)[٨٩] ، ومعه أيضا — قتل (عبد المحسن بن سرداح) فى بداية عام ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م عندما استدرجه (زيد بن عريعر) باعطاءه الامان ، وما أن وصل اليهم حتى قتلوه[٩٠] .

شجع هذا الانتصار (سعود بن عبد العزيز) استكمال — تقدمه لاخضاع المنطقة الساحلية من أملاك بنى خالد ، خاصة حول واحة (القطيف) ، ففى عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م — دفع بقواته نحو (سيهات) احدى قراها فحاصرها ثم دخلها ، وتبعتها (القديح) ثم (عنك) و(العوامية) وسرعان ما سقطت (الفرضة) القاعدة الرئيسية

---

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٧١ .
(٨٨) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .
(٨٩) ابن بشر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ص ١٧٦/١٧٤ .
(٩٠) ابن بشر : نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

المتقدمة للقطيف[٩١] . وأضطر أتباع (عبد المحسن بن سرداح) برئاسة ولده (براك) الى الفرار مرة أخرى الى الشمال باتجاه المنتفق ، فواصلت قوات (سعود) زحفها من خلفه ، ولكن (براك) نكص على عقبيه الى (اللصافة) ، وتقابل الطرفان عندها فى قتال غير متكافىء فى منتصف عام ١٧٩٢ م ، ودارت الدائرة على هذا الأخير وفر هاربا مرة أخرى الى المنتفق[٩٢] . مع استمرار زعامة (عبد الله بن سليمان من المهاشير) وبادرت قوات آل سعود ، بنشر مبادىء الدعوة فى المناطق المستولى عليها ، بتحطيم آثر ومساجد الشيعة بالقطيف وما حولها من القرى ، يقول ابن بشر « وأزال المسلمون جميع ما فى القطيف من الأوثان والمتعبدات والكنائس وأحرقوا كتبهم القبيحة بعدما جمعوا منها أحمالا »[٩٣] .

وتباينت أهواء البعض الآخر ، بين طامع فى الغنيمة والأسلاب وآخر يدعو الى نشر مبادىء الدعوة السلفية ، فيقول ابن بشر أيضا : « فأرسل ـ سعود ـ الى رؤساء المسلمين واستشارهم فى النفير أو الحضير ، فقال له رؤساء العربان ، انهض وشن الغارة على أهليهم وخذ أموالهم ومواشيهم ومحلهم فليس دونها صادر ولا وارد ، فتكلم حجيلان بن حمد فقال : كل على ما يريد يشير ، وهؤلاء المشيرون مقصدهم الغنيمة ونحن مقصدنا عز الاسلام والمسلمين »[٩٤] .

ويبدو أن (سعود) قد قنع بالولاء الظاهرى الذى أبدته منطقة الاحساء ، بعدما خضعت له القطيف ، وعين عليها أميرا من بنى خالد هو (عبد الله بن سليمان) من المهاشير ، ومعه (أحمد بن غانم) ، كما عين (زيد بن عريعر) من قبل رئيسا للقبيلة ، وبدأ بازالة ما بها من

---

(٩١) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .
(٩٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .
(٩٣) نفس المصدر .
(٩٤) ابن بشر ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

مظاهر (شركية) ، فعين (عبد الله بن فاضل) و(ابراهيم بن عيدان) كائمة لشرح دروس التوحيد ، و(محمد بن سليمان) ومعه (حمد بن حسين بن سبيت) لقيادة القوات المرابطة ، ثم رحل من الاحساء ونزل حدود الدهناء فى منطقة (الطف)[٩٥] .

فمن خلال المفهوم القبلى للزعامة لكونها مسألة منوطة بأبناء القبيلة سطحية الادارة التى وضعها بالاقليم ، ومع استمرار القوة الاقتصادية والعمق التاريخى والاجتماعى لبنى خالد ، برزت ملامح مرحلة تالية بالرغم من تلك السيطرة لآل سعود ، هى مرحلة الانقلابات المضادة .

فمن خلال المفهوم القبلى للزعامة لكونها مسألة منوطة بأبناء القبيلة ذاتها ، وطبيعة ميزان القوة الذى كان يميل الى جانب بنى خالد ، لم يستكن هؤلاء بسهولة لحكم آل سعود ، فعقب خروج سعود من الاحساء ، فى منتصف عام ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م ، تمرد أهلها فى أول حركة مضادة وقتلوا كافة العلماءالذين عينهم سعود مع قادة القوات وحاصروا جنودهم فى القلاع ثم قتلوهم ، وما لبث زيد بن عريعر أن خلع رداء التبعية وأعلن استقلاله عن آل سعود[٩٦] .

ويبدو أن سعودا أستشعر خطورة موقفه ، خاصة مع اعلان بعض القبائل الاخرى كفرع العتوب — آل عمران — بزعامة (مهينى بن عمران) ، وأهل الهفوف ، تأييدهم لحركة التمرد ، فقرر العودة الى الدرعية ، دون مواجهة هذه القوات[٩٧] .

كان (براك) عقب هزيمته فى (اللصافة) قد طلب العفو من (سعود) وأقام فى الدرعية ، وفى العام التالى ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م أعد أصحاب الحركة السلفية عدتهم للقضاء على التمرد ومعهم (براك)

---

(٩٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .
(٩٦) حسين بن غنام ، المصدر السابق ، ص ١٨١/١٨٣ .
(٩٧) ابن بشر ، ص ٢٠٤ .

فبدأت تلك القوات بمحاصرة (الشقيق) ثم دخلتها ، بعدها ولى (سعود) وجهه شطر شمال الاحساء عند (القرين) و (المطـيرفى) وأخضعهما وأخذ من أهلهم نصف أموالهم[٩٨] .

وعندما استشعر زيد بن عريعر — اقتراب القوات السعودية خرج لمواجهتها بالقرب من (المبرز) ودارت فيها موقعة (المحيرس) هزم فيها (زيد) ، واتبع (سعود) أسلوب التدمير الشامل فأخذ ما فى البلدة من أمتعة وأموال وطعام ، وواصل زحفه باتجاه الشرق نحو الساحل ، بنفس الاسلوب يقول ابن بشر : (وجميع البوادى الذين مع سعود وغيرهم يدمرون فى الاحساء ويهدمون النخيل ويأخذون من التمر ويبيعـونه أحمالا ، ويأكلون ويطعمون رواحلهم من الحاضر والبادى واكتالوا جميع البوادى من الاحساء نهبا وأوقروا رواحلهم ، وأقاموا على ذلك أياما)[٩٩] .

ومع اعادة الهدوء والخضوع لمعظم قرى الشرق ، ثم شفاعة (براك بن عبد المحسن) لأهل الاحساء لدى (سعود) الذى رحل عقب ذلك الى (الدرعية) شريطة اخراج (زيد بن عريعر) وذويه ، الا أن (براك) لم يتمكن من دخول بلدة (الاحساء) الا بقتال مع أهلها وبجند معاونة من آل سعود ، حتى استطاع الاقامة بـ (المبرز) ، وهرب أولاد (عريعر) الى البصرة ، وأمر (عبد العزيز بن محمد) بتعيين (براك) أميرا على الاحســـاء فى أواخر عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م[١٠٠] .

على أن (براك) هو الآخر ، ولنفس الاسباب السابقة ، ما لبث أن تمرد على (عبد العزيز بن محمد) بعد عام فقط من توليه النيابة

---

(٩٨) ابن بشر ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .
(٩٩) ابن بشر ، نفس المصدر .
(١٠٠) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

عنه فى الاحساء فى عام ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م • وفيها كان التمرد الثـــانى •

ففى هذا العام ـــ أرسل آل سعود جندا كثيفا الى (القطيف) من خلال خططه حينئذ التى تهدف اخضاع قطر والبحرين والكويت لآل سعود[١٠١] مما أثار حفيظة حكامها من بنى خالد ـــ كما ذكرنا ـــ وهم (عبد الله بن سليمان المهاشيرى) المعين نائبا لآل سعود ، خشية الاطاحة بهم عندما نزل (ابراهيم بن عنيصان) القائد السعودى بقواته التى بلغت ثمانية آلاف فى (سيهات) جنوب القطيف ، فأرسل ابن سليمان قواته لمقاتلتهم ، وأوقع بهم الهزيمة فى موقعة (الظهران) ، وواجه ابن عفيصان هذا الموقف الحـــرج بتكثيف نشاطه التخريبى بالقرى المحيطة بالواحة بتدميرها ونهب ما بها من أموال وأمتعة[١٠٢] •

على أن (عبد الله بن سليمان) استمر فى تعقب (ابن عفيصان) حتى التقيا فى معركة عند (الجارودية) هزمت فيها قوات آل خالد ، فانسحب (ابن سليمان) الى (تاروت) وتحصن فى قلعتها ، الى أن تمكنت قوات (آل سعود) ، بعد حصـــار دام اثنى عشر يوما من دخولها ، وفر قائد جند بنى خـــالد منها ، بعد مقتـــل ما يقرب من المائتين من رجاله[١٠٣] ، عقب وصول الامدادات من الدرعية برئاسة (صالح بن راشد الدوسرى) •

---

(١٠١) قام القائد السعودى « ابراهيم بن عفيصان » عام ١٧٩٢ بدفع قواته نحو البحرين وأخضع الكثـــير من قراها مثل (فريحـــة والحويلة واليوسفية وغيرها) ، وان استمرت (الزبارة) مجالا للصراع بينهم حتى بداية ق ١٩ . انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٨٨/٨٧ . كما حاول آل سعود أيضا فى ذات الوقت اخضاع الكويت الا انهم لم يتمكنوا من ذلك خاصة مع قيام اهل الكويت ببناء سور حول مدينتهم ، نفس المرجع ، ص ص ٩١/٩٠ .

(١٠٢) لمع الشهاب ، ص ٧٣ .

(١٠٣) لمع الشهاب ، نفس المصدر ، ص ٧٤ .

على أن خطر التمرد لم يتوقف عند هذا الحد ، بل استشرى فى أنحاء متعددة باعلان كثير من رؤساء القبائل تأييدهم لابن سليمان أمثال (صالح بن النجار) و (على بن سلطان) و (سلطان الجبيلى) ، وبسرعان ما أعلن (براك بن عبد المحسن) نائب عبد العزيز فى الاحساء تمرده هو الآخر ، ومعه أهل (الرفعة) و (النعاثل) وهم من الشيعة ، وأضحى أهل الشرق جميعا فى (ثورة) ضد آل سعود وقواته ، فى كافة الانحاء ، الا أن (ابن عفيصان) استطاع اخضاع هذا التمرد عندما أعلن (مهوس بن شقير) رئيس العتبان نكوصه عن مساعدة المتمردين ، ونجا بنفسه بالهروب عن طريق ميناء (العقير) قاصدا (الزبارة)[١٠٤] على أن (براك) استمر فى عصيانه ، فلم يجد سعود بدا من قيادة قوات اضافية أخرى والزحف بها نحو الاحساء حتى وصل (الرقيقة) جنوب بلدة الهفوف ، وأمر بجمع مشاهير المنطقة فيها وأوقع فيهم مذبحة ممن ساوره شك فى موقفه وحبس بعضهم الآخر وفرض عليهم غرامة مالية[١٠٥] .

يقول ابن بشر : (فأقام فى ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله ويجلى من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ويأخذ من الاموال ويهدم من المحال ويبنى ثغورا ويهدم دورا وضرب عليهم ألوفا من الدراهم وقبضها منهم وذلك لأجل ما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمين وجرهم الاعداء عليهم)[١٠٦] .

لجأت عربان بنى خالد ــ برئاسة براك ــ وباستثناء فرع (المهاشير) فى محاولة يائسة ــ الى المنتفق ، عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م ، فى الوقت الذى استشعرت فيه الدولة العثمانية خطورة ما أسفرت عنه الانتصارات السعودية على ساحل الخليج شرقا والضغط على الحجاز

---

(١٠٤) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
(١٠٥) نفس المصدر ، ص ٢١٦ .
(١٠٦) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

غربا وحثت (سليمان باشا) والى بغداد على دفــع قواته لتحطيم الدرعية ، الذى ـــ كان يدرك ـــ هو الآخر ، الصعوبات التى يمكن أن نواجهه فى قتال الصحراء[١٠٧] ، وخرج من هذا المأزق ، بقناعة ، مفادها أن خير وسيلة لمواجهة تلك الانماط هى ضرب القبائل بعضــها ببعض ، وكلف (ثوينى) بتنفيذ هذه المهمة بعد عزل (حمود بن ثامر) لخبرة هذا القائد ومعايشته لآل سعود حين كان لاجئا بالدرعية[١٠٨] .

لم تستطع هذه الحملة تحقيق أهدافها ـــ نظرا لمقتل (ثوينى بن عبد الله) قائدها بيد رجل يدعى (طعيس) من آل جبور من بنى خالد فى منتصف يونيه ١٧٩٧ م[١٠٩] وتفرق جند الحملة وتشتت أهواءها ، بتخلى (براك بن عبد المحسن) عن هدف مهاجمة الدرعية ، عندما استشعر ميلا واضحا من ثوينى قبل مقتله الى الفرع الآخر المنافس له (عريعر) وبدأ بالاتصال بـــ (حسن بن مشارى) أحد قادة جنــد الدرعيـــة[١١٠] .

أما (براك) فقد اختلفت المصادر فى مصيره ، فمنهم من يقول أنه انقلب على عقبيه بعد أن أعطاه (ابن مشارى) الأمان فقاتل جند

---

(١٠٧) د. أبو حاكمة ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم ١ ، ص ٢٥٦/٢٥٧ ود. عبد العزيز نوار ، داود باشا ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٨ .

(١٠٨) مع العلاقة الوثيقة التى ربطت بنى خالد بالمنتفق خلال زعامة ثوينى الاولى لها فقد اشترك فى الهجوم على القصيم ، كما سبق أن ذكرنا ، ولم يعود الى البصرة خلال هذا الهجوم عام ١٧٨٦ ، الا بعد علمه بالاضطراب الذى سادها ، فحاول الاستقلال عن الدولة ، لكنه منى بالهزيمة ، ولجأ الى الدرعية ، وان استمر فى طلب العفو من (سليمان باشا) والى بغداد ، حتى عفا عنه وعاد الى البصرة ، وكلفه بحرب آل ســـعود فى ذلك العام ١٧٩٦ م . انظـــر : ابن بشر ، ج ١ ، ص ص ٢١٧/٢١٩ .

(١٠٩) ابن بشر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(١١٠) عباس العزاوى ، العراق بين احتلالين ، ج ٦ ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ١٢٤/١٢٥ .

آل سعود عند هجومهم على (سوق الشيوخ) بالقرب من البصرة ، فقتل هناك عام ١٢١٢ هـ / أواخر عام ١٧٩٧ م[١١١] والبعض الآخر يقول أنه فر هاربا مع بعض رفاقه الى الصحراء ، على امتداد طريق القوافل التجارية بين البصرة والدرعية ، فى منطقة القصيم ، مستغلا انشغال عبد العزيز بن محمد فى فتح الحجاز ، مما سـبب ازعاجا للدرعية ، فلما عاد سعود من مهمته هناك عام ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م ، بعد وفاة (عبد العزيز) بعامين ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م ، وصلته أنباء الاغارات الخاطفة لـ (براك) بالقرب من الدرعية ، فطارده (سعود) ولم يجد مفرا من الاستسلام ، وأعطى الأمان بالفعل ، لكنه لم يمكث بالدرعية سوى سبعة أيام ، ثم وجد ميتا[١١٢] — ونعتقد — اذا صدقت تلك الرواية — أنه مات مسموما •

أما مصير (الاحساء) عام ١٧٩٦ م بعد أن أتم (ابراهيم بن عفيصان) الاستيلاء على القطيف ، فقد أرسل الى (عبد العزيز بن محمد) يخبره باستخلاص المدينة ، وانتهاء أمر بنى خالد ، فأمره بالقدوم الى الدرعية ، وتعيين (أحمد بن غانم) القطيفى — نائب (عبد الله بن سليمان) السابق ذكره نائبا عنه حين غيابه ، وزيد بن نبهان التميمى ، قائدا عسكريا (على القلاع والعسكر)[١١٣] •

وعندما أنس (عبد العزيز) أمانة (ابن عفيصان) بدفع الاموال التى أخذها من أهل القطيف الى (بيت المال) أصدر أمره بتعيينه أميرا على الاحساء والقطيف وتوابعها وبسلطات مطلقة فى تصريف شؤونها • (هذا ابراهيم بن عفيصان ، ولدى ، وهو العمدة فى الدين ، لا يكون بعد — سعود — أحد أحب الى منه ، قم يا ابراهيم ، سر على بركات الله تعالى الى الاحساء ، وكن أميرها ، وأمير القطيف من توابعك ،

---

(١١١) ابن بشر ، نفس المصدر ، ص ٢٤١ .
(١١٢) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(١١٣) نفس المصدر ، ص ٧٥ .

وكل ما تراه صلاحا للدين ومقويا لأحوال المسلمين أفعله ، واستمد من اخوانك المسلمين ما شئت من العسكر ، فأنت عيننا فى ذلك القطر وأميننا فى كل عصر ما دمنا ودمت)(١١٤) .

على أن موافقة عبد العزيز لابن عفيصان للزحف نحو (الزبارة) لم تدع له الفرصة الاستمرار فى الاقامة فى هذه المنطقة ، فعين (سليمان ابن محمد بن ماجد الناصرى) — مؤقتا — أميرا عليها ، حتى عاد اليها بصورة نهائية عام ١٨٠٤ م(١١٥) .

والامر الملفت للنظر ، هو أن آل سعود ، قد أحجموا عن تعيين قاضى فى أملاك بنى خالد أو علماء بها(١١٦) — كعادتهم فى البلدان التى يدخلونها ، ونعتقد أن الكثرة (الشيعية) داخل هذا النطاق تكمن وراء هذا الموقف خشية الصراع المذهبى وحداثة التواجد السلفى بها ، وما أمر الحركات المضادة ببعيد .

فتح القضاء على سيطرة (بنى خالد) فى منطقة الاحساء الباب على مصراعيه أمام آل سعود للتطلع نحو الكيانات المجاورة ، وبدأوا باتخاذ (العقير) و (القطيف) متكأ للهجوم والضغط على (الزبارة) معقل (العتوب) ومنها الى البحرين(١١٧) .

ويبدو أن هذا الاتجاه — نحو الجنوب كان هو النافذة لاشباع رغبات الدولة السعودية ، كاتجاه أمثل ، واكتفت بشن هجمات متعددة ومتناثرة على الكويت — باتجاه الشمال ، منذ عام ١٧٩٣ م — كجس

---

(١١٤) لمع الشهاب ، المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(١١٥) (B. S.), Selection from the Records of the Bomboy Govornament vol. XXIV, Historical seketch obout the (Uttoobee) Arabs Bahrain, pp. 365/367.

(١١٦) انظر قائمة ولاة وقضاة آل سعود ، فى ابن خميس ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ ، وابن بشر ، جـ ١ ، ص ٢٧٨/٢٧٩ .

(١١٧) B. S., Sketch about tse Uttoobee pp. 366/371

نبض للوجود البريطانى ــ مع اقامة (المقيمين) لهم (بوشهر)[١١٨] ــ كما ذكرنا • وتحت تأثير اغارات (سعود بن عبد العزيز) اضطر أهل الكويت الى بناء سور حول مدينتهم عام ١٧٩٨ م ، ثم كان الفشل الذى ــ منى به آل سعود عند أبواب (الجهراء) عام ١٨٠٤ م كفيلا بتحويل اهتمامهم باتجاه الجنوب العراقى[١١٩] •

كما أضحى الصدام ــ أمرا محتما خلال التسعينات من أواخر القرن ١٨ بين آل سعود والبوسعيد ــ مع التقاءهما على ساحل الخليج ، بعدما زالت عقبة (بنى خالد) ، ثم انضمام (القواسم) الى الحركة السلفية وأصبحوا يدا بحرية لهم ولأول مرة[١٢٠] •

وكان يعنى وصول القوات السعودية الى الاطراف الشمالية الشرقية للخليج ، ثم بداية الضغط المتواصل على الجانب الغربى لشبه الجزيرة العربية أى (الحجاز) يمثل فى حد ذاته الصدام المباشر بين الدولة العثمانية وآل سعود ، التى بدأت تدرك الخطورة التى يمثلها هذا الامتداد للحركة السلفية بكل ما حملته من معانى سياسية ودينية واخلال بموازين الحركة داخل الولايات التابعة لها ، فبدأت بشن موجات متتالية من الهجمات على المواقع التى استولى عليها آل سعود ، عن طريق ولاتها ، وما كانت (حملة ثوينى) عام ١٧٩٦ / ١٧٩٧ م ،

---

(١١٨) د. جمال زكريا ، المرجع السابق ، ص ٤٠١/٤٠٢ .

(١١٩) د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

(١٢٠) B. S. Historical Sketch About, Muscat pp. 170/183.

وكذلك :

B. S. Historical Sketch About (Joosmee) Tribe, pp. 305/310.

ولمزيد من التفاصيل انظر :

Howely (Donald), Trucial States London 1970, pp. 95/125.

الا بداية لهذا الاتجاه ، الذى بلغ ذروته مع حملة محمد على ، التى حطمت الدرعية عام ١٨١٨ م[١٢١] .

وهكذا وبالقدر الذى ساعد فيه عامل الموقع والقدرة الاقتصادية ، والانتشار العددى ، على دفع بنى خالد ، لتتبوأ مكانها حينا من الوقت ، الا أنها لم تستطع الاستمرار فى الحفاظ على تلك المكانة مع حفاظها على النمط القبلى — بكل رتابته ، وتدفق ريع المميزات التى حصلت عليها باتجاه يد الزعامة الاسرية ، أى أنها ظلت تدور فى فلك محدود ، فى ذات الوقت الذى بدأ فيه ذلك البحر الآسن بالحركة — مع الزحف الغربى باتجاه الخليج ومحاولة القوى المحلية فيه تكييف علاقتها تبعا لمصالحها وتطورات الاحداث ، ثم مع استثمار العامل الدينى من جانب بعض القوى الاخرى المحلية[١٢٢] ، — وهم آل سعود — لتحطيم النطاق الضيق جغرافيا و (سياسيا) الذى تتقوقع فيه ، واستخدام هـذا العامل (العاطفى) ليسحب من خلفه غايات قبلية متعددة .

وبالرغم من هذا ، فقد ظلت هذه العوامل كلها — السلبية والايجابية معا ، العميقة والسطحية أيضا ، تلعب دورها فى مواقع السيطرة بشكل علنى أو مستتر ، ردحا طويلا من الزمن — فى ذات المنطقة حتى قبل بنى خالد — ومرورا بهم وحتى وقتنا الحاضر ، لأن التغيير حال تبادل المواقع لم يصب القاعدة العريضة من المحكومين قدر اصابته المقاعد التى تبوأ عليها الحكام .

---

(١٢١) لمزيد من الشرح فى هذا الموضوع ، انظر :

د. عبد الحميد البطريق : ابراهيم باشا فى بلاد العرب ، القسم الاول من كتاب : ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥١٣ .

ود. ابو حاكمة ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الاول ، ص ص ٢٥٨/٢٥٩ .

(١٢٢) Kelly (J.B.), Britain and the Persian Gulf (, 1785/1880) London 1968, pp. 44/46.

مصـــــادر البحــث

أولا ـ وثائق منشـــورة :

مختارات من سجلات حكومة بومباى

Selections faom the Records of the Bombay Government, vol. XXIV.

بناء على التقـارير التى دونها مســادو المقيمين البريطانيين فى الخليج ومنهم فرنسيس واردن Francis Warden عن الفترة ما بين ١٧٩٥ ـ ١٨١٨ وهى التى تتعلق بموضوع الدراسة وتشمل :

1 — Historical and other Information Connected the Province of Oman Muscat, Bombay, 1856.

2 — Hisorical Sketch about the uttoobee Arabs (Bahrain).

3 — Historical sketch about (Muscat).

4 — Historical sketch about (Joosmee).

ثانيا ـ المراجع والمصادر العربية والمترجمة :

١ ـ الدكتور أحمد أبو حاكمة ـ تاريخ الكويت ـ جـ ١ ـ القسم الاول ـ الكويت ١٩٦٧ •

٢ ـ أمين سعيد ـ تاريخ الدولة السعودية ـ من مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٩) بدون تاريخ •

٣ ـ أيوب صبرى ـ مرآة جزيرة العرب ـ جـ ٢ ـ ترجمة د• أحمد فؤاد متولى و د• الصفصافى أحمد مرسى • الرياض ١٩٨٣ •

٤ ـ الدكتور جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى الاول ١٥٠٧ هـ / ١٨٤٠ م ـ القاهرة ١٩٨٥ •

٥ — ________________ — موقف الكويت من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الاحساء (بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (١٧) القاهرة ١٩٧١ ٠

٦ — حافظ وهبه — جزيرة العرب فى القرن العشرين — القاهرة ١٩٣٥ ٠

٧ — حسين بن غنام — روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام — تحقيق د٠ ناصر الدين الاسد القاهرة ١٩٦١ ٠

٨ — حمد بن محمد بن رزيق — الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين ط ٢ — عمان ١٩٨٣ ٠

٩ — عباس العزاوى — العراق بين احتلالين جـ ٦ — بغداد ١٩٥٩

١٠ — الدكتور عبد الحميد البطريق — ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا — القسم الاول — (ابراهيم باشا فى بلاد العرب) — القاهرة ١٩٤٨ ٠

١١ — عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم — الدولة السعودية الاولى — القاهرة ١٩٦٩ ٠

١٢ — الدكتور عبد العزيز سليمان نوار — داود باشا — القاهرة ١٩٦٨

١٣ — الدكتور عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم — علاقة ساحل عمان ببريطانيا — مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٥) الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ ٠

١٤ — عبد الله بن محمد بن خميس — معجم اليمامة — جزءان — الرياض ١٩٧٨ ٠

١٥ — ________________ — الدرعية — الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ٠

١٦ — الدكتور عبد الله يوسف الغنيم — جــزيرة العرب من كتاب المالك والمسالك لأبى عبيد البكرى — تحقيــق ودراسة — الكويت ١٩٧٧ .

١٧ — ثمان بن عبد الله بن بشر — عنوان المجد فى تاريخ نجد — جزءان — مطبوعات دارة الملك عبد العــزيز (٢٧) الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١٨ — عمر رضــا كحالة — معجم قبائل العرب — جـ ١ — ط ٢ — بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ .

١٩ — الدكتور فائق حمدى طهبوب — تاريخ البحرين السياسى — الكويت ١٩٨١ .

٢٠ — فــؤاد حمــزة — فى بلاد عســير — القاهرة ١٩٥١ .

٢١ — ______________ — قلــب جــزيرة العرب — ط ٢ — القاهرة ١٩٦٨ .

٢٢ — فيلبس (وندل) — تاريخ عمان — ترجمة محمد أمين عبد الله — ط ٢ — عمان ١٩٨٣ .

٢٣ — مؤلف مجهــول — كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب — دراسة وتحقيق الدكتــور عبد الله الصــالح العثيمين — مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٣٠) — الرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٢٤ — مؤلف مجهــول — لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب — مطبوعات دارة المــلك عبد العــزيز — (٢) — الرياض ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٢٥ — محمد بن عبد الله الانصارى — تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء فى القديم والجديد — الرياض ١٩٦٠ م .

٢٦ ــ نوال حمزة الصيرفى ــ النفوذ البرتغالى فى الخليج ــ الرياض ١٩٨٣ .

ثالثا ــ المصادر والمراجع الاجنبية :

1 — Belgrave (J. H.O), Welcome to Bahrain, 7th Edition London, 1970.

2 — Curzon (G. N), Persia and Persian Question London, 1897.

3 — Howelly (Donald), Trucial States London, 1970.

4 — Kelly (J. B), Britain and the Persian Gulf (1785/1890), London, 1968.

5 — Lorimer (J. J), Gazetter of Persian Gulf, vol. II Calacutta, 1415.

6 — Neibuher (C.), Travels Through Aarbia and other Countries in East, vol II, London, 1792.

مضـــامين شريفـــة
بنصـــوص تأسيس المدرسة الأشرفية
برســـباى بالقـــاهرة
دراســـة معمارية حضـــارية

دكتور / حسنى محمد نويصر
كلية الآثار ــ جامعـــة القاهرة

مقدمـــة

تعرف هذه المنشأة باسم المدرسة الأشرفية[1] ، أثر رقم ١٧٥

---

(١) فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، مصلحة المساحة ١٩٥١ .
انظـــــر :
المصادر التى تناولت هذه المنشأة وحياة السلطان برسباى فى :
ــحجة وقف الاشرف برسباى بدفترخانة وزارة الأوقاف رقم ٨٨٠ نشرها وعلق عليها الدكتور أحمد دارج بمطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة كما أعاد نشر أجزاء منها الزميل محمد عبد الستار ضمن رسالته للماجستير عن الآثار المعمارية للسلطان الاشرف برسباى والمحفوظة بمكتبة كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٧ .
ــ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص٣٣٠/٣٣١ ، السلوك جـ ٤ ، ص ٤٥٢ ، وما بعدها .
ــ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٨ ، تحقيق ٣٨ .
ــ التبر المســـبوك ، ص ١٣٨ .
ــ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٤٢ ، وما بعدها ، ص ٣٨٧ .
ــ ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ ، وما بعدها .
ــ ابن الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر .
ــ الشوكانى : البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ١٦١ .
ــ الاسحاقى : اخبار الدول ، ص ١٢٢ .
ــ النابلسى : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٩ .
ومن المراجع العربية : مادة برسباى فى دائرة المعارف الاسلامية :
ــ حسن قاســـم : المزارات الاسلامية .
ــ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد .
=

٨٢٦ — ٨٢٩ هـ / ١٤٢٣ — ١٤٢٥ م . تقع بشارع المعز لدين الله أو القصبة العظمى قديما بناها السلطان الأشرف أبو النصر برسباى الذى حكم مصر من عام ٨٢٥ الى ٨٤١ هـ (١٤٢٢ — ١٤٣٧ م) وذكرها المقريزى المؤرخ باسم الجامع الأشرفى[١] وعرف موقعه بأنه كان فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر ، وكان هذا الجامع — فى عصره — تجاه سوق الوراقين[٢] (شكل ١) .

ولهذه المنشأة — حاليا — ثلاث واجهات أهمها الجنوبية الشرقية وتطل على شارع المعز لدين الله حاليا — تجاه سوق الوراقين فى عصر ربسباى — وتطل الواجهة الشمالية الشرقية حاليا على شارع الخردجية وكان يسمى بالتربيعة[٣] بينما تطل الواجهة الثالثة على حارة الاشرافية أو الحمزاوى .

ويتبع تخطيط هذه المنشأة الطراز الايوانى (شكل ٢) فتتكون من صحن مكشوف أسمته وثيقة السـلطان برسباى رقم ٨٨٠ والمحفوظة بدفترخانة وزارة الأوقاف باسم « دور رقاعة » . وايوانين كبيرين وآخرين صغيرين ، هذا بالاضافة الى قبة ضريحية بالزاوية الشرقية

=

— د. سعاد ماهر ، مساجد القاهرة وأولياؤها ، ص ١٠٩ — ١١٧ .

ومن المراجع الافرنجية :

Berchem (M. V.), Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum. Le Caire, 1894-1903.

Combe (E.) Suvaget (S.) et Wiet (G.), Repertoire chronologique d'epigraphie Arabe, Le Caire.

Darrg (A,), Egypte sous le renge de Bars-Bai, 825-841 H. 1422-1438. D. Damas instit Francais. 1961.

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٣٠ ، ويذكر المرحوم حسـن قاسم أن سوق العنبر هو السوق الذى يباع فيه الحرائر والخيوط والغزل الفاخر ، وليس العنبر المستخدم فى الأكل ، المقريزى : الخطط ص ١٠٢ .

(٢) ابن اياس : البدائع ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(٣) حسن قاسم : المزارات ، ص ٧٣ .

للمنشأة وسبيل وكتاب بالزاوية الجنوبية منها . وهى من المنشـــآت المعلقة يصعد اليها بواسطة سلم بطرفين ولها مدخل رئيسى بالزاوية الجنوبية يتوجه طاقية مخوصة ، ولها مئذنة شاهقة تقع على يمين دهليز المدخل تبدأ من السطح العالى بقاعدة مربعة ثم بدن اسطوانى مزخرف بجفت مضفور ثم قمة على طراز القلة . وهذه المئذنة متأثرة بمئذنتى السلطان الناصر فرج بجبانة المماليك (أثر رقم ١٤٩) .

الدراســـــة

تشتمل هذه المنشأة على عدة نصوص قرآنية وتأسيسية بالاضافة الى وثائق شرعية محفورة على الحجر بأملاك السلطان برسباى ، تتركز هذه النصوص فى الأماكن التالية :

١ — نص قرآنى وتأسيسى على عضادتى المدخل الرئيسى .

٢ — نص قرآنى وتأسيسى بأعلى الواجهة الجنوبية الشرقية .

٣ — نص قرآنى وتأسيسى بأعلى جدران الصحن .

٤ — أجزاء من الوثيقة الشرعية للسلطان برسباى تبدأ من الجدار الجنوبى الغربى من أيوان القبلة .

وتقوم هذه الدراسة على استخلاص المعانى الشريفة التى وردت بهذه النصوص والتعريف بها وذلك — خلال المضامين التالية : —

أولا : وظيفـــة المنشـــأة .

ثانيا : استحقاق السلطان برسباى للقب خادم الحرمين الشريفين.

ثالثا : استحقاق السلطان برسباى للقب قاتل الكفرة والمشركين .

أولا — وظيفـة المنشـأة

يوجد على عضادتى المدخل الرئيسى للمنشأة نص قرآنى ينتهى بنص تأسيسى ، محفور على الرخام بالخط الثلث المملوكى متوسـط الحجم بصيغة :

« بسم الله الرحمن الرحيم وان المساجد لله[1] فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم . أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين قسيم أمير المؤمنين خادم الحرمين الشريفين المالك الملك الأشرف خلد الله ملكه » (شكل ٣) .

والناظر الى مضمون النص على هذا الجـزء بالذات من عمارة المنشأة وهو المدخل الرئيسى وفى مستوى قامة الانسان ليراه الداخل والخارج من المكان يجد أن النص يشتمل على معنيين هامين أو وظيفتين هامتين ظهرت أولاهما فى الشطر الاول من النص وهى أن هذا المكان قام بوظيفة مسجد جامع ووظف المعمار هذه الآية الكريمة للتدليل على هذه الوظيفة « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » صدق الله العظيم .

والأمر الثانى الهام أو الوظيفة الثانية لهذه المنشأة انها أيضـا

---

(١) قرآن كريم : سورة الجن ، آية رقم ١٨ ، وقد نشر هذا النص من قبل فى :

Berchem (M. V.), C. I. A., p. 351

والمرحوم حسـن عبد الوهاب فى كتابه المسـاجد ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، سعاد ماهر (دكتورة) مساجد القاهرة ، ج ٤ ، ص ١١١ ، ونشره أيضا المرحوم حسن قاسم فى كتابه المزارات الاسلامية الا أنه وضع مكان سورة الجن الآية القرآنية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... الى المهتدين » الا أن الصحيح ما هو منشور .

انظـر : المزارات ، ص ٧٥ .

قامت بوظيفة المدرسة لتدريس الفقه الاسلامى على المذاهب الأربعة بدأت أول الأمر بالمذهب[٢] الحنفى ثم أضاف اليها السلطان برسباى بقية المذاهب الثلاثة الباقية ٠

وأود فى هذه الدراسة العاجلة أن أؤكد أن النظريات السابقة التى تناولت موضوع نشأة المدرسة الايوانية فى مصر على اعتبار أنها من مستحدثات العصر الأيوبى على يد صلاح الدين وأنها عمارة وافدة من خارج مصر[٣] سواء من الشام أو من ايران وكذلك فكرة تزايد عدد الايوانات من اثنين الى أربعة ••• أقول أن هذه النظريات تفتقد الى الأصول الصحيحة التى قامت عليها الفكرة الايوانية فى مصر ٠

فالتخطيط الايوانى ليس وافدا علينا فى عصر صلاح الدين ، بل كان معروفا منذ منتصف القرن الثالث الهجرى على أقل تقدير ٠ فقد أخرجت لنا الحفائر التى قام بها على بهجت وجبرائيل فى الفسطاط فيما بين سنة ١٩١١ — ١٩١٣ م مجموعة رائعة من التخطيطات الايوانية أطلق عليها شموليا اسم البيوت[٤] الطولونية ٠

---

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٦٤ ٠

وكان ذلك فى شهر رمضان حيث يقول المقريزى : « فى تاسعه قرر السلطان فى جامعه المستجد بجوار قيسارية العنبر من القاهرة دروسا ثلاثة.

انظـــر :

— السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٣٢ ٠

(٣) Berchem (M. V.), The principal forms of Islamic religious building (Syro-Egyptian Sshool) article in Encyclopaedia of Islam pp. 422-5, 1910.

Creswell (K. A. C.), The origin of the cruciform plan of Cairene Madrassas, B. I. F. A. O, xxl, pp. 1-54, 1922.

Briggs (M.), Muhammadan architecture, p. 79. Oxford, 1924.

، فريد شافعى (دكتور) العمارة العربية الاسلامية ، ص ٤٤ذ ، وما بعدها ٠

، عادل نجم عبود (دكتور) : المدرسة فى العمارة الايوبية فى سوريا ، من مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ، عام ١٩٧٤ ٠

(٤) حفريات الفسطاط ، مطبوعات دار الآثار العربية ٠

وتقوم فكرة هذه البيوت على وجود صحن أوسط يتخلق منه عدد من الايوانات تتراوح بين العمق والضحالة • وغالبا ما يقع مدخلها على أحد الجوانب (مدخل منكسر) • فما يطلق عليه اســم الدار الثانية والتى كشف عنهــا الدكتور عباس حلمى تقــوم على نظام الايوانين المتقابلين[٥] حول فناء أوسط (شكل ٤) •

وتظهر تخطيطات الدار الثالثة من دور الفسطاط أنها على نظام الأربع ايوانات (شكل ٥) المتعامدة حول صحن أوسط • وهو نفس النظام الذى بنيت به مدرسة الناصر[٦] محمد بن قلاوون بالقاهرة (٦٩٥ — ٧٠٣ هـ) •

ولو دققنا النظر فى كل ما وصلنا من أشكال التخطيط الذى أطلق عليه اسم المدرسة لوجدنا (شكل ٦) له أصولا أولى فى التخطيطات التى عثر عليها فى مدينة الفسطاط والتى أطلق عليها اسما شموليا هو البيوت رغم انه لم يبحث فى وظيفتها على وجه التحديد •

وليس أدل على توحد أشكال التخطيطات الايوانية قديما وحديثا ما لاحظناه من تحول بعض القصور أو البيوت الى مساجد أو مدارس فى العصر المملوكى مثل قصر شرف الدين (شكل ٧) الذى تحول الى مسجد شرف الدين بمجرد أن وضع فيه محراب فى اتجاه القبلة وكذلك مدرسة خوشقدم الاحمدى التى كانت فى أصلها دارا بنيت سنة ٧٦٨ هـ /

=

انظر ايضا : عباس حلمى (الدكتور) .

تطور المسكن المصرى من الفتح العربى حتى العصر العثمانى ، رسالة دكتوراه محفوظة بمقتبة جامعة القاهرة ، القاهرة رقم ٦٦٧ .

كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ، سنوات ١٩١٥/١٩١٩ صفحات ٢٧٥/٧٨ .

(٥) عباس حلمى (الدكتور) : المدارس الاسلامية ودور العلم ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاســلامية بمكة المكرمة ، ص ١٦٧ ، شــكل ١٨ .

(٦) عباس حلمى : المدارس الاسلامية ، شكل ٢٠ ، ٢١ .

١٣٧٢ م وحولت الى مدرسة(٧) وهى الموجــودة الآن بشارع درب الحصر بحى القلعة بالقاهرة •

ومن ناحية أخــرى فان تعددية الايوانات وازديادها من العصر الأيوبى الى العصر المملوكى ، هى أيضا فكرة يدحضها الواقع الأثرى الذى تخلف عن عمائر العصر المملوكى بشقيه البحرى والجركسى • ولم يتحكم فى ذلك التقادم الزمنى بقدر ما تحكم فى ذلك عــوامل أخرى أوجزها فيما يلى :

(أ) الموقــــع :

يتحدد شكل المنشأة وواجهاتها تبعا لموقعها من الشوارع والحارات والأزقة أو العطف • فالمنشآت التى بنيت فى خلاء اختلفت بطبيعة الحال عن تلك التى وقعت على ناصيتى طريق أو تلك التى لم يتبق لها سوى واجهة واحدة ومن ثم وزع المعمار العناصر المعمارية كثرت أم قلت بحسب موقع المنشأة •• ومن ثم أيضــا يمكن القول أن لكل منشــأة شخصيتها الدامغة التى تختلف فيها عما سواها عن المنشآت الاخرى وان جمعت الواجهة أو الواجهات طراز العمارة المعاصرة •

والملاحظ أن هناك تناسبا عكسيا بين عمارة العصر البحرى والعصر الجركسى ففى حين كانت المنشآت البحرية ذات مسطحات كبيرة نسبيا كان عدد الوحدات أو العناصر فيها قليل وعلى العكس من ذلك فالمنشآت الجركسية مسطحاتها صغيرة نسبيا ومع ذلك فان عدد وحداتها أكثر •

(ب) المســاحة المتاحة :

فمن المعروف أن القاهرة كانت قد اختنطت منذ(٨) بداية العصر الفاطمى ولم يعد بها مكانا متسعا يتحمل امكانية منشآت كبيرة مثــل

---

(٧) عباس حلمى (الدكتور) : المدارس الاسلامية ، ص ١٤٦ .
(٨) لم يجد الخليفة الفاطمى الثانى فى مصر وهو العزيز بالله مكانا =

مســاحة الجامع الطولونى[٩] أو حتى الجامع الأزهر[١٠] . وبالتالى كانت المساحات المتاحة للعمارة فى العصر المملوكى صغيرة نظرا لأنها غالبا ما كانت تبنى محل عمارات سابقة تهدمت بفعل الزمن . أو هدمت لاقامة مبانى جديدة عليها[١١] .

فالناظر الى تخطيط منشــأة المنصــور قلاوون (أثر رقم ٤٣) ٦٨٣ ـ ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م بشارع المعز لدين الله يجد أنها تتكون من مساحتين شغلت القبة الضريحية جزءا كبيرا منها رغم أنها معدة لدفن شخص واحد ـ أو عدة أشخاص ـ بينما شغلت المدرسة البقية الباقية من المساحة ، وتخطيط المدرسة الاصلى عبارة عن صحن مكشوف مستطيل وايوانين فقط أكبرهما ايوان القبلة الذى قسم ثلاثيا بواســطة صفين من الاعمدة . وعلى جانبى الصحن بنيت خلاوى الصوفية . وتحكمت المساحة فى هذه المنشأة ، فلأنها بواجهة واحدة فقط اضطر المعمار الى أن يضع عليها كل المفردات الهامة لهذه المنشأة مثل القبة الضريحية وواجهة المدرسة الرئيسية والمئذنة .

= فسيحا يشيد فيه مسجدا جامعا كبيرا داخل اسوار القاهرة فبناه خارج الأسوار بين باب النصر والفتوح ثم أكمله ابنه الحاكم فنسب اليه (اثر رقم ١٥) (٣٨٠ ـ ٤٠٣ هـ / ٩٩٠ ـ ١٠١٣ م) .

(٩) تبلغ مساحة جامع أحمد بن طولون حوالى ستة افدنة ونصف . وهو على هيئة مربع طول ضلعه ١٦٢ م بالزيادات وارتفاع جدرانه ١٣ م . ومساحة المسجد دون الزيادات ١٣٨ × ١١٨ م . والصحن مربع ٩٢ م^2 .
انظــر : فريد شافعى (الدكتور) العمارة العربية فى مصر الاسلامية ص ٤٦٣ ـ ٤٩٨ .

(١٠) كانت مســاحة الجامع الأزهر الأصلية تتكون من مســتطيل (٧٠ × ٨٨ م) ، وتخطيطه صحن مكشوف محاط بثلاث ظلات وعلى غرار مسجد المهدية بتونس ثم توالت عليه الاضافات عبر العصور .
أنظــر : احمد فكرى (الدكتور) مساجد القاهرة فى العصر الفاطمى ، ص ٤٨ .

(١١) Creswell (K. A. C.), Muslim architecture of Egypt, fig.

واختلف التخطيط[١٢] فى مدرسة السلطان حسن التى بنيت على مساحة ضخمة وضمت الى مســاحتها أراضى منشآت قديمة هدمت وأدخلت فيها • والمدرسة تطل على ميدان الرميلة الفسيح ولها ثلاث واجهات أخرى شاهقة الارتفاع • تخطيطها ايوانى حول صحن أوسط مكشوف وأربع ايوانات أكبرها ايوان القبلة الذى يتقدمه مربع القبة الضريحية •

ومنذ عصر السلطان حسن[١٣] (٧٤٨/٧٥٢ هـ — ١٣٤٧/١٣٥١ م ، ٧٥٥/٧٦٢ هـ — ١٣٥٤/١٣٦١ م) ظهر داخل هذا التخطيط الايوانى مساحات ايوانية أصغر استخدمت كمدارس فرعيــة لتدريس الفقه الاسلامى على المذاهب الاربعة ، هذا فى الوقت الذى استخدمت فيه الايوانات الكبيرة للصلوات الجامعة • وبنى حول كل مدرســة فرعية وأعلاها طباقات الصوفية •

واذا كانت مدرسة السلطان حسن قد بنيت فى مساحة فسيحة هى ميدان الرميلة (ميدان القلعة الحالى) فان المساحات غير المنتظمة وتخطيط شوارع وحوارى وأزقة القاهرة الضيقة قد أظهرت عبقــرية المهندس المسلم الذى صاغ تخطيطات هذه المنشآت وكان عليه أن وفق بين أمرين هامين أولهما : احترام خط تنظيم الطريق لأنه حق مشاع لكل الناس وليس لأحد الحق فى الاعتداء عليه • وثانيهما هو توجيه المنشأة — لاسيما الدينية — فى اتجاه الكعبة المشرفة •

وقد نجح المعمار المسلم فى ذلك تماما حين وضع تخطيطه الأساسى موجها فى اتجاه الكعبة ثم ساير بالواجهات خط تنظيم الطريق •

---

(١٢) Gluck (H.) & Diez (E.) Die kunst des Islam, abb. 7.

(١٣) احمد السعيد سليمان (الدكتور) تاريخ الدول الاسلامية ، ص ١٦٢ •

وقد أدى ذلك الى وجود تخانات مختلفة فى سمك الجدران[١٤] ، لم يهدرها المعمار بل استغلها استغلالا طيبا فى عمل وحدات تخدم المكان مثل الكتبيات[١٥] (دواليب حائطية) تحفظ فيها المصاحف والربعات الشريفة أو خزانات تحرز فيها الأدوات من السجاد والمشكاوات والحصير والزيت أو حجرات صغيرة للامام أو الخطيب[١٦] وغير ذلك •

ويتعجب الانسان من هذا التفوق الرائع الذى وصل اليه مهندسو هذه الفترة بحيث أنهم لم يستخدموا مساحات داخلية مشـــطورة أو

---

(١٤) أول من استخدم هذه الطريقة فى القاهرة هو مهندس الجامع الاقمر بشارع المعز لدين الله (أثر رقم ٣٣ — ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م) ، انظـــــر :

— احمد فكرى (الدكتور) مساجد القاهرة فى العصر الفاطمى ، ص ٩٦ ، (شكل ١٣) .

(١٥) الكتبية (جمعها كتبيات) وهى الدولاب من الخشب وقد تكون فى حائط العمارة وللكتبية عادة مصراعان من الخشب جميعه عربى مفركة أو من حشوات قائمة ونائمة (تماسيح وتواريخ) وتكون الكتبيات مستطيلة . وتستعمل الكتبية فى حفظ اللطائف والتحف الفنية (فى العمارة المدنية) ومكان لحفظ أدوات الكتاب من الالواح وغيرها فى الكتاتيب وأطلق على هذه الدخلات الحائطية فى العمارة المدنية اســـم الخرستانات وهى تستخدم كشرابخاناه أو صيدلية ، أو خلوة أو لخزن الآلات والحصر والزيت على رفوف خشبية مثبتة فى الجدران .

انظـــــر :

— عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) وثيقة قراقجا الحسنى ، مجلة كلية الآداب) ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(١٦) كما هو الحال فى تخطيط مدرسة السلطان قايتباى بجبانة المماليك (أثر رقم ٩٩) ٨٧٧ — ٨٧٩ هـ (١٤٧٢ — ١٤٧٤ م) التى نصت وثيقته المحفوظة بدفترخانة وزارة الأوقاف على تخصيص الغرفة المجاورة للايوان القبلى « خلوة الخطابة معدة لخطيب الجامع ولاحراز ما يلبسه وقت الخطبة والربعات الشريفة التى بالجامع » .

انظـــــر :

— حجة السلطان قايتباى (رقم ٨٨٦) ، ص ٢١ .

— حسنى نويصر (الدكتور) ، منشآت السلطان قايتباى ، جـ ١ ، ص ١٠٧ ، ١٦١ .

منبعجة ــ كما يفعل مهندسو العصر الحديث ــ بل توخى المعمار أن تظهر المساحات الداخلية متعامدة الجــدران قدر الامكان حتى يمكن استغلالها أحسن استغلال ، وفى نفس الوقت لا يلاحظ الانسان انبعاجا فى الواجهات المطلة على الطريق بل مسايرة لخط التنظيم .

وأظهر لنا اختلاف الموقع والمساحة المتاحة نماذج رائعة من تلك المنشآت فظهر منها ما يطل على ميدان أو على شارع أو على شارعين ، أو حارتين ..

ففى منشأة مثل مدرسة وخانقاة السلطان الظاهر برقوق(١٧) بين القصرين (أثر رقم ١٨٧) ٧٨٦ ــ ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ ــ ١٣٨٦ م لم يكن أمام المعمار سوى واجهة واحدة هى المطلة على القصبة العظمى أو شارع المعز لدين الله حاليا ومن ثم أظهر المعمار كل المكونات(١٨) الأساسية للمنشأة على هذه الواجهة الوحيدة ، فوضع كرسى المنار فى أقصى الزاوية الشرقية من الواجهة والى جواره واجهة القبة الضريحية والى جوارها واجهة المدرسة ثم كتلة المدخل الوحيد فى أقصى الزاوية الجنوبية من هذه الواجهة .

أما منشأة السلطان الأشرف برسباى بالاشرفية (موضوع بحثنا) فلأنها واقعة على ثلاث شوارع فقد قسم المعمار وحداتها المعمارية على هذه الواجهات الثلاث(١٩) فجعل القبة الضريحية تشغل الزاوية الشرقية وتطل على شارعين هما شارع المعز لدين الله وشارع الخردجية وجعل واجهة الجامع تطل على شارع المعز لدين الله وفى هذه الواجهة وضع المدخل والمئذنة وانفرد السبيل بواجهتين من هذه المنشأة فيطل بشباك على شارع المعز والشباك الثانى على حارة الحمزاوى .

---

(١٧) Wiet (G.) & Hautecoeur (L.), Mosquees du Caire, pl. 147.

(١٨) Briggs (M.), Op. Cit., p. 112, fig 93.

(١٩) سعاد ماهر (الدكتورة) ، مساجد القاهرة ، جـ ٤ ، ص ٣٥٣ .

ويظهر لنا نص العضادتين على هذه المنشأة مضمونا عن المسجد والمدرسة ، وهو مضمون اختلفت فيه الآراء • فقد حرصت المؤلفات السابقة على أن التخطيط الايوانى يختص بالمدرسة والتخطيط التقليدى الذى يعتمد على صحن وظلات هو للمسجد أو المسجد الجامع •

غير أن الواقع الأثرى يدحض هذه الافكار تماما فقد وجدت مدارس بتخطيطات غير ايوانية بل تعتمد على الشكل النمطى المستوحى من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم — أى يتكون من صحن وأربع ظلات أكبرها ظلة القبلة مثلما فى مسجد ومدرسة السلطان المؤيد شيخ المحمودى[٢٠] (أثر رقم ١٩٠) ٨١٨ — ٨٢٣ هـ / ١٤١٥ — ١٤٢٠ م ، وكذلك الحال فى مسجد ومدرسة الامير سودون[٢١] من زادة (الدارسة) بشارع سوق السلاح (أثر رقم ١٢٧) ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م ، التى تتكون من صحن مكشوف وأربع ظلات وحددت حجة وقفة أنه مسجد ومدرسة[٢٢] لتدريس الفقه الاسلامى على مذهبين فقط هما (الحنفية والشافعية) •

وعلى العكس من ذلك بنيت مساجد صريحة بالتخطيط الايوانى ونص على وظيفة المسجد فيها صراحة مثلما هو موجود بمسجد الامير جانى بك الأشرفى بشارع المغربلين (أثر رقم ١١٩) ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ — ١٤٢٧ م ، والذى بنى بتخطيط ايوانى صريح على الرغم من أن صاحبه

---

(٢٠) وثيقة السلطان المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، نشر اجزاء من هذه الوثيقة الباحث فهمى عبد العليم فى رسالته للماجستير تحت عنوان « جامع المؤيد شيخ ١٩٧٥ م » .

(٢١) حسنى نويصر (الدكتور) مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة ، ص ١٤ وما بعدها .

(٢٢) وثيقة الامير سودون من زادة : رقم ٥٨/١٠ بدار الوثائق القومية ، بالقاهرة ، سطر رقم ٢٤٧ ، قمنا بنشر هذه الوثيقة والتعليق عليها وعلى محتوياتها فى دراسة مستقلة بعنوان مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة ، سنة ١٩٨٥ م •

أراده مسجدا جامعا وأورد على عضادتى المدخل نصا صريحا بصيغة[٢٣] « بسم الله الرحمن الرحيم إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون صدق الله العظيم أمر بانشاء هذا الجامع المقر الاشرف السيفى جانى بك الدوادار الملكى الاشرفى عز نصره بتاريخ شهر رجب سنة ثلاثين وثمانماية » .

كما يوجد بأعلى واجهة المدخل الرئيسى نص قــرآنى بصــيغة « بسم الله الرحمن الرحيم وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم » .

وعلى الرغم من هذه النصوص الصريحة فان تخطيط هذا الجامع بنى بالنمط الايوانى حيث يتكون من دور قاعة مغطاة بسحابة وأربع ايوانات وقبة ضريحية وسبيل . وهذا النمط من التخطيط جعل وظيفة هذه المنشأة متأرجحة بين المسجد الجامع والمدرسة والخانقاة . وهذا ما جعــل المؤرخ المقريزى[٢٤] ينعته باســم خانقاة ، وقال عنــه السخاوى[٢٥] أنه مدرسة للسادة الحنفية (شكل ٨) .

ونقل المرحوم حسن عبد الوهاب[٢٦] عن فان برشم « أن تسمية هذه المدرسة جامعا فى كتابه تاريخية من التطورات المهمة فى أسماء المبانى الدينية » ، وفى رأيى أن هذه الأسماء كانت ترجع الى وظيفة البناء لا الى البناء نفسه فكأن مدلولها الغرض الذى أقيم من أجله لا لطراز بنائه » .

هذا فضلا عن أن هناك من المنشآت ما جمع أكثر من وظيفة مثل

---

(٢٣) حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد ، ج ١ ، ص ٢١٩ .
(٢٤) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣١ .
(٢٥) السخاوى : تحفة الأحباب ، ص ١٧٢ .
(٢٦) حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

المسجد[٣٧] الجامع والمدرسة أو الخانقاه[٣٨] كما هو الحال فى مسجد ومدرسة السلطان الأشرف برسباى موضوع دراستنا .

---

(٢٧) يوجد امثلة كثيرة لهذا الجمع بين المسجد والمدرسة نذكر منها مثالا صريحا فى مسجد ومدرسة الامير عبد الغنى الفخرى (أثر رقم ١٨٤) ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

انظر : محمد الكحلاوى : مدرسة الامير عبد الغنى الفخرى ، ص ١٤ ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٨١ م .

والملاحظ ان المساجد الجامعة الكبرى كانت تقوم بوظيفة المدرسة مثل جامع عمرو بن العاص والجامع الطولونى وجامع الحاكم والجامع الازهر . ونكتفى بما أورده المؤرخ بن حجر فى كتابه انباء الغمر من أسماء من قام بالتدريس فى الجامع الطولونى لتاكيد هذه الفكرة مثل الشيخ بهاء الدين مدرس الفقه بالجامع الطولونى أنباء جـ ١ ، ص ٢٢ .

الشيخ نظام الدين الخوارزمى مدرس الفقه بالجامع الطولونى ، انباء ، جـ ١ ، ص ٣١ .

الشيخ عمر بن عبد العزيز ولى التدريس بالجامع الطولونى ، أنباء ، جـ ١ ، ص ٨٨ .

الشيخ محمد بن محمود قاضى الحنفية بالجامع الطولونى ، انباء ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ .

الشيخ زين الدين العراقى مدرس الحديث بالجامع الطولونى ، انباء ، جـ ١ ، ص ٥٢٦ .

(٢٨) يوجد نص تأسيس واجهة مسجد ومدرسة الامير اولجاى اليوسفى بشارع سوق السلاح (أثر رقم ١٣١) ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م .

ما يفيد قيام هذه المنشأة بهاتين الوظيفتين رغم أن تخطيطها ايوانى صريح وهذا النص بأعلى المدخل حفر بالخط الثلث المملوكى البارز بصيغة : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم أمر بانشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة المقر الاشرف العالى المولوى الاميرى السيفى الجاى اتابك العساكر المنصورة الملكى الاشرفى عز الله نصره بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة » .

انظـــر :

Berchem (M. V.), Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum p. 289.

ومن ناحية أخرى لعبت المساحة المتاحة دورا هاما فى عدد الايوانات التى تلحق بأى مبنى سواء أكانت مسجدا أو مدرسة أو خانقاه فظهرت منشآت دينية فى العصر المملوكى البحرى تتكون من صحن وايوانين فقط كما هو الحال فى مدرسة السلطان المنصور قلاوون (أثر رقم ٤٣) ٦٨٣ — ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ — ١٢٨٥ م • وشغل الضلعين الجانبين بخلاوى الصوفية • ومدرسة تتكون من صحن وثلاث ايوانات فقط واستغل الضلع الرابع للصحن فى وضع كتلة الدخول الى المنشأة كما هو الحال فى مدرسة تاتار الحجازية[٢٩] بالجمالية (أثر رقم ٣٦) ٧٤٨ — ٧٦١ هـ / ١٣٤٨ — ١٣٦٠ م •

والملاحظ أن الايوان الرئيسى فى هذه المدرسة يقع على جانب الصحن أو الدورقاعة وليس هذا الا بسبب المساحة الضيقة التى لم تمكن المهندس من وضع أكبر الايوانات[٣٠] فى وضعه الصحيح على الصحن فأصبح على الجانب الجنوبى الغربى منه •

وتفاوتت مساحات[٣١] المنشــآت الدينية فى العصر الجركسى

---

(٢٩) كمال الدين سامح (الدكتور) العمارة الاسلامية فى مصر ، ص ٣٧ — ٣٨ ، وشكل ٧٢ .

(٣٠) Meinecke (M.), Islamic Cairo, fig. 8.

(٣١) مثلا مدرسة الامير فيروز الساقى بحارة المنحلة (أثر رقم ١٩٢) ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ — ١٤٢٧ م ، فهذه المدرسة بنيت بمساحات صغيرة جدا (ايوان القبلة مستطيل ٧٫٤٠ × ٤٫٢٠ م) مساحة السدلة ٤٫١٠ × ٢٫٨٠ م المجاز ٢٫٣٠ × ٧٫١٠ م السـبيل ٢٫٢٠ × ٢٫٠٠ م ورغم هذا التصاغر فى المســاحات فان هذه المدرسة اشتملت على معظم العناصر المعمارية الجركسية الضخمة مثل المدخل المدائنى المتطور والسبيل ذى الثلاث نوافذ والقوصرة الحجرية المشهرة للايوان الرئيسى ومئذنة من الحجــر (قمتها مجدد) وقبة ضريحية تشغل مساحة تساوى مساحة المدرسة تقريبا هذا بالاضافة الى الأسقف الخشبية الجميلة والصدور المقرنصة سواء فى الحجر أو من الخشب .

انظـر : حسنى نويصر ، مدرسة الامير فيروز ، مجـلة الازهر ، عدد صفر ١٤٠٣ هـ ، نوفمبر ١٩٨٢ م .

بحسب ما أتيح لها من أرض فبنيت مدرسة أبناء الامير قايتباى بجبانة المماليك تعرف خطأ فى فهرس وخريطة الآثار الاسـلامية باسـم قبة الكلشنى[٣٢] (أثر رقم ١٠٠) وتاريخها حوالى سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م من مجاز وايوانين فقط وأدمج فى زاويتها الشمالية قبة ضريحية دفن فيها أبناء الامير قايتباى • فى حين بنى السـلطان قايتباى لنفسه مسجدا مدرسة تكونت من دور قاعة وايوانين كبيرين وآخرين صغيرين ووسع الايوان الشمالى الغربى بسدلتين جانبيتين وقبة ضريحية وحوش لعتقاء السلطان وخزانة للكتب • هذا بالاضافة الى طباق للصوفية (دارس حـاليا) •

وقد لعبت المساحات الصغيرة المتاحة فى القاهرة المملوكة دورا هاما فى تغيير اتجاهات عمق الايوان على الصحن ، ففى الفترة الايوبيـة تلاحظ أن الصحن يكون مسـتطيلا ومن ثم ظهرت الايوانات متعامدة على هذا الصحن فى ضلعه الضيق مثلما هو موجود بالفعل فى مدرسة الحديث الكاملية[٣٣] (أثر رقم ٤٢٨) ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ومجموعة المدارس الصالحية[٣٤] النجمية (أثر رقم ٣٨) ٦٤١ — ٦٤٨ هـ / ١٢٤٣ — ١٢٥٠ م •

وظل الحال كذلك فى بعض منشآت العصر المملوكى البحرى مثلما

---

(٣٢) حسنى نويصر (الدكتور) منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، ص ٦٤ وما بعدها ، رسالة دكتوراه محفوظة بمكتبة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ .

كان لى شرف الكشف عن هذا الأثر ونسبته الى الامير قايتباى قبل ان يتولى السلطنة وتصحيح ما ورد عنه بفهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة والذى يرجع هذا الاثر الى سنة ٨٧٩ هـ .

انظـر : هذه الدراسة فى المرجع السابق .

(٣٣) عباس حلمى (الدكتور) المدارس الاسـلامية ودور العلم ، ص ١٦١ ، (شكل ٣ ، ٤) .

(٣٤) فريد شافعى (الدكتور) العمارة العربية الاسلامية ، شكل ١٠٧

فى تخطيط مدرسة الناصر[٣٥] محمد بن قلاوون بين القصرين (أثر رقــم ٤٤) ٦٩٥ ــ ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ ــ ١٣٠٤ م وخانقاة بيبرس الجاشنكير[٣٦] بشارع الجمالية (أثر رقم ٣٢) ٧٠٦ ــ ٧٠٩ هـ / ١٣٠٦ ــ ١٣١٠ م .

ولما ضاقت المساحة الكلية للمنشآت صغرت تبعا لذلك مساحة الصحن وأدى هذا الى تربيع مساحة الصحن تقريبا وبالتالى لم يجد المعمار بدا من أن استعدال تخطيط الايوانات لتصبح أقل عمقا فى الناحية العمودية وأكثر اتساعا فى جانبى الايوان ــ لاسيما ايوان القبلة وبمعنى آخر أصبح الايوان مستطيلا لكن ليس عموديا على الصحن بل موازيا له .

ومن ناحية أخرى كان لتصغير المساحة وتصغير الصحن أثر عليه ومن ثم محاولة تغطيته أولا بسحابة من القماش السميك تجر على حبال وبكر مثلما هو حادث بالفعل فى مدرسة القاضى عبد الباسط[٣٧] بالخرنفش (أثر رقم ٦٠) ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م .

وكذلك الحال فى جامع جانى بك[٣٨] بالمغربلين ، ولما استحسن المعمار ذلك لاضافة مساحة للصلاة ضمن مساحة المسجد غطيت الصحون بشخشيخة أصبحت سمة غالبة على معظم دور قاعات النصف الثانى من العصر الجركسى .

وقد أكدت حجة وقف السلطان برســباى الموقوفة على المدرسة الاشرافية فكرة أن هذا المكان قام بوظيفة المسجد الجامع الى جانب

---

(٣٥) فريد شافعى (الدكتور) العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، شكل ١٧٢ .

(٣٦) Creswell (K. A. C.), Muslim architecture fig. 142.

(٣٧) حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

(٣٨) انظر هذا الجامع ، ص ١١ ، ١٢ من هذا البحث .

استخدامه كمدرسة فنصت على أنه « وقف الأربعة أواوين القبلى الذى به المحراب والثلاثة الباقية مسجدا لله تعالى تقام فيه الصلوات الخمس والجمع والجماعات ويعتكف فيه على العبادات ويذكر فيه اسم الله العظيم ويتلى فيه كتابه الكريم ولخى بين المسلمين وبينه فصلوا فيه وأعلن فيه بالأذان وصار حكمه حكم المساجد الجوامع ولا حق فيــه الا كواحد من المسلمين[٣٩] .

ويتأكد قيام المنشأة بوظيفة مسجد جامع أيضا من وجود المنبر الذى كانت تقام عليه الخطبة يوم الجمعة والعيدين بالاضافة الى وجود المئذنة التى عمل عليها « تسعة من المؤذنين كانوا يتناوبون الأذان فى نوبات الا يوم الجمعة فانهم كانوا يجتمعون على المئذنة وعلى الدكة تجاه الخطيب ويؤذنون بالأذان وبعد فراغ الصلاة يسبحون ويحمدون ويكبرون ويذكرون الله[٤٠] .

وما قيل بصدد النص الذى بين يدينا يؤكده وجود نص آخــر بأعلى جدران الصحن الذى يتوسط المنشأة والتى أطلقت عليه الوثيقة « دور قاعة » رغم أنه غير مغطى .

فنص الصحن يبدأ بآية قرآنية بها نفس معنى الوظيفــة وهى المسجد وينتهى بقية النص بالوظيفة الثانية وهى المدرسة وذلك بصيغة « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله » أن ترفع ويذكــر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب . والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه

---

(٣٩) وثيقة برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف ، ص ١٩ .
(٤٠) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها من فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور • ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون • ولله ملك السماوات والأرض والى الله المصير (صدق الله العظيم)(*) أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين منصف المظلومين من الظالمين خادم الحرمين الشريفين الملك الاشرف خلد الله ملكه » •

وأمدتنا المصادر التاريخية بأسماء من قام ببعض الوظائف الأساسية فى هذا الجامع المدرسة مثل وظيفة الخطيب التى قام بها الشيخ الحموى[٤١] الواعظ وأكمل لنا المؤرخ السخاوى[٤٢] بقية اسم هذا الواعظ وهو « ابراهيم بن محمود بن عبد الرحيم » الحموى الأصل القاهرى الشافعى الذى خطب بالاشرفية •

كما كان لهذا الجامع امام يؤم المصلين فى الصلوات الخمس هو « حبيب بن يوسف بن عبد الرحمن الزينى الرومى الحنفى »[٤٣] •

ويفيد بقية السطر الثانى من نص التأسيس الوارد على عضادتى المدخل الوظيفة الثانية لهذه المنشأة وهى وظيفة المدرسة •

فقد جاء بالنص : « أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة » وهذا النص يفيد أن هذا المكان بذاته الذى استخدم جامعا ، كان يقوم بوظيفة المدرسة التى يدرس فيها الفقه الاسلامى ، بدأت أول الامر بمذهب

(*) سورة النور ، آيات ٣٦/٤٢ .
(٤١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .
(٤٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ١٧١ — ١٧٢ .
(٤٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٨٨ — ٨٩ .

واحد هو المذهب الحنفى وأمر السلطان بتدريس المذاهب الثلاثة الباقية وهى الشافعى والمالكى والحنبلى .

يذكر المقريزى[٤٤] فى حوادث شهر رمضان سنة ٨٣٣ هـ : « فى تاسعه قرر السلطان فى جامعه المستجد بجـوار قيسارية العنبر من القاهرة دروسا ثلاثة فجعل مدرس الشافعية « شمس الدين محمد بن على القاياتى وقرر عنده عشرين طالبا وجعل مدرس المالكية عبادة ابن على بن صالح الزرازارى ومولده سنة ثمان وسبعين وسبع ماية وعنده عشرة من الطلبة وجعل مدرس الحنابلة زين الدين عبد الرحمن الزركشى ومعه عشرة من الطلبة » .

وهنا يفرض سؤال نفسه : أين كان التدريس يتم فى هذه المدرسة ؟ كان التدريس فى مدارس العصر البحرى ـ قبل عصر السلطان حسن يتم فى الايوانات الرئيسية مباشرة أما بعد ظهور المدارس الفرعية فى مدرسة السلطان حسن ، اختصت هذه الأماكن بالتدريس بينما خصصت الايوانات الرئيسية لشعائر الصلاة الا أن المنشآت التى بنيت بهذا النمط قليلة جدا نظرا لتصاغر المساحات المتاحة .

أما فى العصر الجركسى ، فانه لم يعد هناك مساحات كافية لانشاء هذه المدارس الفرعية وكان التدريس يتم فى داخل الايوانات مباشرة .

وحددت الوثائق فترات العمل بهذه المنشآت الجركسية فنصت حجة السلطان برسباى على أن التدريس كان يتم فى الايوان الجنوبى الشرقى (القبلى) كما حددت الوقفيات زمن اليوم الدراسى فى هذه المنشآت وهو اما من طلوع الشمس الى وقت الزوال . ومن بعد صلاة الظهر الى ما قبل صلاة العصر ويتناوب على هذه الاوقات المذاهب المعينة فى المدرسة بحيث لا يحدث أى تعارض بين هذه المذاهب عند القيام بأعمال الدرس .

---

(٤٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٨٣٢ .

وأما عن مكان اقامة الصوفية ، فاننا نجد أنهم كانوا يسكنون طباقا على جانبى الصحن كما هو الحال فى مدرسة المنصور قلاوون ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون وخانقاه بيبرس الجاشنكير • وحينما بنيت المدارس الفرعية داخل المنشأة الايوانية مثل مدرسة السلطان حسن بنيت طباقات الصوفية حول المدرسة الفرعية فى عدة أدوار فوق بعضها •

أما فى العصر الجركسى فان المساحات الصغيرة التى بنيت عليها هذه المنشآت قد جعلت موضع طبق الصوفية غير ثابت بل بحسب ما يتاح له من مكان فبنى طباق الصوفية خلف المنشأة كما هو الحال فى مدرسة وخانقاه السلطان الظاهر برقوق بين القصرين وفى مسجد ومدرسة السلطان الاشرف برسباى بنيت هذه الطباق على السطح العالى من المنشأة وكان يتوصل الى هذه الطباق من باب على الدهليز الرئيسى تنص الوثيقة أن بهذا الدهليز « على يسرة الداخل أربعة أبواب متجاورة كل منها مربع عليه زوجا باب احداها يدخل فيه الى سلم يصعد منه الى مكان معد لاقراء الايتام علو السبيل المذكور مسقف نقيا مدهون مطل على جهتى الطريق ثم يصعد من بقية السلم الى الخلاوى[٤٥] المعدة لسكنى الصوفية الآتى ذكرهم فيه وعدتها أحد عشر خلوة متطابقة ومتجاورة » •

وهذا النص يفيد بوجود الصوفية الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة للدراسة فى هذه المدرسة بما يتطابق مع الشطر الثانى من نص عضادتى المدخل الرئيسى • وقد أورد لنا المؤرخ السخاوى[٤٦] اسم أحد هؤلاء الصوفية الدارسين بهذه المدرسة وهو الشيخ حبيب بن يوسف الكيلانى الذى تحول الى مقرىء بعد ذلك فى هذه المدرسة •

---

(٤٥) حجة برسباى اوقاف ، رقم ٨٨٠ ، ص ١٩ .

(٤٦) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، تحقيق : ٣٥١ .

وفى منشأة مثل مدرسة السلطان قايتباى[٤٧] بجبانة المماليك نجد أن طباقات الصوفية قد بنيت على وجه المدرسة وخارجا عنها[٤٨] .

---

(٤٧) حجة قايتباى أوقاف ، ٨٨٦ ، ص ٣٥ .

(٤٨) انظر صور هذه الطبقات قبل اندراسها فى :

Coste (P.), L'architecture Arabe, pl. 32.

Mehren (F.), Cahirah og Karafat, fig 36.

Roberts (D.), Egypt & Nubie, pl.

Ebers (G.) L'Egypte Alexandrie et Le Caire

Cluck (H.) & Diez (E.), Op. Cit. ṭaf. 182,

ثانيا — خادم الحرمين الشريفين[٤٩]

تلقب السلطان برسباى فى نص هذه المنشأة بلقب « خادم الحرمين الشريفين » والمقصود بذلك الحرم المكى والحرم المدنى .

وتمثل هذه الخدمة بالنسبة للحرمين الشريفين فى عدة أمور منها ما يتعلق بتعبيد الطرق المؤدية اليهما وحمايتها[٥٠] أو تزويد هذه الطرق بالآبار وعيون الماء اللازم طوال رحلة الحجيج من القاهرة الى مكة[٥١] والمدينة المنورة .

---

(٤٩) لم يكن السلطان برسباى أول من تلقب بهذا اللقب بل سبقه بعض سلاطين المماليك البحرية نذكر منهم :

السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بمدخل جامعه بميدان الظاهر .

انظـــر : Berchem (M. V.), Matiriaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum, p. 121.

وكذلك السلطان المنصور قلاوون على واجهة مجموعته بين القصرين .

انظـــر : Berchem (M. V.), Op. Cit. pp. 126-127

وتلقب به بعض سلاطين الجراكسة نذكر منهم :

السلطان المؤيد شيخ المحمودى بنص بأعلى جدار ظله القبلة بمدرسته ، وعلى دكة المؤذنين .

انظـــر : Berchem (M. V.), Op. Cit. pp. 337-338

وتلقب السلطان برسباى بنفس اللقب فى نص خانقاته بجبانة المماليك .

انظـــر : Berchem (M. V.), Op. Cit. p. 367

وتلقب السلطان قايتباى بنص بأعلى الوزرة الرخامية التى يحيط بداخل قبته الضريحية .

انظـــر : Mehren (F.), Cahirah og Karafat pp. 39-40.

— حسنى نويصر : (الدكتور) منشآت السلطان قايتباى الدينية ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

وتلقب به ايضا السلطان الغورى على نص بمدرسته بالقاهرة .

انظـــر : حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٥٠) المقريزى : السلوك ، ج ٤/٢ ، ص ٧٥٤ ، ٨٦٠ .

(٥١) المقريزى : السلوك ج ٤/٢ ، ص ٨٥٣ ، ٨٧٠ .

ابن اياس ، البدائع ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

وأما ما يتعلق بخدمة الحرمين الشريفين فهو عمارة هذين المسجدين[٥٢] الشريفين وموالاة تحسين مرافقهما واصلاح ما تهدم منهما من جراء السيول التى تحدث هناك .

هذا بالاضافة الى تجديد الكسوة[٥٣] الشريفة للكعبة كل عام وخروجها من القاهرة فى احتفال عام هو المحمل الشريف .

وباستطلاع بعض المصادر التاريخية المعاصرة وتطبيقها على حياة السلطان برسباى نجد أن لقب خادم الحرمين الشريفين من الألقاب المشرفة التى استحقها هذا السلطان العظيم وليس مجرد لقب فخرى نعت به دونما عمل حقيقى .

فيروى المؤرخ المقريزى فى حوادث شهر رجب سنة ٨٢٥ هـ « فى يوم الاثنين سادس عشر أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة وقد كثر الاعتناء بأمره وعملت الكسوة فى غاية الحسن حيث أن مؤرخا معاصرا كالمقريزى[٥٤] يذكر بأنه « لم يعمل مثلها فيما أدركه » . وولى عملها أشرف الدين أبو الطيب محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر .

وفى شهر شوال سنة ٨٢٦ هـ تغير ناظر هذه الكسوة وأصبح صدر الدين[٥٥] أحمد بن العجمى . وفى شهر صفر سنة ٨٢٨ هـ تعين ناظر جديد لهذه الكسوة وهو القاضى زين الدين عبد الباسط[٥٦] الذى

---

(٥٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦٦٣ .
، ابن اياس ، البدائع جـ ٢ ، ص ٩٢ ، ١٥٣ .
(٥٣) ابن اياس ، البدائع ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، ١٦٠ .
(٥٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦١٤ .
(٥٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦٤٤ .
(٥٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦٨٠ ، ٦٨٨ .

شغل وظيفة ناظر الجيوش فى عصر السلطان برسباى ووضع اسمه فى نص تأسيس(٥٧) واجهة المدرسة الاشرفية .

ويظهر مدى تمسك السلطان برسباى وحرصه على ألا يخرج شرف عمل الكسوة المشرفة من مصر وتوالى تجديدها كل عام ، تلك الحوادث المثيرة التى دات بينه وبين شاه رخ بن تمرلنك والتى أوردها المؤرخ ابن اياس فى حوادث شهر المحرم سنة ٨٣٣ هـ . حيث يقول : « فيه قدم رسول شاه رخ بن تمرلنك ملك العجم ومعه كتاب شاه رخ بالسلام على السلطان برسباى وأرسل يطلب شرح البخارى الذى صنفه العلامة بن حجر شهاب الدين ، ويطلب تاريخ تقى الدين وأرسل يسأل بأن يجهز كسوة الكعبة المشرفة وأن يجرى ماء العين بمكة المشرفة. فأرسل له السلطان شرح البخارى وتاريخ المقريزى ، ولم يوافق على كسوة الكعبة وعمارة العين وقال « ان الكعبة لها أوقاف(٥٨) برسم عمل كسوتها فلم يحتاج الأمر لأحد من الملوك أن يكسوها وأما العين فان بها آبار وأعين فلم يحتاج الامر الى بناء عين أخرى » .

وقد تفاقم الامر بخصوص رغبة شاه رخ فى انفاذ عمل الكسوة بمعرفته لما فى ذلك من رفعة شأن لنفسه وسيادة مملكته حتى أن السلطان برسباى أمر فى شهر صفر سنة ٨٣٨ هـ بعقد مجلس فى قصره وجمع فيه القضاة الأربعة للتشاور فى ذلك بعد أن حضر قاصد شاه رخ وأحضر معه فعلا كسوة للكعبة(٥٩) ، وذكر أن شاه رخ « نذر بذلك » واستفتى

---

(٥٧) انظر هذا النص ، ص ٣٠ من هذا البحث .

(٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

(٥٩) يعتبر السلطان الأشرف شعبان بن حسين من أهم سلاطين المماليك البحرية الذين أوقفوا على المسجد الحرام والمسجد النبوى ويوجد بدار الوثائق القومية بالقلعة حجة وقف كاملة موقوف فيها اراضى زراعية =

السلطان فى هذا الامر القضـــاة الأربعة ، وطال بينهم الجدل وأجاب قاضى القضاة بدر الدين بن العينى « بأن نذره لا ينعقد » وأجاب العلامة بن حجـــر بأن « ذلك لا يجـــوز الا لمن كان ناظـــرا للحرمين الشريفين »[٦٠] .

وبهذا الرد عاد قصاد شاه رخ اليه ولم يسمح لهم[٦١] بوضع الكسوة التى صنعها ليتمسك السلطان برسباى بشرف عمل الكســـوة للكعبة المشرفة .

أما عن حفر الآبار وتسهيل وجود الماء بطريق الحج فقد ورد عن ذلك معلومات هامة بالمصـــادر التاريخية نذكر منها فى شـــهر شوال سنة ٨٢٨ هـ .

« فيه أنشأ القاضى زين الدين عبد الباسط [٦٢] بناحية بركة[٦٣]

=
تمثل بلادا وقرى بمصر والشام الى جانب عقارات اوقفها هذا الســـلطان على الحرمين الشريفين .

وقد نوقشت فى جامعة الامام محمد بن ســـعود الاسلامية بالرياض بالمملكة العربية السعودية رسالة ماجستير موضوعها : « أوقاف سلاطين المماليك البحرية على الحرمين الشريفين » قام بها الباحث راشد القحطانى وذلك عام ١٩٨٦ م من كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، كما قام بنشر كامل الوثيقة الشرعية الخاصة بالسلطان الاشرف شعبان بن حسين والمحفوظة بدار الوثائق بالقلعة رقم ٨/٤٩ والمؤرخة فى شهر جمادى الآخر ، سنة ٧٧٧ هـ .

(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٦١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

(٦٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦٩٦ .

(٦٣) تقع بركة الحاج الى جهة الشمال الشرقى من القاهرة ، على طريق مصر الســـويس الصحراوى ، وغرب ترعة الاسماعيلية بمقدار ٦ كيلومترات ، ويقال لها قديما بركة الجب ذكرها المقريزى فى خططه باســـم بركة الجب وهى بظاهر القاهرة من بحريتها وتسميها العامة بركة الحاج لنزول الحاج بها عند مسيرتهم من القاهرة وعند عودتهم من الحج .

أنظر : على باشا مبارك ، الخطط ، جـ ٩ ، ص ١٦ — ١٧ .

الحاج بسذنا وساقية ماء وعمر فسقية كبيرة تملأ بلماء ليردها الحجاج فعم الانتفاع » .

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٤ هـ سافر(٦٤) شاهين الطويل أحد الامراء العشروات الى مكة المشرفة بسبب حفر آبار المناهل وكانت قد تعطلت — ومعه جماعة من البناءين والحجارين » .

ويوضح لنا المؤرخ المقريزى(٦٥) هذه المعلومة عن الماء فيقول فى حوادث شهر ربيع الآخر سنة ٨٣٤ هـ « فى سادسه برز الامير شاهين الطويل أحد الامراء العشروات ليسير الى طريق الحجاز ومعه كثير من البناه والفعلة والحجارين والآلات والأزواد والامتعة لاصلاح المياه التى فيما بين القاهرة ومكة وحفر آبار فى المواضع المعطشة ، فساروا فى نحو المائة بعير » .

كما قام القاضى زين الدين عبد الباسط فى شهر ذى القعدة سنة ٨٣٤ هـ أيضا بحفر بئر بمنطقة عيون القصب من طريق الحجاز فعم النفع بها ويذكر المقريزى أنه أدرك (منطقة) عيون القصب تخرج من بين الجبلين ماء يسيح على الارض فينبت فيه القصب الفارسى وغيره ، ويرتفع فى الماء حتى يتجاوز قامة الانسان فى عرض كبير ، فاذا نزل الحاج عيون القصب أقاموا يومهم على هذا الماء يغتسلون منه ويروون . ثم انقطع الماء « وقام الامير زين الدين عبد الباسط(٦٦) بحفر هذه البئر فانتفع الناس بذلك » .

وفى رمضان سنة ٨٣٥ هـ أجريت عين ماء(٦٧) دخلت الى مكة وملأ

---

(٦٤) ابن اياس ، بدائع ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .
(٦٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٨٥٣ .
(٦٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٨٧٠ .
(٦٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٨٧٠ .

البرك حتى باب المعلا[٦٨] ومرت على سوق الليل[٦٩] الى الصفا[٧٠] وانتهت الى باب ابراهيم[٧١] وساحت من هناك وعم بها النفع » .

الاهتمام بعمارة الحرمين الشريفين :

والى جانب محاولة السلطان برسباى توفير الماء اللازم على طرق الحج والمشاعر المقدسة فقد اهتم أيضا بعمارة البيت الحرام والكعبة المشرفة والمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . فقام باصلاحهما كلما استوجب الامر ذلك .

فحينما بدأت الارضه[٧٢] تنخر فى سقف الكعبة وأكملت الامطار على بقية هذا السقف سارع السلطان برسباى بارسال نخبة من أهل الخبرة على رأسهم الامير سودون[٧٣] المحمدى وذلك فى شهر المحرم سنة ٨٣٨ هـ وباشرت هذه النخبة عملها بالفعل فى شهر صفر من نفس

---

(٦٨) باب المعلا يقع فى شرق المسجد الحرام ويعرف باسم باب الجنائز لأن الجنائز تخرج منه الى مقبرة المعلا .

(٦٩) سوق الليل : كان هذا السوق موجودا حتى سنة ١٣٣١ هـ ، ويقع فى شارع ضخم يبدأ من شمال شرق مكة الى جنوب غربها .

انظر : ابراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

(٧٠) الصفا : نسبة الى باب الصفا الذى يقع فى الجهة الجنوبية من المسجد الحرام وسمى كذلك لانه يلى الصفا ، وعرفه المؤرخون بباب بنى مخزوم .

(٧١) باب ابراهيم : من الابواب القريبة للمسجد الحرام ، وابراهيم المنسوب اليه هذا الباب كان خياطا يجلس عنده .

انظر : ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣

(٧٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٦٥٠ .

ويذكر المقريزى : أنه كان يتحير مما قرأه فى كتاب قديم باسم « الحدثان مما أنذر بوقوعه فى هذا الزمان ، بأن يسلط على الناس والحيوان الردىء وكان المقريزى — على حد قوله — يفكر فى ذلك زمانا ويتعجب من تسلط الحيوان على الناس حتى اكتشف أن الارضة هى المقصودة بذلك .

(٧٣) ابن اياس : بدائع ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ .

العام ، واستمرت حتى الانتهاء من تجديد[٧٤] سقف الكعبة فى شهر ربيع الاول سنة ٨٣٨ هـ كما قامت هذه البعثة بتجديد مئذنة متهالكة كانت مجاورة للباب اليمنى من المسجد الحرام وجعلت بناءها عاليا[٧٥].

وفى شهر جمادى الآخرة من نفس العام (٨٣٨ هـ) أرسل السلطان برسباى أنواعا طيبة من الرخام[٧٦] حددها المقريزى بما مقداره ستون ذراعا لمرمة الحجر[٧٧] وشاذروان البيت وكـذلك حمل من الجبس خمسون جملا لبياض أروقة المسجد الحرام ومن الحديد عشرة قناطير لعمل مسامير وأربعون قطعة خشب لسد أروقة المسجد الحرام .

يذكر على باشا مبارك[٧٨] أن السلطان برسباى حرص على أن يوجه بعضا من أوقافه الى فقراء المسجد الحرام والمسـجد النبوى الشريف ، من ذلك مائة قميص من الخام وكذا رواتب من الدنانير الاشرفية نظير قراءة خمسة أحزاب من القرآن الكريم كل يوم بالمسجد الحرام والمسجد النبوى . كذلك أوقف ايراد أطيان زراعية جهة أبى رضوان بالجيزة على مصالح المارستان الموجودة بمكة المكرمة .

وكانت عناية السلطان برسباى بالمدينة المنورة — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — لا تقل عن اهتمامه بالمسجد الحرام فحينما هوجمت المدينة[٧٩] المنورة فى شهر ذى القعدة سنة ٨٢٩ هـ من قبل

---

(٧٤) المقريزى : السلوك جـ ٤/٢ ، ص ٩٣٤ .
(٧٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٩٣٤ .
(٧٦) الحجر : هى الارض التى بين جدار الكعبة الشـمالى وبين الحطيم وهو البناء الذى يأخذ شكل نصف دائرة ، وفيه رخامة خضراء تحت الميزاب يقال أنها موضع قبر اسماعيل — عليه السلام — .
انظـــر :
— ابراهيم رفعت ، مرآة الحمين ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٠٧ .
(٧٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ .
(٧٨) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٤ ، ص ٥٩ .
(٧٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٧٣٩ .

المتمردين ونهبت دورها وخربت أجزاء من سورها أرسل السلطان حملة عسكرية على رأسها الامير بكتمر السعدى أحد الامراء العشروات لتطهير المدينة واعادة الأمان اليها •

وهكذا نجد أن لقب « خادم الحرمين الشريفين » الذى تلقب به السلطان برسباى — حفر على واجهة منشأته بالقصبة العظمى لم يكن لقب فخريا له دلالة تأنقية بقدر ما كان لقبا حقيقيا بذل فيه السلطان المال والجهد والجهاد ووضع نفسه فى خدمة هذه البقاع الغالية العزيزة على كل مسلم فاستحق هذا اللقب عن جدارة •

ثالثا : نص قرآنى على واجهة المدرسة يفصح عن انتصار عسكرى للسلطان برسباى وتلقبه بقاتل الكفرة والمشركين :

يوجد بأعلى الواجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنشأة شريط طراز محفور على الحجر بالخط الثلث المملوكى كبير الحجم . يبدأ من أعلى يمين الواجهة بما نصه(٨٠) (شكل ٩) :

« بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا صدق الله العظيم . أنشأ هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الاشرف أبو النصر خلد الله ملكه بمحمد وآله يا رب العالمين وذلك بنظر العبد الفقير الى الله تعالى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة غفر الله له وللمسلمين فى مدة أولها شعبان من سنة ست وعشرين وثمانماية وآخرها سلخ جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وثمانماية »(٨١) .

الدراســـــة

وظف المعمار هذه الآيات القرآنية الكريمة من سورة الفتح للتدليل على مناسبة هامة من مناسبات النصر التى حققها السلطان برسباى دفاعا عن شرف الامة الاسلامية وحماية السواطىء العربية فى البحر دفاعا عن شرف الامة الاسلامية وحماية الشواطىء العربية فى البحر وكانوا يتربصون بالمسلمين وتجارتهم(٨٢) .

---

(٨٠) قرآن كريم ، سورة الفتح ، آية ١ — ٣ .
نشر هذا النص من قبل :
Berchem (M. V.), Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum, p. 350.

(٨١) يوافق ١ شعبان سنة ٨٢٦ هـ — ١٠ يوليو سنة ١٤٢٣ م .
يوافق ٣٠ جمادى الآخر سنة ٨٢٧ هـ — ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٤ م

(٨٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٣٦٦ .

ونقش هذه الآيات القرآنية على واجهة المدرسة عبارة عن اعلان لهذا الانتصار الذى تم للســـلطان برسباى على ملك قبرص المسمى « جينوس » عام ٨٢٨ هـ • وقرىء اعلان هذا النصر من هذه المدرسة على عامة المسلمين •

والمتأمل للنص المنقوش على عضادتى مدخل هذه المنشأة يجد أنه يشتمل على لقب من ألقاب السلطان برسباى وهو لقب « قاتل الكفرة والمشركين » • وهذا اللقب من الألقاب الجهادية السنية ونظيره لقب قامع ومبيد • ولقب قاتل من الألقاب التى أضيفت الى بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة خاصة بالسلاطين(٨٣) •

تركز الصليبيون — بعد أن طردهم الاشرف(٨٤) خليل بن المنصور قلاوون من الشام — فى جزر البحر المتوسط • وبدأوا أعمال القرصنة على السفن التجارية الاسلامية وعلى المدن الساحلية • وتزايد شررهم أكثر مما ينبغى ، وكان لابد من وقفة ضد هذه الشرذمة التى أذاعت الذعر بين الآمنين من المسلمين •

والمتتبع لحياة السلطان برسباى يجد أنه منذ توليه(٨٥) السلطنة

---

(٨٣) لقب بهذا اللقب نور الدين محمود فى نص انشاء بتاريخ ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م فى الجامع النورى بحماه ، ويعتبر هذا اللقب أثر من آثار النهضة السنية التى كان من مظاهرها الدفاع عن الاســـلام السنى ضد الصليبيين والاسماعيلية وورث المماليك بمصر مبدأ جهـــاد الصليبيين والدفاع عن الاســـلام •

انظـــــــر :

— حسن الباشا (الدكتور) الألقاب الاسلامية ، ص ٤٢٤ .

(٨٤) أبو الفدا ، المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

(٨٥) يتعجب المؤرخ بن تغرى بردى من سنة ٨٢٤ هـ وهى السنة التى حكم مصر أربعة من السلاطين حكم أولها الى يوم الاثنين ٨ محرم الملك المؤيد شيخ ثم من بعده المظفر احمد الذى حكم حتى التاسع من شعبان =

(يوم الاربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ) يجد أنه وضع فكرة الجهاد نصب عينيه فاستحق بذلك لقب « قاتل الكفرة والمشركين » وكللت مساعيه بالانتصار الساحق الذى أحرزه على الملك الصليبى (جينوس) صاحب جزيرة قبرص واحضاره ومعه أكثر من ألف أسير من الصليبيين ليسيروا فى موكب النصر أمام هذه المنشأة ، بل وعلقت خوذة هذا الملك الصليبى على باب المدرسة الاشرفية[٨٦] . وكانت هذه المنشأة بالذات من أولى الاماكن التى تاى من عليها نبأ انتصار جيوش المسلمين على الصليبيين وأسر ملكهم . وفى الصفحات التالية سأقوم بابراز المناوشات التى حدثت بين الجيوش الاسلامية والصليبيين والتى انتهت بالنصر على يد السلطان الاشرف برسباى .

يقول المقريزى فى حوادث شهر شعبان سنة ٨٢٥ هـ :

« فى هذا الشهر كثر عبث الفرنج بالسواحل ، وهجم فى الليل غرابان[٨٧] فيهما طائفة من الفرنج على ميناء الاسكندرية فوجدوا بها

=

ثم من بعده الظاهر ططر الذى حكم حتى الرابع من ذى الحجة ثم الصالح محمد بن ططر الذى حكم حتى الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ . وجاء من بعدهم السلطان برسباى .

انظـــر :

— ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٣٢٥ .
— أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ١٦٣ .

(٨٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٨٧) الغراب (جمع أغربة وغربان) وهى نوع من المراكب الحربية التى استعملها المسلمون والفرنج فى العصور الوسطى . وسبب التسمية كما أورده الدكتور درويش النحيلى عن النويرى « لرقتها وطولها وسوادها بالاطلية المانعة للماء كالزفت فصارت تشبه فى سوادها الغربان من الطير لسوادها وسواد مناقيرها أو على الاقل لأن مقدم هيكلها كان على شكل راس غراب .

انظر : درويش النخيلى (الدكتور) ، السفن الاسلامية على حروف المعجم . مادة غراب ، ص ١٠٤ .

مركب للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار • فاقتتلوا عامة الليل ، فخرج الناس من المدينة فلم يقدروا على الوصول اليهم لعدم المراكب الحربية عندهم ولا وصلت ســـهامهم الى الفرنج بل كانت تسقط فى البحر • فلما طال الحرب بين الفرنج وتجار المسلمين • واحترقت مراكب التجار نجوا فى القوارب الى البر ، فأتت نار الفرنج على سائر ما فى المراكب من بضائع حتى تلفت بأجمعها ومضى الفرنجة نحو برقة فأخذوا ما قدروا عليه ثم عادوا الى الاسكندرية ومضوا نحو الشام[٨٨] •

وكان هذا الاعتداء سببا فى أن السلطان برسباى أصدر أمرا فى شهر رمضان يتعلق بغلق كنيسة[٨٩] القيامة (قمامة) فى القدس الشريف ومنع النصارى من الدخول اليها •

ولم تكن القرصنة والهجوم على السواحل العربية الاسلامية قادمة من جزر البحر المتوسط فقط ، بل اشترك فى ذلك ملك الحبشة المسيحى ، فيذكر عن ذلك المقريزى[٩٠] فى حوادث سنة ٨٢٦ هـ :

« فى هذه السنة غضب متملك الحبشة وهو « أبرم » ويقال له اسحاق ابن داود بن سيف بن أرعد بسبب غلق كنيسة قمامة بالقدس وقتل عامة من فى بلاده من الرجال المسلمين واسترق نساءهم وأولادهم وعذبهم عذابا شديدا وهدم ما فى مملكته من المساجد وركب الى بلاد

---

(٨٨) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٦١٧ .
(٨٩) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٦١٩ .
ابن اياس : بدائع ، ج ٢ ص ١٤ .
(٩٠) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٤٩ .
بلاد جبرت يطلق هذا الاسم على كافة مسلمى الحبشة ، وينسب الى جبرت فيقال جبرتى ، فتذهب الرواية الحبشية الى أن هذا الاسم مأخوذ من الكلمة الاثيوبية (اجبرت) ومفردها (جبر) ومعناها خادم الله ويطلق نصارى الحبشة على المسلم كلمة اسلام والجمع اسلامج ولا يختلف الجبرتية عن بقية الحبش لا فى لباسهم ولا فى لغتهم .
انظـــر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « جبرت » .

جيرت وقاتلهم وقتل عامة من فيها وسبى نساءهم وذراريهم وهدم مساجدهم فكانت فى المسلمين ملحمة عظيمة جدا » .

كما أورد ابن اياس[٩١] معلومات عن ملك قبرص الصليبى وأنه مستمر فى عدوانه على سواحل مصر وسرقة المراكب الموجودة فى البحر المتوسط بما نصه :

« فى رمضان سنة ٨٢٦ هـ جاءت الاخبار بأن متملك الفرنج صاحب قبرص تحرك وصار يعبث فى السواحل وعلى المسافرين والتجارة وضج الناس منه وشكوا الى السلطان (برسباى) فعين لهم تجريدة وبها عدد من الامراء المقدمين والمماليك السلطانية فخرجوا الى الغزاة فى سبيل اللـــه » .

وقد حفزت هذه الحوادث المحزنة همة السلطان برسباى فى أن يدرأ الخطر عن أمته ووجه نظره الى أمرين هامين هما : تحصين الموانى والمدن الساحلية تحصينا كافيا يرد عنها هذه الغارات ، ثم بناء أسطول بحرى قوى يحمى السواحل الاسلامية ويهاجم قوى البغى فى عقر دارها .

وفى سبيل تحقيق الامر الاول نجد أن السلطان برسباى أمر ببناء برج حربى قرب مدينة الطينة وشحنه بالفرسان والأسلحة والمقاتلين وكانت هذه المنطقة هامة جدا بل تعتبر المدخل الى مصر من جهة سيناء وكانت قوافل التجارة تمر من خلالها وحدث اعتداء عليها أكثر من مرة .

وقد أوردت المصادر[٩٢] عن حوادث شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٨ هـ : « فيه كملت عمارة برج حربى بالقرب من الطينة على بحر الملح فجاء

---

(٩١) ابن اياس : البدائع ، ج ٢ ، ص ١٨ .
(٩٢) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٨٣ .
ابن اياس ، البدائع ، ج ٢ ، ص ٩٧ .
ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٧٢ .

مربع الشكل ، مساحة كل مربع منه ثلاثون ذراعا وشحن بالأسلحة ، وأقيم فيه خمسة وثلاثون مقاتلا فيهم عشرة فرسان وأنزل حوله جماعة من عرب الطينة فانتفع به الناس . وذلك أن الفرنج كانت تقبل فى مراكبها الى بر الطينة وتتخطف الناس من هناك فى مرورهم من قطيا الى العريش وتولى عمارة البرج الأمير زين الدين عبد القادر[٩٣] بن الامير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج وأخذ الآجر الذى بناه به من تراب مدينة الفرما وأحرق حجارة الجير مما أخذه من الفرما » .

أما المنحى الثانى الذى سلكه السلطان برسباى لتأمين حدود الدولة فى ذلك الوقت فهو بناءه لاسطول بحرى قوى بنيت مراكبه على ساحل النيل ببولاق . وأخذت أخشابه من قصور[٩٤] سرياقوس القديمة ومن أشجار الجوز والجميز . وكان السلطان يباشر عمارة هذه الطرائد[٩٥] والاعزية[٩٦] بنفسه وينزل اليها من القلعة ليتابع ما أنجز منها .

---

(٩٣) الامير زين الدين عبد القادر : أرمنى الأصل ، كان جده الاكبر مسيحيا وأسلم ولد بالقاهرة فى أوائل القرن التاسع الهجرى وتدرب على أبيه الامير عبد الغنى الفخرى صاحب المدرسة الفخرية أو ما يعرف بجامع البنات وتعين فى وظائف المباشرة فى جهات عدة من الاقليم المصرى كما عين استادارا فى عصر برسباى ، امتحن اكثر من مرة حتى افتقر ، مات بالطاعون سنة ٨٣٣ هـ .

انظر : السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٤ ، ص ٢٧٢ ، تحقيق ٧٢١ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ .

(٩٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٨٢ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ .

(٩٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٥ .

الطرائد (مفردها طراد) وهى سفن صغيرة سريعة السير مفتوحة المؤخرة بأبواب تغلق وتفتح ، معدة لحمل الخيل بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها .

انظر :

— درويش النخيلى (الدكتور) السفن الاسلامية ، مادة طريدة ، ص ٨٩ .

(٩٦) ابن اياس ، البدائع ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

وحينما اكتملت العدة والعتاد استعرض السلطان برسباى هذه الاساطيل وعين لها القوات المحاربة وكان عدتهم ألف[٩٧] مملوك أعطى لكل واحد منهم عشرين دينارا • كما بعث السلطان خيولا بطريق البر الى طرابلس وكانوا نحو[٩٨] ثلاثماية فرس •

ومن المعروف أن السلطان برسباى أرسل أساطيله لغزو جزيرة قبرص مرتين كانت أولاهما فى شهر رجب سنة ٨٢٨ هـ •

يقول المقريزى[٩٩] « فى ثالث عشرينة ركب الامير ناصر الدين محمد ابن السلطان ومعه الامير جانى[١٠٠] بك حتى شاهدا الأعزبة وقد أقام فى دار القاضى زين الدين عبد الباسط المطلة على النيل ، فانحدر فى النيل أربعة أعزبه بكل غراب أمير وتقدم الجميع الامير جرباش حاجب الحجاب • فكان يوما مشهودا حشد فيه الناس من كل جهة لمشاهدة ذلك ثم انحدر يوم الاثنين غراب واحد وانحدر يوم الثلاثاء غرابان وفى يوم الخميس سادس عشرينة غراب •

وقد توجت هذه الحملة التى أرسلها السلطان بالنصر المبين وأرسلت

---

(٩٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٢/٤ ، ص ٦٨٨ •

(٩٨) ابن اياس : البدائع ، جـ ٢ ، ص ٩٨ •

(٩٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٨٩ — ٦٩٠ •

(١٠٠) الامير جانى بك من مماليك الأشرف برسباى ، ولد عام ٨٠٥ هـ وعينه برسباى فى عدة وظائف هامة منها خازندارود وادار ونائب عن السلطان له جامع بشارع المغربلين ، وقبة ضريحية بجبانة المماليك ، مات صغير السن وعمره ٢٥ سنة ودفن فى قبة ملحقة بجامعه ثم نقله السلطان الى قبة ضريحية أخرى بجبانة المماليك .

انظر عنه :

المقريزى : السلوك جـ ٤ ، ص ٧٨٦ ، السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ٣ ص ٥٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١١٨ ، ابن حجر : ٥٤ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، جـ ١٥ ، ص ١٤٩ وما بعدها .

البشائر من طرابلس بأن قوات المسلمين قد انتصرت على الفرنج[١٠١] وقد علمت مصر بنبأ هذا الانتصار فى شهر شوال سنة ٨٢٨ هـ .

يقول المقريزى[١٠٢] (فى اليوم التاسع من شوال ورد الخبر من طرابلس بنصرة المسلمين على الفرنج فدقت البشائر بالقلعة وجمع القضاة والاعيان بالجامع الاشرف وقرىء عليهم الكتاب ونودى بزينة القاهرة ومصر فزينتا ثم قرىء الكتاب من الغد بجامع عمرو بن العاص وكتبت البشائر الى الاسكندرية والبحيرة والوجه القبلى » .

ويعطينا المؤرخ بن اياس[١٠٣] أخبار هـذا الانتصار فيقـول : « فى شوال سنة ٨٢٨ جاءت الاخبار من الطينة (يقصد قلعة الطينة التى شيدها السلطان برسباى) بصحة بشارة هذه النصرة مفصلة بصفة ما وقع لهم مع صاحب قبرص ودخوله فى الطاعة السلطانية » .

أما الغزوة الثانية التى أرسلها السلطان برسباى على جزيرة قبرص فقد ابتدأ الاعداد لها اعتبارا من شهر جمادى الاولى سنة ٨٢٩ هـ .

يقول ابن اياس[١٠٤] عن ذلك « فيه شرع السلطان فى تجهيز العسكر الى قبرص ، وهى التجريدة الثانية للسلطان » .

وقد خرجت هذه الحملة الثانية يوم الجمعة ٧ من رجب سنة ٨٢٩ هـ وعلى رأسها أربعة أمراء هم الامير تغرى بردى المحمودى رأس نوبه وقد جعل مقدم عساكر البحر والامير أينال الجكمى أمير مجلس وجعل مقدم عساكر البحر والامير تغرى برمش والامير مراد حجا وتبعهم المجاهدين » .

---

(١٠١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٩/٢٨٠ .
(١٠٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٩٤ .
(١٠٣) ابن اياس : البدائع ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
(١٠٤) ابن اياس : البدائع ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

وخرجت هذه الحملة من مدينة رشيد[١٠٥] الى البحر المتوسط يوم السبت ٢٠ رجب سنة ٨٢٩ هـ .

واستطاعت هذه الحملة أن تحرز انتصارا نهائيا على ملك قبرص وتأسره وتحضره الى القاهرة ومعه ما يزيد على ألف أسير .

ويعطينا المؤرخ المقريزى[١٠٦] تفاصيل مذهلة عن هذا الانتصار العظيم فيقول : « فى يوم الاحد سابعه (شوال سنة ٨٢٩ هـ) قدم الامير تغرى بردى المحمودى والامير اينال الجكمى مقدما الغزاة المجاهدين بما معهما من العسكر وصحبتهم جنيوس بن جاك ومن أسروه وسبوه من الفرنج وما غنموه وجميعهم فى مراكبهم التى غزوا بها قبرص وسار الموكب من ساحل بولاق الى أرض اللوق حتى خرجوا من المقس وعبروا قنطرة المقس الى بين القصرين وشقوا قصبة القاهرة الى باب زويلة ومضوا الى الصليبية وأقبلوا من سويقة منعم الى الرميلة تحت القلعة وطلعوا من باب المدرج . وكان الفرسان يتقدمون الموكب ومن وراءهم طوائف الرجاله وأحضرت مع هذا الموكب الغنائم التى حملت على رؤوس الرجل وظهور الجمال والبغال والحمير وفيها تاج الملك وأعلامه منكسة وأحضر الأسرى من الفرنج وكان عددهم زيادة عن ألف انسان ومن وراءهم الملك جينوس بن جاك وقد أركب بغلا »[١٠٧] .

وقد عامل السلطان برسباى الملك جينوس معاملة طيبة حتى افتدى نفسه بمال قدره عليه السلطان وعاد الى جزيرته نائبا عن السلطان برسباى وظل يقدم فروض الولاء والطاعة والجزية الى السلطان برسباى[١٠٨] .

---

(١٠٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٧٢٠ .
(١٠٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ .
(١٠٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٧٤١ .
(١٠٨) افرد ابن تغرى بردى فى مؤلفه جزءا خاصا لهذه الغزوة تحت عنوان ذكر غزوة قبرس على حدتها . (انظر) جـ ١٤ ، ص ٢٩٢ .
=

وكانت هذه الغزوة سببا فى خضوع صاحب جزيرة رودس الذى أظهر الود والولاء للسلطان برسباى وأرسل له الهدايا رمزا لهذا الولاء .

القبض على جاسوس مشرك

غير أن كراهية الفرنج للمسلمين وان توقفت بسبب قوة الدولة المملوكية الا أنه لم يمتنع ، ويروى لنا المؤرخ المقريزى قصة جاسوس من تجار العجم المنتمين الى الاسلام باع دينه وتواطىء مع ملك الحبشة وبعثه يحث الفرنج على غزو بلاد المسلمين الا أن أمره اكتشف بواسطة عبيده بمدينة الاسكندرية فقبض عليه وأريق دمه وهو « الخواجا نور الدين على التوريزى » وكان ذلك جزاء من يجلب السلاح الى بلاد العدو ويلعب بالدينين[١٠٩] . فاقعد تحت شباك المدرسة الصالحية[١١٠] بين القصرين وضربت عنقه وذلك يوم ٢٤ جمادى الاولى سنة ٨٣٢ هـ .

قتـــل مرتـــد

وفى يوم السادس والعشرين من شـــهر صفر[١١١] سنة ٨٣٦ هـ ضربت رقبة رجل ارتد عن الاسلام ثم أحرقت جثته .

وهكذا فان لقب قاتل الكفرة والمشركين الذى ورد بنص تأسيس

=

كما أورد قصائدشعرية قيلت بمناسبة هذا الانتصار منها ما انشده الشيخ زين الدين الخرط أمام السلطان برسباى مطلعها :

بشراك يا ملك المليـــك الأشرفى ... بفتوح قبرس بالحسام المشرقى
فتح بشهر الصوم تم له فيـــا ... لك أشرف فى اشرف فى أشرف
فتح تفتحت السماوات العـــلى ... مـــن اله بالنصر واللطف الخفى

انظر : ابن تغرى بردى ، النجـــوم ، جـ ١٤ ، ص ٢٩٦ .

(١٠٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٢/٤ ، ص ٧٩٧ .

(١١٠) المدرســـة الصالحية : (اثر رقم ٣٨) ٦٤١ ـــ ٦٤٨ هـ / ١٢٤٣ ـــ ١٢٥٠ م ، تقع بشارع المعز لدين الله بناها الصالح نجم الدين أيوب ، زادت فيها شجرة الدر قبة ضريحية لزوجها بعد وفاته (انظر عنها) : أحمد فكرى (الدكتور) مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٦٠ ، وما بعدها .

(١١١) المقريزى : السلوك ، جـ ٢/٤ ، ص ٨٨٤ .

هذه المنشأة لقب حقيقى استحقه السلطان برسباى عن جدارة وأثبتته أحداث عصره وكتب معاصريه ، وأنه قاتل الكفرة والمشركين حقا وفعلا داخل البلاد أو خارجها .

ويمكن أن تطبق هذه الاخلاق الاسلامية على ما تلقب به السلطان برسباى فى هذا النص الموجود على عضادتى المدخل الرئيسى للمنشأة والذى لقب فيه بسلطان الاسلام والمسلمين وهو لقب مركب يتكون من (سلطان) وما أضيف اليه وهو الاسلام والمسلمين وهو من أرفع الالقاب وهذا اللقب يعطى الملقب صفة دينية اسلامية اذ تجعله المسلم[١١٢] الاول الذى اختاره الله لتأييد الاسلام ونصرة المسلمين وهو ما حدث بالفعل حينما حارب السلطان ملوك الفرنج وهزمهم شر هزيمة .

ويتجلى هذا الخلق أيضا فيما قام به السلطان برسباى بخصوص العملات المتداولة فى عصره . فقد كان الناس يتعاملون بعملات أوربية هى الدوكات والعملة الافرنتية وهى عملات غالبا ما كان عليها علامات وشارات مسيحية صريحة بالاضافة الى رسوم أشخاص للملوك وأمراء هذه الدوقيات وقد حرص السلطان برسباى على أن يضرب عملة جديدة بالطرز الاسلامى وألغى رسوم الملوك الاوربيين لعى العملات التى كان الناس يتعاملون بها فى عهده . يقول ابن اياس[١١٣] فى حوادث شهر ربيع الاول سنة ٨٢٩ هـ : « فيها ضرب السـلطان معاملة جديدة هى الاشرفية البرسبيهية وكتب عليها اسمه بدلا من المعاملة الذهب التى من ضرب الافرنج » .

كما يذكر المقريزى[١١٤] فى حوادث شهر صفر سنة ٨٢٠ هـ :

« فى سابعه نودى بمنع الناس من المعاملة بالدراهم البندقية وهى

---

(١١٢) حسن الباشا (الدكتور) ، الالقاب الاسلامية ، ص ٣٢٣ ، ٣٣١
(١١٣) ابن اياس : البدائع ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .
(١١٤) المقريزى : السلوك ، جـ ٤/٢ ، ص ٧٣٧ .

فضة عليها شخوص من ضروب الفرنج يتعامل بها الناس من سنة ثمانى عشر وثمانماية بالعدد والوزن ، ورسم يحمل ما فى أيدى الناس الى دار الضرب لتسبك دراهم أشرفية على سكة الاسلام » •

وبعد فان هذه النصوص الشريفة التى وردت على واجهات هذه المنشأة قد وضحت لنا مفاهيم شريفة تتعلق بخدمة السلطان برسباى للحرمين الشريفين وكذا جهاده ضد الصليبيين فى جزر البحر المتوسط كما أنها أوضحت لنا وظيفـــة الجامع المدرسة فى العصر المملوكى الجركسى •

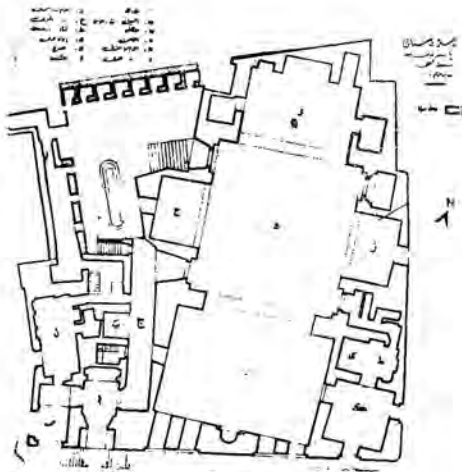
هكذا فهمت وأرجو من الله التوفيـــق •••



(شـــكل ١)

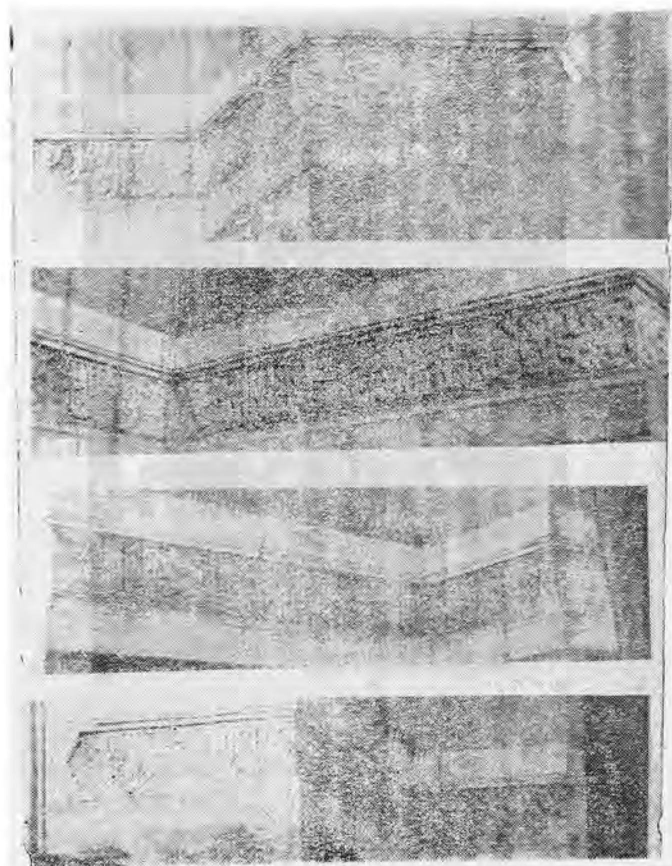
منظر عام لمسجد ومدرسة السلطان الأشرف برسباى بشارع المعز لدين الله بمدينـــة القـــاهرة

اثر رقم ١٧٥ — ٨٢٦/٨٢٩ هـ — ١٤٢٣/١٤٢٥ م



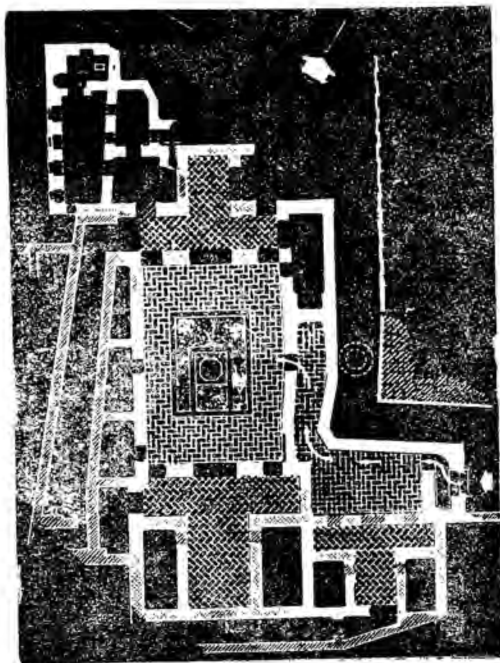
(شـــكل ٢)

مسقط افقى لمسجد ومدرسة السلطان الأشرف برسباى
بشارع المعز لدين الله بالقـــاهرة



(شـــكل ٣)

نص تأسيس عضادتى المدخل الرئيسى لمسجد ومدرسة السلطان
برســباى بمدينــة القــاهرة



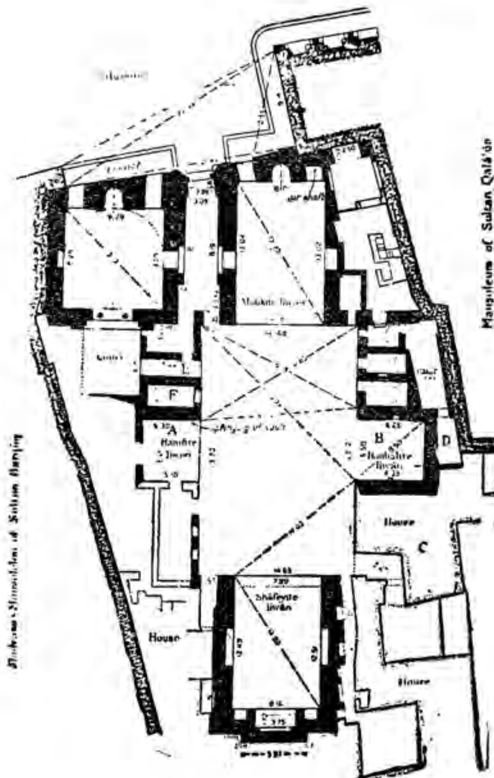
(شــــكل ٤)

مسقط افقى لبيت من البيوت التى كشف عنها الدكتور عباس حلمى بمدينة الفسطاط وأكد نسبتها للعصر الطولونى ضمن رسالته للدكتوراه عن المسكن المصرى ، ويلاحظ فى المسقط الصحن المكشوف ذى النافورة — الايوانان القبلى والبحرى — المدخل المنكسر وهذه العناصر تمثل جوهر التخطيط الايوانى فى مصر



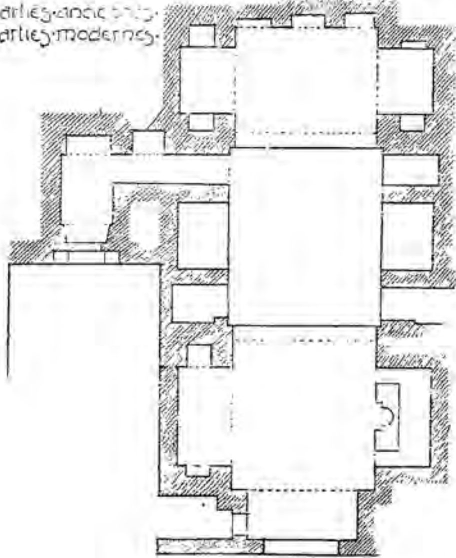
(شـــكل ٥)

مسقط أفقى لبيت من بيوت الفسطاط كشف عنها على بهجت
وأطلق عليها الدار الثالثة وهى رباعية الايوانات



(شـــكل ٦)

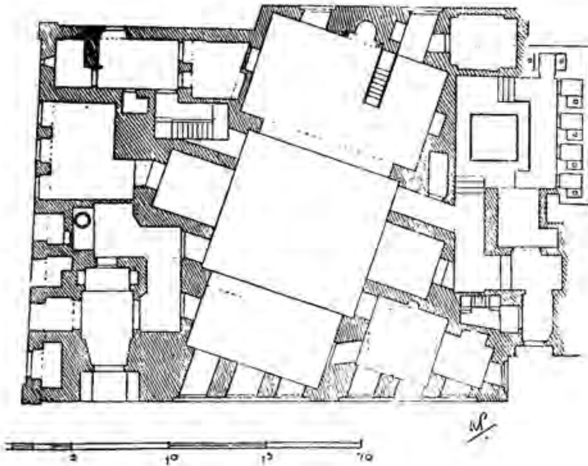
مسقط افقى لمدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بين القصرين
ويلاحظ فيها التأثر بالتخطيط الرباعى للبيوت الطولونية
أثر رقم ٤٤ — ٦٩٥/٧٠٣ هـ — ١٢٩٥/١٣٠٤ م



(شـــكل ٧)

مسقط أفقى لجامع شرف الدين الذى كان فى أصله قاعدة
سكنية تحولت الى مســجد جــامع
اثر رقم ١٧٦ ــ ٣٨/٧١٧ هـ ــ ١٣٣٧/١٣١٧ م

••• Mosquée · de l'Emir · Gani - bek •••

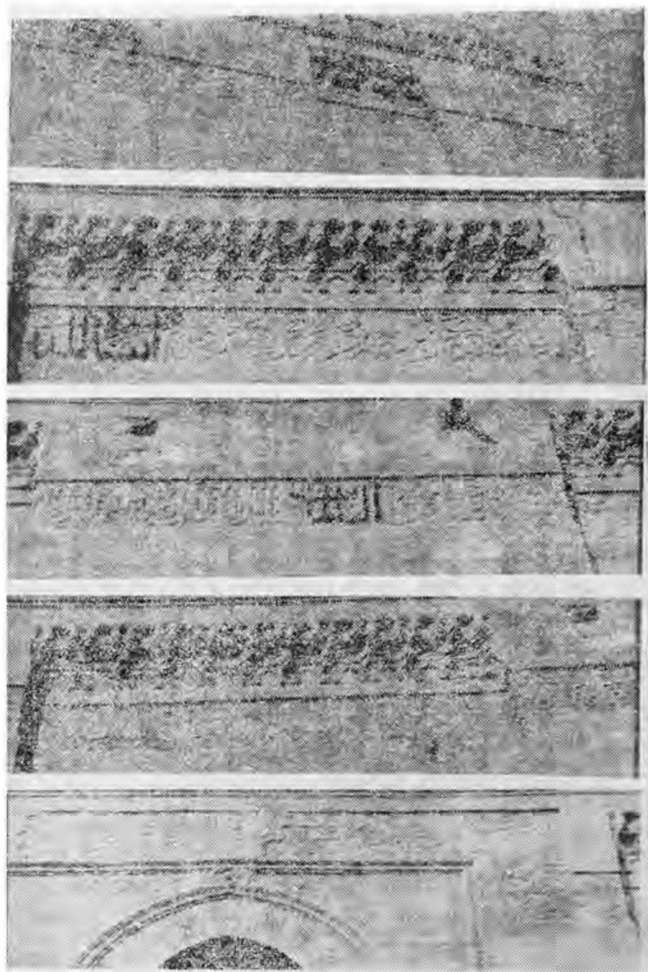


(شــــكل ٨)

مسقط افقى لجامع الامير جانى بك الأشرفى بشارع المغربلين

على النمـط الايوانى

اثر رقم ١١٩ ـــ ٨٣٠ هـ ـــ ١٤٢٦/١٤٢٧ هـ



(شـــكل ٩)

نص تأسيس بأعلى واجهة مسجد مدرسة السلطان الأشرف برســباى بالأشرفيــة بالقــاهرة

مصـــادر ومراجع البحث

القـــرآن الـكريم :

أولا ـ المصـــادر :

ـ حجة وقف الأشرف برسباى محفوظة بدفترخانة وزارة الأوقاف بالقاهرة رقم ٨٨٠ ، نشرها وعلق عليها الدكتور أحمد دارج ، مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، بالقاهرة .

ـ حجة وقف السلطان قايتباى ، محفـوظة بدفترخانة وزارة الأوقاف بالقاهرة ، رقم ٨٨٦ .

ـ حجة وقف الامير سودون من زادة ، محفوظة بدار الوثائق القومية ، رقم ٥٨ ، محفظة ١٠ .

ـ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف) ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، طبعة دار الكتب .

ـ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) ، أنباء الغمر .

ـ ابن اياس (محمد بن أحمد) ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٥ أجزاء ، طبع دار الكتب .

ـ أبو الفدا (اسماعيل بن على عماد الدين) ، المختصر فى تاريخ البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٩ م .

ـ الاسحاقى (محمد بن عبد المعطى) ، أخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، طبع العثمانية ، ١٣١٥ هـ .

ـ السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الضـوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

ـ ـــــــ : التبر المسبوك فى ذيل المملوك ، القاهرة ، ١٨٩٦ م .

ـ الشوكانى (محمد بن على) ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، طبع القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤ أجزاء (١٢ قسم) ، طبعة دار الكتب ، ١٩٧٢ م .

ـــ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

ثانيا ـ المراجـع العربيـة :

ـ ابراهيم (باشا) رفعت ، مرآة الحرمين أو الرحلات والحج ومشاعره الدينية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٢٥ م .

ـ أحمد السعيد سليمان (الدكتور) ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

ـ أحمد فكرى (الدكتور) ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الأول ، العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٦٥ ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، القاهرة ١٩٦٩ م .

ـ حسن الباشا (الدكتور) الألقاب الاسلامية فى التـاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ م .

ـ حسن عبد الوهاب (خبير أثرى) ، تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، القاهرة ١٩٤٦ م .

ـ حسن قاسم : المزارات الاسلامية والآثار العربية فى مصر والقاهرة المعزية ، القاهرة ١٩٤٢ م .

ـ حسنى نويصر (الدكتور) مدرسة الامير فيروز الساقى ، مجلة الأزهر ، عدد صفر ١٤٠٢ هـ ، نوفمبر ١٩٨٢ م .

ـــ : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية الآثار ، جـامعة القاهرة ، ١٩٧٥ .

- حسنى نويصر (دكتور) : مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة . مدرسة الامير سودون بن زادة بشارع سوق السلاح . القاهرة ١٩٨٥ م .

- سعاد ماهر محمد (الدكتورة) مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٨٠ م .

- درويش النخيلى (الدكتور) : السفن الاسلامية على حروف المعجم . دار المعارف ، القاهرة .

- راشد القحطانى : أوقاف سلاطين المماليك البحرية على الحرمين الشريفين ، رسالة ماجستير محفوظة بمكتبة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . الريض ١٩٨٦ م .

- عادل نجم عبو (الدكتور) : المدرسة فى العمارة الايوبية فى سوريا ، فصلة من مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية . دمشق ١٩٧٤ م .

- عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) : وثيقة قراقجا الحسنى . مجلة كلية الآداب ، عدد ديسمبر ١٩٥٦ م .

- عباس حلمى (الدكتور) : تطور المسكن المصرى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٦٦٧ .

- ———— : المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية ، فصلة من مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، العدد الثالث ، ١٣٩٧ — ١٣٩٨ هـ .

- على بهجت وجبرائيل : حفريات الفسطاط . مطبوعات دار الآثار العربية .

- ———— : كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ، سنوات ١٩١٥ — ١٩١٩ م .

ـــ على باشا مبارك : الخــطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ٢٠ جزء ، المطبعة الاميرية . ١٣٠٥ ــ ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ ــ ١٨٨٩ م •

ـــ فريد شافعى (الدكتور) : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، المجلد الأول ، عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٠ م •

ـــ ــــــــــــ : العمارة العربية الاسلامية ، ماضــيها وحاضرها ومستقبلها ، الرياض ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م •

ـــ فهرس الآثار الاسلامية لمدينة القاهرة ، مصلحة المســاحة ١٩٥١ م •

ـــ فهمى عبد العليم (أثرى) : جامع المؤيد شيخ ، رســالة ماجستير بمكتبة جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م •

ـــ كمال الدين سامح (الدكتور) : العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٠ م •

ـــ محمد عبد الستار : الآثار المعمارية للسلطان الاشرف برسباى بمدينة القاهرة ، رسالة ماجستير ، مكتبة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧ م •

ـــ محمد محمد الكحلاوى : مدرسة الامير عبد الغنى الفخرى (جامع البنات) ، رسالة ماجستير محفوظة بمكتبة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١ م •

ثالثا ـ المراجـع الافرنجية :

Berchem (M. V.), Materiaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum. Le Caire, 1894-1903.

The principal forms of Islamic Riligious Building (Syro-Egyptian School), article in Encyclopadia of Islam, 1910.

Briggs (M..), Muhammadan architecture in Egypt and Palestine Oxford 1910.

Combe (E.), Suvaget (S.) et Wiet (G.), Repertoire chronologique d'epigraphie Arabe 16vols, Le Caire 1931-1964.

Coste (P.), L'architecture Arabe ou monuments du Kaire, Paris, 1839.

Creswell (K. A. C.) The origin of the cruciform plan of Cairene Madrassas, Bulletin de L'Institut Francais d'archaeologie Orientale, 1922.

Darrag (A.) Egypte sous le renge de Bars Bai, Damas I. F. 1961.

Ebers (G.), L'Egypte, Alexandrie et Le Caire, Paris 1880.

Gabriel (A.) Les fouilles d'al-Foustat et les origenes de la Maison Arabe en Egypte, Paris, 1921.

Gluck (H.). & Diez (E.), Die Kunst des Islam Kobenhaven, 1869.

Meinecke (M.), Islamic Cairo, architectural conservation and urban development of the historical centere German institute of archaeology, Cairo, 1978.

Roberts (D.), Egypt & Nubie. London 1846-1849.

Wiet (G.) & Hautecour (L.), Mosquees du Caire, Paris, 1932.

دراســـة أثرية وفنية لقطعة ذهبية نادرة من النقــود
فى صقلية بمجموعة المتحف الاسلامى بالقاهرة

دكتورة / مايسة محمــود داود
كلية الآثار ــ جامعـــة القاهرة

خضعت جزيرة صقلية لنفوذ المسلمين حقبة طويلة من الزمن بعد أن نجح الأغالبة بقيادة أسد بن الفرات فى فتحها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، وقد دانت صقلية لحكم دولة الأغالبة فى تونس حتى استطاع الفاطميون القضاء على دولتهم والاستيلاء على أملاكهم فى شمال أفريقية وصقلية سنة ٢٩٧ هـ[١] (٩٠٩ م) ، وظلت صقلية فى حوزة الفاطميين الشيعة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) الى أن انتزعها النورمانديون منهم سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن دانت لحكم الفاطميين ما يقرب من قرنين من الزمان • وقد شهدت الجزيرة منذ سنة ٤٨٤ هـ وحتى سنة ٧٠٠ هـ (١٠٩١ ــ ١٣٠٠ م) الكثير من الصراعات والقلاقل والثورات التى شنها المسلمون ضد حكامهم حتى تم إخماد ثوراتهم نهائيا سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) •

ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، ضمن مجموعاته الذاخرة من السكة الاسلامية بربع دينار فريد[٢] من نوعه يحمل على أحد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ، ص ٩٣

د. عبد المنعم رسلان : الحضارة الاسلامية فى صقلية وجنوب ايطاليا ، جدة ١٩٨٠ ، ص ١٧ ــ ٢٣ .

(٢) رقم سجل ١٨٩٢٣ وزنه ١٫٧١٠ جرام . وهذا الوزن قريب من أوزان أرباع الدنانير الفاطمية المعاصرة لها لاسيما لرباع دنانير الخليفـــة الفاطمى المستنصر ٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ ــ ١٠٩١ م) مثال ذلك ربع دينار محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة برقم سجل ١٦٧١٨/١ وزنه (١٫٢٥٠ جرام) وآخر وزنه (١٫٢٥٠ جرام) برقم سجل ١٦٧١٨/٢ .

وجهيه كتابات عربية كوفية تتضمن اسم ملك صقلية النورماندى غليالم واسم الخليفة العباسى المستعين بالله ، بينما يظهر على الوجه الآخر الصليب اللاتينى المصحوب من الجانبين بالعبارات المسيحية باللغة اليونانية ، لذلك فهى تجمع بين الطابعين الاسلامى والمسيحى فى آن واحد ، ويقرأ على أحد وجهيه بالخط الكوفى الرشيق المزهر ما يلى :

مركز :



شكل هندسى عبارة عن مربع يمتد ضلعاه الى أعلى ربما قصد منه ملء فراغ المركز بشكل زخرفى أو الاشارة الى مدينة الضرب بصقلية .

هامش داخلى : غليالم المستعين بالله .

هامش خارجى : .... ــعــ .... مقصوص وممحو .

ويقرأ على الوجه الآخر للقطعة الذهبية كتابة يونانية تحيط بشكل الصليب اللاتينى من الجانبين وهو يتميز بأن ذراعه السفلى أطول من باقى الأذرع ويرمز الى صلب المسيح وآلامه(٣) اذ يقال أن المسيح قد صلب على هذا الصليب اللاتينى ، وتقرأ كتاباتها كما يلى :

مركز :



(٣) Grierson (Philip) : A rare Crusaders Bezant with the Christus Vincit Legend. (The American Numismatic Society) Museum notes VI, 1954, p. 71.

وهذه الحروف اختصار للكلمات اليونانية التالية :

IC XC NIKA

IHΣOÛS- XPIΣTOΣ- NiKATΩP

ومعناها بالعربية يسوع المسيح المنتصر[٤] • وهى تعبر بذلك عن فترة إنتصار النورمانديين المسيحيين على الفاطميين المسلمين (لوحة رقم ١) وهى تذكرنا بعباءة تتويج[٥] روجر الثانى الذى حكم صقلية من سنة ٥٢٥ هـ الى ٥٤٨ هـ (١١٣٠ — ١١٥٧ م) التى نقشت عليها صورة أسدين ينقضان على جملين مشيرة بذلك الى إنتصار النورمانديين على العرب المسلمين (لوحة ٢) •

وتعتبر هذه القطعة الذهبية لغليالم ملك صقلية من الأمثلة النادرة لأنها تسجل لنا مرحلة انتقال السكة فى صقلية من الطراز الاسلامى الفاطمى — ذى الكتابة المركزية التى يحيط بها هامشان دائريان الذى شاع فى العصر الفاطمى الثانى[٦] — إلى طراز السكة النورماندية

(٤) Schlumberger (Gustave) : Numismatique de L'Orient Latin Paris 1878, pl II, 7.

(٥) د. زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٤١ — ١٤٢ لوحة ٢٠ ، د. زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ص ١٩٨ ، شكل ٥٩٩ ، د. عبد المنعم رسلان : الحضارة الاسلامية فى صقلية وجنوب ايطاليا ، جده ١٩٨٥ ، ص ٨٩ — ٩١ ، لوحة ٤٢ .

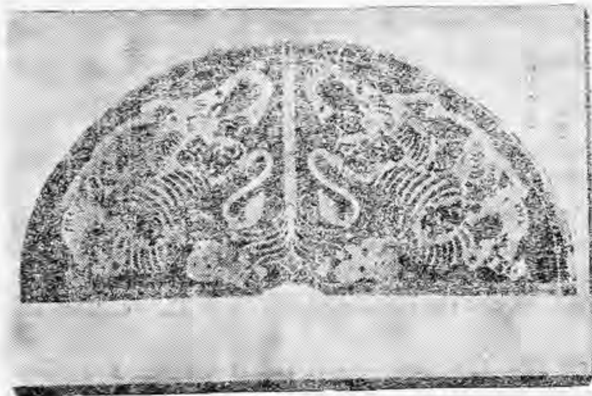
(٦) سار طراز السكة الفاطمية فى بداية تاسيسها وفى عهود خلفائها الأوائل المهدى والقائم وأبى طاهر اسماعيل من حيث الشكل على منوال طراز السكة العباسية لاسيما فى عهد الخليفة المأمون التى كانت تتألف سواء بالوجه أم بالظهر من كتابات مركزية فى سطور أفقية متوازية تحمل عبارات التوحيد والرسالة المحمدية يحيط بها هامشان بالوجه ، الداخلى منهما يحمل



(لوحــة ١)

ربع دينار باسم غليالم ملك صقلية والخليفة العباسى المستعين بالله

بمجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة (ينشر لأول مرة)



(لوحــة ٢)

عباءة تتويج روجر الثانى ملك صقلية مؤرخة بسنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م)

المسيحية بعد زوال حكم الفاطميين منها على الرغم من أنها ليست المرة الأولى التى يقلد فيها الأوربيون السكة الاسلامية ذات الكتابات العربية الكوفية وان اختلف الهدف من تقليدها فى كل مرة ، فقد سبقتها عملة الملك أوفا[٧] Offa Rex فى مرسيليا بجنوب ايطاليا سنة (٧٥٧ — ٧٩٦ م) التى حاكى فيها دنانير الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٧ ﻫ (٧٧٤ م) المعاصرة لفترة حكمه لاعجابه بالحضارة الاسلامية وبالخط العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت المدن الايطالية تقوم بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب كما خضعت أسبانيا وجنوب فرنسا لحكم المسلمين منذ عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، لذلك كانت المدن الايطالية وأسبانيا وجنوب فرنسا من المعابر التى انتقلت عن طريقها الحضارة العربية الاسلامية الى أوربا[٨] .

كما عمل الصليبيون أيضا بالامارات الصليبية ببلاد الشام على

تاريخ الضرب والخارجى يحمل جزءا من سورة الروم « لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » أما الظهر فيحتوى على هامش واحد فقط يتضمن اقتباس من سورة الصف والفتح « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ويظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وقد ظلت السكة الفاطمية تسير وفق طراز السكة العباسية للخليفة المأمون قبل أن يصبح لها ، منذ عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، طرازا لسكتها يحمل العبارات والنصوص الشيعية التى تعلن فى صراحة عن مذهب ومبادىء هذه الدولة الشيعية ، ثم ما لبث أن عاد طراز السكة العباسية ذو الكتبات المركزية والهامشين الى الظهور من جديد بعد ضعف الخلافة الفاطمية وذلك فى العصر الفاطمى الثانى وان ظلت السكة الفاطمية تحتفظ بالعبارات الشيعية كما أصبحت تحتوى على هامشين سواء بالوجه أم بالظهر على عكس السكة العباسية التى اقتصرت على هامش واحد فقط بالظهر .

(٧) أرنولد : تراث الاسلام ، ترجمة د. زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ١ ، ص ١٧ .

(٨) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى جـ ١ ، ص ٤٧٨ — ٤٩٢ .

تقليد الدنانير الفاطمية[٩] لكل من الخليفة المستنصر بالله والخليفة الآمر بأحكام الله والخليفة الحافظ لدين الله لرواج وتسهيل عملياتهم التجارية مع بلاد الشرق من جهة ولدفع فدية أسراهم من جهة أخرى ، بالاضافة الى تحقيق مخططهم الاستعمارى الذى يهدف الى محاربة الفاطميين اقتصاديا وذلك بتقليد دنانيرهم ولكن بعيار ووزن أقل للاساءة الى سمعة السكة الفاطمية والنجاح فى تقويض نظامها المالى والاقتصادى .

وتعتبر هذه القطعة الذهبية النورماندية على درجة كبيرة من الأهمية نظرا لأنها تمثل لنا حلقة من حلقات التطور الثلاث التى مرت بها السكة النورماندية مثلها فى ذلك مثل السكة الصليبية ببلاد الشام[١٠] ، قبل أن يصبح لها طابعا صليبيا واضحا متميزا ، وان اختلفت السكة فى صقلية فى المرحلة الأولى عن السكة الصليبية ببلاد الشام ، اذ كانت السكة فى صقلية تسير فترة تبعيتها للأغالبة ثم الفاطميين وفق طرازى السكة الأغلبية والفاطمية . ثم تعدتها الى المرحلة الثانية التى تمثل الانتقال من طراز السكة الفاطمية الاسلامية

---

(٩) تضم مجموعة دار الكتب المصرية خمسة وعشرين قطعة ذهبية من النقود الصليبية منها ثلاث تقليد لدنانير المستنصر بالله واحدى وعشرين قطعة تقليد لدنانير الآمر ودينارا واحدا تقليدا لدنانير الخليفة الحافظ نشر منها د. رأفت النبراوى ست قطع فى رسالته للماجستير عن (المسكوكات الصليبية فى مصر والشام) بكلية الآثار ص ١٦١ — ١٨٥ ، كما يقتنى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ثمانية قطع من النقود الصليبية منها اثنتان باسم المستنصر وخمس قطع للآمر وواحدة للحافظ بأرقام سجل ٢٢٦٩٨ — ٧٧٠٧ — ١٣٤٧٢/٢ — ١٨٥١٢ — ٧٧٠٩ — ٢١١٠٩ — ١٦٤١٨ — ٢٣٥٨٣/٥ .

(١٠) Balog (Paul) : Dirhemes D' imitaion Arabe Frappées par les Croisades, Bulletin De L'institut d' Egypte, t. XXX, 1948 — 1949 p. 147 fig. 18.

Lavoix (Henri) : Monnaies à Legendes Arabes Frappées en Syrie, Paris 1877 p. 37.

الى طراز السكة النورماندية المسيحية التى تتضح فى هذه القطعة الذهبية النورماندية لغليالم قبل أن تصل الى المرحلة الثالثة ذات الطابع النورماندى المسيحى .

ومن الجدير بالملاحظة ما تثيره هذه القطعة الذهبية النورماندية من تساؤلات تستحق الدراسة والبحث للأسباب الآتية :

أولا : أن هذه القطعة الذهبية النورماندية تحمل على أحد وجهيها اسم ملك صقلية النورماندى غليالم دون تحديد ما اذا كان يقصد به غليالم الأول أم الثانى لأنه من المعروف أن صقلية فى العصر النورماندى قد حكمها اثنان من الملوك بهذا الاسم ، هما غليالم الأول الذى حكم صقلية فى الفترة من سنة ٥٤٨ هـ الى سنة ٥٦٠ هـ (١١٥٣ — ١١٦٤) ثم أعقبه غليالم الثانى الذى حكم صقلية من سنة ٥٦١ الى سنة ٥٨٤ هـ (١١٦٥ — ١١٨٨ م)[١١] مما جعل نسبة هـذه القطعة الى أحدهما أمرا يحتاج الى الكثير من التمحيص والتدقيق .

وبمقارنة طراز الخط الكوفى المزهر فى هـذه القطعـة الذهبية بأسلوب الخط الكوفى عباءة تتويج روجر الثانى[١٢] المؤرخة بسنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) نلاحظ التشابه الواضح بينهما . كما يتفق طراز الخط فى هذه القطعة الذهبية أيضا مع أسلوب الخط الكوفى فى الكتابات المسجلة على شاهد قبر[١٣] من صقلية باسم القائد محيا بن عبد الله

---

(١١) د. عبد المنعم رسلان : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(١٢) وهى تقرأ « مما عمل للخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والمجد والكمال والطول والأفضال والقبول والاقبال والسماحة والجلال والفخر والجمال وبلوغ الأمانى والآمال وطيب الأيام والليالى بلا زوال ولا انتقال بالعز والدعاية والحفظ والحماية والسـعد والسلامة والنصر والكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » .

Repertoire Chronologique d'Epigraphies Arabes, t. VIII, p. 184, No. 3058.

(١٣) Amari, Michele : Les Epigrafi Arabiche di Sicilia, Parte II, Palermo 1872 VII, No. 2.

، د. عبد المنعم رسلان : المرجع السابق ، ص ٦٧ — ٦٨ لوحة ٢١ .

المؤرخ بسنة احدى وثلاثين وخمسمائة هجرية (لوحة ٣) مما يزكى نسبة هذه القطعة الذهبية الى غليالم الاول دون الثانى ، على الرغم من أن النقاش قد حاول فى هذه القطعة الذهبية أن يقلد أسلوب الخط لدنانير الخليفـــة العباسى المســـتعين بالله (٢٤٨ هـ — ٢٥١ هـ) (٨٦٢ م — ٨٦٥ م) من حيث كتابة العين مفتوحة بهيئة العدد (٧) وهى سمة من سمات الخط الكوفى فى القرون الثلاثة الأولى للاسلام ، غير أنه يبدو أن النقاش لم يستطع أن يتخلص من تأثره بطابع الخط الكوفى المتطور المزهر الشائع فى عصره ، لذلك تميزت حروف هـــذه القطعة الذهبيـــة بالرشاقة وبوجـــود تزهير فى حرف النون فى كلمة (المستعين) على عكس الخط الكوفى الذى شاع فى القرن الثالث الهجرى فى عهـــد المســـتعين بالله الذى اتســـمت حروفه بالسمك والتقطيح[١٤] (تعريض نهايات الحروف) وبظهور التوريق فى بعض الحروف أحيانا .

وبدراسة طراز الخط الكوفى فى صقلية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أى فى عهد الملك غليالم الثانى يلاحظ أن الخط فى تلك الفترة قد قطع مرحلة كبيرة من التطور والتنوع فى أشكاله مثل الكوفى المزهر والكوفى المجدول والكوفى الهندسى ، كما تميز فى تلك المرحلة بالمرونة والثراء الفنى فى زخارفه وبشيوع استخدام الخط النسخ أو الثلث كما يتضح فى (الافريز) العلوى لقصر القبة بصقلية الذى يحمل نصا باسم غليالم الثانى سنة ١١٨٠ م (لوحة ٤) وقد قام آمارى بدراسته ونشره[١٥] .

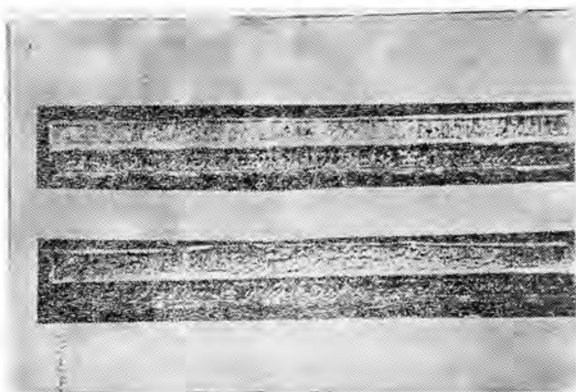
---

(١٤) د. ابراهيم جمعة : دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الاحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات فى بقاع اخرى من العالم الاسلامى ، القاهرة ، ص ١٥٥ — ٢٠٦ .

(١٥) Amari : Storia dei Musulmani di Siclia, Nallino, Fierenza 1872 Vol 13, pp. 818, 819.

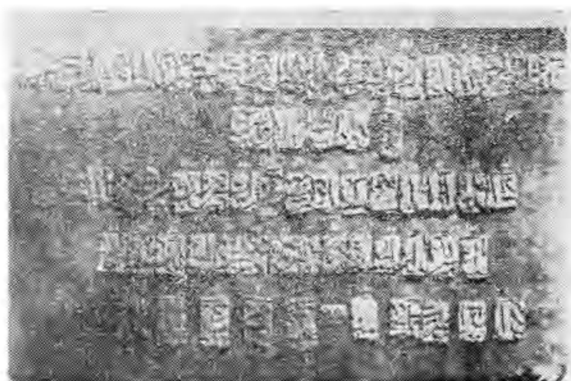
، د. عبد المنعم رسلان : المرجع السابق ، ص ٨٠ — ٨١ لوحة ٣٠ .

Wiet (Gaston) : Stéles Funeraires, Catalogue du Musée Arabe, XXI, tomes.



(لوحــــة ٣)

شاهد قبر من صقلية باسم القائد محيا بن عبد الله سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م)



(لوحــــة ٤)

كتابة بالخط الثلث باسم غليالم الثانى (بالافريز) العلوى لقصر القبــة بصـــقاية

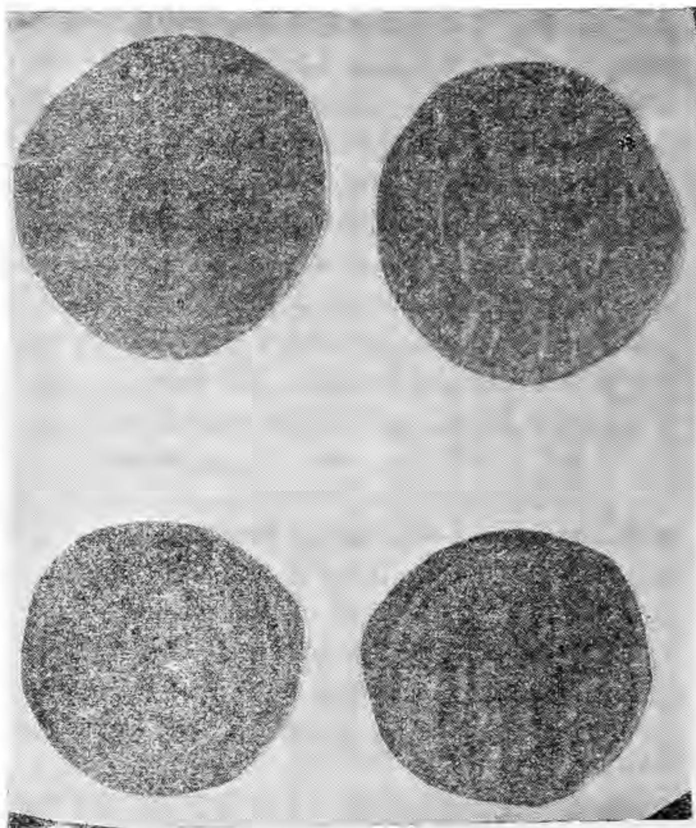
وبمقارنة نص غليالم الثانى بالكتابات المسجلة على قطعة النقود الذهبية يلاحظ أن الكتابات فى عهد غليالم الثانى كانت أكثر تطورا وثراء فى زخارفها منها فى عهد غليالم الأول مما يزكى نسبة ربع دينار المتحف الاسلامى الى غليالم الأول .

هــذا علاوة على أن متحف الفن الاســلامى بالقاهرة يحتفظ بست[١٦] قطع برونزية ونحاسية (لوحة ٥) منها واحدة فضية تحمل جميعها اسم ملك صقلية غليالم الثانى وهى تجمع بين الطابعين الاسلامى والمسيحى وتختلف من حيث طرازها بل وأسلوب خطها المقلد للخط العربى عن طراز وأسلوب الخط فى ربع الدينار الذى يحمل إسمى غليالم والخليفة العباسى المستعين بالله . اذ يلاحظ أن سكة الملك غليالم الثانى تحمل على أحد وجهيها بالمركز إما صورة نصفية جانبية للملك النورماندى بلحية كثيفة طويلة يعلو رأســه تاج بشــكل يتضح فيه التأثر بالطابع العربى الاسلامى ، أو قد يظهر أحيانا على أحد وجهيها رموزا أو شارات مسيحية مثل شكل ســعف النخيل الذى يرمز الى النصر عند الرومان كما كان يرمز عند المسيحيين الى انتصار الشهيد على الموت[١٧] . وهو ما يعبر عن انتصار النورمانديين على المسلمين . أما الوجه الآخر للنقود فكان يتضمن بالمركز تقليدا للكتابة العربية تقرأ (١ ــ الملك ٢ ــ غليالم ٣ ــ الثانى) فى ثلاثة سطور محصورة داخل دائرة يحيط بها هامش من عبارات مسيحية باللغة اليونانية وذلك إما بالخط الثلث أو بالخط الكوفى الذى يجمع بين التزهير والشــكل الهندسى المعمارى الذى يمثل تطورا ملحوظا عن أسلوب الخط فى القطعة الذهبية السابقة التى تحمل اسم غليالم والخليفة المستعين ، وهو دليل آخر يزكى نسبة تلك القطعة الذهبية الى الملك غليالم الأول .

---

(١٦) أرقام سجل ١ ــ ٢١٤٢٧/٢ ، ١ ــ ٢٣٧٨٠/٤

(١٧) جورج فيرجســون : الرموز المسيحية ودلالتها ، ترجمــة د. يعقوب جرجس نجيب ، ١٩٦٤ ، ص ٥٧ .



(لوحـــــة ٥)

فلسان من البرونز من صقلية فى العصر النورماندى وهما اثنان من مجموعة من ست قطع محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة باسم الملك غليالم الثانى تجمع بين الكتابات العربية واليونانية والشارات المسيحية يتضح فيها تأثر السكة فى صقلية فى العصر النورماندى بالسكة الاسلامية رغم زوال حكم الفاطميين منها .

رقم سجل ١ — ٢٣٧٨٠/٤ (ينشران لأول مرة)

هذا بالاضافة الى أن عبارة « يسوع المسيح المنتصر » المسجلة باللغة اليونانية على هذه القطعة الذهبية ليدل على أنها من العملات التذكارية التى ضربت لتسجيل انتصار النورمانديين وفرحتهم بتحقيق النصر على الفاطميين وهو ما يدل على قربهم الزمنى من هذا الحدث الهام الذى سبق أن سجلته لنا عباءة تتويج روجر الثانى ، مما يقوى نسبة هذه القطعة الذهبية الى الملك النورماندى غليالم الاول ، كما يدل أيضا على أن النورمانديين قد قلدوا العملات التذكارية من الدنانير الفاطمية وأجزائها التى كان يضربها الفاطميون فى المناسبات والأعياد مثل أول العام الهجرى ، وغرة وآخر رمضان ، وفى عيدى الفطـر والنحر • وفى الثلث الأخير من شهر ذى الحجة لتفريقها[١٨] على كبار رجال الدولة وموظفيها وعامة الناس على سبيل التبرك والترغيب فى اعتناق المذهب الشيعى •

ومن الجدير بالملاحظة أن قيام الصانع فى صقلية بتقليد السكة الفاطمية كان من حيث الشكل فقط دون المضمون اذ راعى استبعاد العبارات الاسلامية ، والآيات القرآنية واستبدالها بشكل الصليب اللاتينى والعبارات المسيحية ليدل على أن هذه القطعة الذهبية مواكبة لفترة التغيير والتحول الى المسيحية التى شهدتها صقلية بعد انتصار النورمانديين مباشرة على الفاطميين وهو ما يرجح كفة نسبتها الى

---

(١٨) المقريزى : الخطط ، طبعة النيل ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ — ٣٩٢ ، د . عبد الرحمن فهمى : المسكوكات ، كتاب القاهرة ، ص ٥٤١ — ٥٤٢ .

تراوحت أوزان أرباع الدنانير فى العصر الفاطمى ما بين ٠٠٩ر— جرام الى ٢٥٠ر١ من الجرام مثال ذلك ربع دينار باسم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله محفوظ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة برقم سجل ٤٥١٥ مقدار وزنه ٠٠٩ر— جرام وكذلك بعض أرباع دنانير الخليفة المستنصر التى بلغ وزن كل منها ٢٥٠ر١ جرام وهى بأرقام سجل ١٦٧١٨/١ ، ١٦٧١٨/٢ .

وايضا ربع دينار باسـم الخليفـة الفاطمى المستعلى برقم سجل ١٨٤٦١/٢ مقدار وزنه ٢٠٥ر١ جرام .

غليالم الاول وليس الثانى كما يدل فى الوقت نفسه على فهم وادراك الصانع فى صقلية للغة العربية وهو ليس بالأمر الغريب فقد خضعت صقلية لحكم المسلمين ما يربو على مائتين وخمسين عاما ، كما عاش الكثير من صناع المسلمين فى كنف الحكم النورماندى وذلك على عكس النقاش فى الامارات الصليبية الذى كان يجهل اللغة العربية وكشف عن شخصيته الاجنبية عند تقليده للدنانير الفاطمية فوقع فى الكثير من الأخطاء وجاءت حروف كتاباته متأثرة بطابع الكتابة اللاتينية •

ثانيا : مما يثير التساؤل أيضا بخصوص هذه القطعة الذهبية هو احتفاظ النورمانديين فى عهد غليالم بطراز السكة الفاطمية بل ووزنها رغم زوال نفوذ الفاطميين من صقلية وقيامهم بتسجيل اسم الخليفة العباسى عليها الى جانب اسم غليالم واختيارهم للخليفة العباسى المستعين بالله على وجه الخصوص رغم أن عهده يسبق فترة حكمهم بثلثمائة عام ولم يسجلوا عليها أحدا من الخلفاء العباسيين المعاصرين لهـم •

وفى حقيقـة الأمر يمكننا أن نستشف من احتفاظ النورمانديين بطراز السـكة الفاطمية فى عملاتهم فى عهـد غليالم رغم زوال نفوذ الفاطميين من صقلية أن صقلية النورماندية المسيحية لم تستطع أن تتخلص من تأثرها بطراز السكة الاسلامية التى ظلت صقلية تتعامل به منذ تبعيتها لحكم الأغالبة سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وحتى نهاية حكم الفاطميين بها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) أى ما يربو عن مائتين وخمسين عاما ، لذلك جاءت هذه القطعة الذهبية النورماندية معبرة عن مرحلة انتقال السكة فى صقلية من الطراز الاسلامى الى الطراز النورماندى المسيحى نظرا لأنه لم يكن فى استطاعة الحكام النورمانديين أن يقوموا بتغيير النظام النقدى فى صقلية طفرة واحدة حتى لا يتعرض النظام المالى والاقتصادى للتدهور وتتأثر معاملات صقلية من جراء ذلك مع جيرانها من دول العالم الخارجى لاسيما وأنها تعتمد على التجارة مع بلاد الشرق • لذلك احتفظت هـذه القطعة الذهبية على أحد وجهيها

بالطابع الاسلامى ذى الكتابات العربية الكوفية بينما جاء الوجه الآخر لسكتهم معبرا عن الحالة السياسية والدينية التى آلت اليها صقلية بعد قضائها على حكم الفاطميين وقيام الدولة النورماندية المسيحية •

ولما كان النورمانديون مضطرين ، حفاظا على استقرارهم الاقتصادى ، الى تقليد السكة الفاطمية الاسلامية الى أن يتم لهم تحقيق التغيير الشامل لنظامهم النقدى ، لذلك فقد تعمد النورمانديون تسجيل اسم الخليفة العباسى رغم أن خلافته سابقة لحكمهم بثلاثة قرون لأمرين ، الأمر الأول أن يتجنبوا تسجيل أسماء أعدائهم من خلفاء الدولة الفاطمية حتى يبتعدوا عن أى مظهر من مظاهر التبعية لهم بعد زوال حكمهم منها ، لاسيما وأن السكة تمثل سلطة وسيادة الحكام[١٩] وتسجيل أسمائهم عليها حق شرف لهم دون غيرهم يمنحوه لمن يشاؤون • والأمر الثانى أن النورمانديين قد أرادوا الاعلان عن عدائهم للفاطميين بتسجيل اسم أحد الخلفاء العباسيين على سكتهم لأنه من المعروف عداء الخلفاء العباسيين السنيين للدولة الفاطمية الشيعية[٢٠] ومحاولة كل منهم القضاء على الآخر لينفرد بخلافة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها •

أما عن تسجيل النورمانويين لاسم الخليفة العباسى المستعين بالله على هذه القطعة الذهبية رغم أن خلافته قد انقضت منذ ثلاثة قرون

---

(١٩) د. عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٩٨ .

(٢٠) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٥٥٩ — ٥٦١ .

ولم يلجئوا الى تسجيل اسم الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله[٢١] مثلا (٥٣٠ — ٥٥٦ هـ) (١١٣٦ — ١١٦٠ م) المعاصر لحكمهم لكى يتجنبوا أى نوع من أنواع التبعية لأى دولة من الدول من جهة وربما يرجع ذلك الى أن فترة حكمهم فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى قد واكبت تدهور نفوذ الخلافة العباسية وبالتالى ضعف أحوالها الاقتصادية وتدهور قيمة عملتها ، لذلك أرادوا أن يقلدوا عملتها القديمة القوية[٢٢] العالية القيمة التى كانت سائدة فى معظم أقطار العالم الاسلامى .

وتعتبر هذه القطعة الذهبية النورماندية إحدى الدلالات التى تشير الى تأثر صقلية بالفنون الفاطمية حتى بعد زوال حكم الفاطميين منها ، وأن هذا التأثر لم يقتصر على تقليد سكتها فحسب بل حاكتها أيضا فى فن العمارة والتصوير والفنون الزخرفية ، وهو ما تؤكده لنا عمائر صقلية فى العصر النورماندى كقصر العزيزية وقصر القبة[٢٣] ، كما يتضح أيضا التأثير بالفن الفاطمى فى تصاوير سقف الكابلا بلاتينا فى بالرمو[٢٤] التى ترجع الى عهد الملك النورماندى روجر الثانى فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، والتى تأثرت فى زخارفها

---

(٢١) ابن عماد الحنبلى (أبو الفــلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، بيروت ، ص ١٧٢ .

(٢٢) اصطلح على إطلاق عبارة (نقود قوية) على الســكة التى تكون فيها النقود المعدنية اكبر من قيمتها الاسمية أما اذا كانت القيمة المعدنية اقل من القيمة الاسمية فتسمى نقودا ضعيفة أنظر :

د. عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ١ ، ص ٤٩٦ .

(٢٣) Girault de Prangey : Essai sur L'Architecture des Arabes Paris 1841, pp. 78-79.

(٢٤) د. حسن الباشا : التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى ، ١٩٥٩ ، ص ٨٣ — ٨٨ .

، د. عبد المنعم رسلان : المرجع السابق ، ص ١١٢ — ١٤٧ .

بشكل واضح سواء من حيث الرسوم الآدمية أو الحيوانية أو النباتية أو الكتابية بالزخارف الممثلة على فنون العصر الفاطمى ، وان أصبحت تتسم بالنزعة الى التحرر وقربها من محاكاة الطبيعة ومراعاة النسب التشريحية الى حد كبير ، والتعبير عن الانفعالات النفسية للأشخاص والاهتمام بتصوير حياة المجتمع الصقلى تحت حكم النورمانديين •

ولم يقتصر التأثر بالفن الفاطمى على فنى العمارة والتصوير فى صقلية فى العصر النورماندى فحسب بل شمل أيضا الفنون الزخرفية الممثلة فى زخارف الحشوات الخشــبية الواردة من قصور ومنازل وكنائس صقلية فى عهد النورمانديين بالاضافة الى بعض شواهد القبور والنقوش الجصية والحجرية والتحف العاجية[٢٥] والخشبية المزخرفة بالحفر والتطعيم كالصناديق والمقلمات والأبواق التى يرجع تاريخها الى العصر النورماندى والمحفــوظة بمتاحف العــالم[٢٦] كمتحف المتروبوليتان بنيويورك أو متحف الــدولة ببرلين وبعض المجموعات الخاصة بباريس أو بصقلية الملحقة بالكابلا بلاتينا فى بالرمو ، هذا بالاضافة الى عباءة التتويج الحريرية المطرزة بخيوط الذهب للملك النورماندى روجر الثانى والتى تشــير الى تأثر صقلية بفن صناعة المنسوجات الفاطمية واعتمادهم على صناع النسيج المسلمين الى جانب إعتمادهم على اليونانيين الذين أسرهم الملك روجر الثانى فى حروبه فى بحر الأرخبيل ، وهذه الأمثلة جميعها تشير الى تأثر صقلية بالفنون الفاطمية حتى بعد زوال حكم الفاطميين وخضوعها للنورمانديين •

---

(٢٥) Mayssa Dawoud : Les Ivories, Tardy, Paris 1977, pp. 84-100.

(٢٦) د. زكى محمد حسن : أطلس الفنون ، أشكال ٥٩٨ ، ٤٣٣ ، ٤٢٠ .

، د. عبد المنعم رسلان : المرجع السابق ، ص ١٥٧ — ١٨٥ .

، د. ســعاد ماهر : الفنــون الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٦١ — ١١٨ ، د. سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ .

مصـــادر ومراجع البحث

قــرآن كــريم :

ــ سورة الروم ٣٠ آيتان ٤ ، ٥

ــ سورة الصف ٤٤٠ آية ٩

ــ سورة الفتح ٤٨ آية ٢٨

أولا ــ المصادر والمراجع العربية :

ــ ابراهيم جمعه (دكتور) : دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات فى بقاع أخــرى من العالم الاسلامى ، القاهرة .

ــ ابن عماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت .

ــ أرنولد ، كريستى ، بريجز : تراث الاسلام ، ترجمه وشرحه د. زكى محمد حسن ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٦ .

ــ جورج فيرجسون : الرموز المسيحية ودلالتها ، ترجمــة د. يعقوب جرجس نجيب ، ١٩٦٤ .

ــ حسن ابراهيم حسن (دكتور) : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والاجتماعى والثقافى ، دار النهضة المصرية ، ١٩٧٦ .

ــ حسن الباشا (دكتور) : التصوير الاسلامى فى العصــور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ .

ــ رأفت النبراوى (أثرى) : المسكوكات الصليبية فى مصر

والشام ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٩ •

— زامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة د• زكى محمد حسن ، د• حسن أحمد محمود ، جزءان ، القاهرة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ م •

— زكى محمد حسن (دكتور) : ا — أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ، بغداد ١٩٥٥ •

ب — كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ •

— سعاد ماهر محمد (دكتوره) : ا — الفنون الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٦ •

ب — النسيج الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ •

— سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى جزءان ، القاهرة ١٩٨٢ •

— عبد الحكيم الرفاعى (دكتور) : الاقتصـــاد السياسى ، القاهرة ١٩٣٦ •

— عبد الرحمن فهمى (دكتور) : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، فجر السكة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ •

— عبد المنعم رسلان (دكتور) : الحضارة الاسلامية فى صقلية وجنوب ايطاليا ، جدة ١٩٨٠ م •

— المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر ت ٨٤٥ هـ) :

أ — إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق د• جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م

ب — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، مطبعة النيل ١٣٢٤ هـ •

يا ـ المراجـع الأجنبيـة :

— Amari (Michele) : Le Epigrafi Arabiche di Sicilia, Parte Pri
Palermo 1872.

— Balog (Paul) : Dirhemes D'Imitation Arabe Frappeés par l
Croisades, Bulletin de L'Institut d'Egypte t. X
1948 — 1949.

— Combe (E), Sauvaget (S) et Wiet (G) : Repertoire Chro
logique d'Epigraphie Arabe, Le Caire 1931
1964.

— Girault de Prangey : Essai Sur L'Architecture des Arabes, Pa
1841.

— Grierson (Philip) : A rare Crusaders Bezant with the Chris
Vincit Legend (The American Numisma
Society) Museum notes VI, 1954.

— Lavoix (Henri) : Monnaies à Legendes Arabes Frappées
Syrie, Paris 1877.

— Mayssa Daoud : Les Ivoires, Tardy Paris 1977.

— Schlumberger (Gustave) : Numismatique de L'Orient Lat
Paris 1878.

— Wiet (Gaston) : Stéles Funeraires, Catalogue du Musée Ara
XXI tomes.

المراجعات والتقارير وعرض الكتـــب

« فـــاروق الأول »

الملك الذى غدر به الجميـع

تاليـــــف : عــــادل ثابــت

نقله الى العربية : محمد مصطفى غنيم

الطبعــة الثالثة : ديسمبر ١٩٨٩ م

عــــرض

دكتور / عبد العليم على عبد الوهاب ابو هيكل

امتلأت الساحة الفكرية فى الآونة الاخيرة بكم هائل من المذكرات الشخصية ممن كانوا على رأس الأحداث أو على علاقة بهم ــ قرابة أو عملا ــ فى محاولة لتبرئة ساحتهم أو تعليل توجهاتهم فيما وقع من أحداث أو تطورات فى عهدهم • وكتاب « فاروق الاول الذى غدر به الجميع » ، هو كما نرى واحد من تلك المحاولات لعدد من الاسباب •

أولا : أن مؤلفه الاستاذ (عادل محمود ثابت) أقدم على تدوين هذه المذكرات باتخاذ موقف مسبق للدفاع عن الملك فاروق وتبرئة ساحته فى كثير من المواقف وملقيا وزر الكثير منها على المحيطين به ، باعتبار صلة القرابة التى تربطهما عن طريق (نازلى) والدة فاروق ، ابنة خالة المؤلف ، ولهذا فالكتاب فى محتواه العام أقرب الى السيرة الذاتية للسيد ثابت ومدى ارتباط هذه السيرة بالأحداث التى جرت فى عهد « فاروق » ودور المؤلف منها ــ حيث يقول « ليست هذه سيرة ذاتية للملك فاروق بل هى أقرب فى طبيعتها الى تقرير شخصى عن تجارب المؤلف » •

ثانيا : وبناء على ما سبق ، لم نتابع الاحداث التاريخية التى دونها المؤلف تتابعا زمنيا أو موضوعيا ، بل دونت اعتمادا على الاسلوب « الانتقائى » بدأ من علاقات الصبا الى الشباب حتى خروج فاروق من مصر عــام ١٩٥٢ م • ومن هــذا نلاحظ محتويات الكتـــاب

على أبواب ثلاث الاول بعنوان « ملك فى الانتظار » ، والثانى « الفجوة الايرانية » أما الباب الثالث فبعنوان « ملك كائن » .

أما الجزء الاول « ملك فى الانتظار » فيوضح مدى تأثر المؤلف والملك فاروق بأسلوبين متباينين فى التربية التى فرضت عليهما من المربيات الانجليزيات ، ووقع ملك مصر وقتها تحت طائلة أسلوب الالتزام الكامل ، ثم رحلة فاروق الى كلية « وولوتش » العسكرية ودور أحمد حسنين وعزيز المصرى فى حياته الاجتماعية والعلمية هناك ، والدور الذى لعبته (نازلى) فى حياة ابنها الخاصة سواء قبيل سفره الى انجلترا أو حين عودته الى مصر لتولى العرش عام ١٩٣٦ م . والملكة الأم حينئذ لا تزال فى ريعان شبابها تطمح نحو الخروج من الاطار المحكم الذى كان يحيطها به زوجها الملك فؤاد ، ومدى ما كانت تشعر به من ضيق خاصة وأنها تنتمى الى سلالة تعشق التوجهات التحررية على كافة المستويات الاجتماعية والسياسة منذ عهد جدها الأسبق (محمد شريف باشا) ، فانعكست هذه التوجهات المتناقضة التى عايشها فاروق على حياته ، الالتزام والجدية التى تربى عليها فى صباه ، وانطلاقة والدته التى تحاول وضع بصماتها الذاتية ، وفرض شخصيتها تعويضا عما فقدته فى حياة زوجها ، سواء على المستوى الشخصى للملك فاروق حين زواجه من (فافيت ــ صافيناز ذو الفقار ــ الملكة فريدة) أو مستوى علاقات القصر مع القوى السياسية داخل مصر كالاحزاب والباشوات فى الوقت الذى شهدت فيه السنوات الاولى لحكم فاروق أحداث جسام على المستوى الدولى كنشوب الحرب العالمية الاولى ، وعلى المستوى المحلى بعودة المنافسة القديمة بين الحكومة والقصر وتباين المواقف بين السفارة البريطانية والضباط البريطانيين فى كيفية التعامل مع فاروق ، مما أوقعه فى النهاية داخل أزمات متلاحقة وهو ما زال بعد قليل الخبرة تجاه تلك الممارسات ، ومن هنا ظن المؤلف أن حادث قصر عابدين فى فبراير ١٩٤٢ م كان من صنع السفير البريطانى (لامبسون) فاعتبره (الحاكم العسكرى

الأكبر من حجمه الحقيقى) مفسرا شكوك السفير تجاه فاروق ، ومحاولا تعليـــل الحادث وابعاد الاخير عن ملابساته . على أننـــا نرى أن (لامبسون) لم يتصرف فى هذا الاتجاه الا من خلال مسؤلياته التى ألقيت عليه ، بناء على موقعه وموقع مصر بالنسبة لأحداث الحرب تجاه انجلترا .

أما الجزء الثانى المعنـــون بـــ (الفجوة الايرانية) فقد اعتمد المؤلف فى نسج خيوطه على قصة زواج (فوزية) شقيقة الملك الكبرى من (محمد رضا بهلوى) وتحفظ فاروق تجاه تلك الزيجة لاختلاف المذهب الدينى بين مصر وايران ، الا أنه أرجع الموافقة أو الرفض الى رغبة أخته التى رأت فى الزواج (هروبا سعيدا) من الحصار الذى تعيش فيه بحكم مركزها . ومع مراسم تمام الزفاف الملكى والمآدب التى أقيمت فى مصر وايران أورد المؤلف صورا فى ملحق الكتاب لتلك الحفلات ، الا أنه مع انتقال (الاميرة) الى طهران بدأت مؤشرات عدم الانسجام بين الزوج وزوجته لأسباب متعددة منها اختلاف الامزجة العامة لدى الشعوب ، وأخرى شخصية تتصل بزوجات الامبراطور الثلاث وتباين ميولهن عن ميول (الامبراطورة الجديدة) ، ثم القلق الذى ساور (فوزية) لما أحاطها من (الصخب الاجتماعى والسياسى المبهم) الذى تعيشه ايران نظرا لطبيعـــة الاهواء بين القـــوى الايرانية (القصر الامبرطورى بعناصره من جهة والشعب من جهة أخرى) ، ثم القوى الاجنبية (بريطانيا والاتحاد السوفيتى) التى تعبث بمقدرات ايران كما يحلو لها ، والتقاء الطموحات الاجنبية مع الميول الشخصية المتناقضة داخل عناصر الحكم الامبراطورى ، مما جعل بؤر الانفجار مهيأة تماما ، وبالتالى ما وقعت فيه (فوزية) من مشكلات ومخاوف أوصلتها الى حد الخشية على حياتها . فى هذا الوقت من عام ١٩٤٥ م أتى الدور الذى أسند الى (عادل ثابت) ووالده (محمود) باعتباره سفيرا لمصر فى ايران — كدور أساسى للتخلص من هذه الأزمة التى ألقيت فيها

شقيقة الملك حتى استطاع السفير ونجله اعادتها الى مصر بحجة الزيارة والنزهة ثم كان طلاقها •

أما الجزء الثالث بعنوان (ملك كائن) فقد أرجع المؤلف الكثير من الاحداث التى أعقبت الحرب العالمية الثانية (ميثاق جامعة الدول العربية ـ الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨) ، أرجعها الى ما يمكن أن نسميه (تناقض التوجه المصرى) ـ من خلال ما أطلق عليه (مصر الكبرى) ذات النفوذ والسلطة التى تتجاوز حدودها الطبيعية ، و (مصر الصغرى) التى (لا يمكن أن تمضى بمفردها ولكنها فى حاجة الى التحالف مع قوة كبرى من أجل أن تبقى) على حد قوله ، متناسيا أولا من ناحية الالتقاء المصرى السعودى فى ذلك ـ ما كان يغمر الساحة العربية من توجه نحو التكتل لمواجهة الضغوط الغربية المتزايدة وقتئذ ، وثانيا فيما يتعلق بحرب ١٩٤٨ اندفاعه نحو موقفه الأساسى فى محاولة تبرئة ساحة الملك فاروق ـ مما حاق بالجيش المصرى فألقى بأسبابها على (مجموعة مستمدة من عدم كفاءة القادة العسكريين المصريين) والى (الصفقة التى أبرمت بين ملك الاردن والاسرائيليين) ـ ورأى ـ خطأ ـ أن فاروق قد تحمل وطأة هذه النتيجة بحكم موقعه ، وعلى نفس المنوال كانت مسألة (الأسلحة الفاسدة) التى أمست حتى وقتنا الحاضر ـ قضية تباينت من حولها الآراء السياسية والأكاديمية على حد سواء ، ويحاول تبرئة ساحة الملك منها ملقيا وزر ما أحيط بها على (حيدر باشا) وعلى (المخابرات الامريكية والاسرائيلية) التى بدأت تلقى بشباكها داخل الساحة المصرية والعربية على حد سواء •

وبالرغم من محاولات (عادل ثابت) إعادة التخطيط لبناء الجيش المصرى على أسس حديثة مستقاه من النمط الالمانى ، واستقدام الجنرال (آرثر فيلهلم) الى القاهرة فى يوليو ١٩٤٩ م • تحمس الملك فاروق لهذا الاتجاه وتلك الخطوات مقدما لهم التسهيلات المطلوبة وقرارات

لتنفيذ الخطوط الرئيسية فى المسح الجغرافى والانظمة المتطورة ، الا أن دسائس حيدر باشا وعصبته ، والمخابرات الامريكية التى نشطت مع بداية تراخى القبضة البريطانية عن مصر ، أعاقت هذه الجهود لتطوير الجيش المصرى بل قضت عليها من ناحية ، وأشعلت حماس فاروق لتحدى الوضع البريطانى من ناحية أخـــرى ، كما استطاع الضباط الاحرار النفاذ بين طموحات وخطط المد الامريكى والنفوذ البريطانى حتى تمكن هؤلاء الضباط فى النهاية من القيام بحركتهم فى يوليـــو ١٩٥٢ م ٠

رقم الايداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ ـــ ٠٢٦ ـــ ٢٣٨ ـــ ٩٧٧

المطبعــة الاســلامية الحــديثة

٤٢ (أ) شارع دار السعادة ـــ حلمية الزيتون

ت : ٢٤٧٥٣٥٢



The Egyptian Historian

REFEREED HISTORICAL STUDIES & RESEARCHES

Five Issue **January, 1990**

Chief Editor : Prof. Dr. Hamed Zayan Ghanem

Managing Editor : Dr. Abdel Aleem Ali Abo Hakil

All Correspondence to be directed to :

Porf. Dr. Hamed Zayan Ghanem, The Chief Editor. Cairo University, Faculty of Arts, A. R. E.



CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS

The Egyptian Historian

REFEREED HISTORICAL STUDIES & RESEARCHES

5

JANUARY

1990

ISSUED BY
HISTORY DEPARTMENT



CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS

The Egyptian Historian

REFEREED HISTORICAL STUDIES & RESEARCHES

5

JANUARY

1990

ISSUED BY
HISTORY DEPARTMENT

قرش جنيه
١٠/٠٠



جامعة القاهرة
كلية الآداب

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

٥

يناير ١٩٩٠

يصدرها قسم التاريخ

محتـــوى العـــدد

صفحة